أسلوب القسم في سورة (العصر) وإعجازه البياني في النظم القرآني

د/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد
مدرس التفسير وعلوم القرآن– جامعة الأزهر الشريف

ملخص البحث

هذا البحث عنوانه: (أسلوب القسم في سورة العصر وإعجازه البياني في النظم القرآني)، وقد عُنِيَ بدراسة هذا الأسلوب البديع، فحقق وجه تسميته مجليًا حيثيات صدقها على مسماها مقررا إعجازها. وبَيَّنَ القضايا التي تستهدف السورة تقريرها، وأقام البراهين في سبيل الاستدلال عليها. ودرس مفردات أركان القسم كاشفا عن حقيقتها، ومستنبطا أسرارها، ومجليا حيثية تمكنها نظما، واقتضائها حالا؛ لإبراز إعجازها البياني: لغة، وبناء، وإعرابا، وصوتا. وعُنِيَ بالكشف عن أسرار تمكُّنِ المقسم به، مظهرا بديع المناسبة بينه وبين المقسم عليه.

واتبعتُ فيه المنهج التحليلي وفق خطواته المقررة، وضمن آلياته المعتمدة.

وخلص إلى إثبات الإعجاز بأنواعه في أسلوب القسم بكل فرائده. **وإلى أن** أسباب اختيار المفردة في نظمه ترجع في مجملها إلى سَعَةِ معان استقلت بها، وثراء استعمالات تحققت لها، وعمق دلالات انفردت بها، وفيض مكنونات ابتعثتها، وكثرة إيحاءات اكتنفتها، وتعدد إشارات لازمتها، وظلال مطاوي استصحبتها.. وغير ذلك من حيثيات كلها من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام، قد توفرت لها دون غيرها مما هو قريب منها في بابها؛ فجعلتها فارسة تجول في ساحة النظم بوجه لا يجارى، وتجوب ميدانه بنمط لا يبارى، متقلدة سيف الحجة، والبرهان، تجادل بفصيح القول، وبليغ الكلام؛ فيتأكد بليغ إعجازها، ويتقرر إلهية نظمها. **وإلى** تقرير أن اللغة العربية قد اصطفاها الله عَزَّ وجَلَّ؛ لتكون لسان التنزيل السماوي؛ لما توفر لها من الخصائص الذاتية، والسمات الدلالية، ما لم يتحقق لسواها؛ فهي الآلية المحتمة لإمكان ترجمة رسائل مفردات النظم الإلهية، وإدراك وظيفتها السماوية، والسبيل المتعين لاستخراج أسرارها، وبلوغ حقيقة إعجازها. **وكلماته المفتاحية:** أسلوب، القسم، سورة العصر، الإعجاز البياني، النظم القرآني.

Research Summary

This research is entitled: (The method of oath in Surat Al-Asr and its graphic miraculousness in the Qur'anic systems), and it was concerned with the study of this wonderful method. He clarified the issues that the chapter aims to report, and established evidence in order to deduce them. And he studied the vocabulary of the pillars of the oath, revealing its truth, deducing its secrets, and revealing the reason for its ability to organize, and its necessity immediately. To highlight its graphic miraculousness: language, structure, syntax, and voice. And he was concerned with revealing the secrets of the power of the one who swears by it, showing the wonderful fit between him and the one who swears by it.

In it, I followed the analytical approach according to its prescribed steps, and within its approved mechanisms.

And he concluded to prove the miraculousness of all kinds in the method of oath with all its uniqueness. And that the reasons for choosing the word in his systems are due, in their entirety, to the capacity of the meanings with which it was independent, the richness of the uses that were achieved for it, the depth of the connotations that were unique to it, the abundance of the hidden things that it embodied, the large number of revelations that surrounded it, the multiplicity of signs of its necessity, and the shadows of the folds that accompanied it. The case, and the necessities of the position, have been available to her without anything else that is close to her in her door; So I made her a knight to roam the arena of systems with an unparalleled face, and to roam his arena in an unparalleled style, imitating the sword of argument and proof, debating with eloquence and eloquent speech. Verify eloquent miraculousness, and determine the divinity of its systems.

And to the report that the Arabic language has been chosen by God Almighty; To be the tongue of the heavenly download; Because of its self-characteristics and semantic features, unless otherwise achieved; It is the inevitable mechanism for the possibility of translating the messages of the vocabulary of divine systems, realizing its heavenly function, and the necessary way to extract its secrets, and attain the truth of its miraculousness. And its key words: style, oath, Surat Al-Asr, graphic miracle, Quranic systems.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله الذي أنار الدنيا بضياء العلم، وشموس المعرفة، والصلاة والسلام على النبي المصطفى ﷺ، وآله وصحبه ﷺ ومَنِ اقتفى، أثره المستمد من الكتاب العزيز والسنة المشرفة.

وبعد، فهذه دراسة تفسيرية تحليلية، تُعْنَى بالكشف عن أسلوب عربي بديع، وسبك قرآني بليغ، ألا وهو أسلوب القسم في سورة العصر، وتلقي الضوء على وجه من الأسرار التفسيرية، والأبعاد الدلالية للمفردة القرآنية في نظمه، وتستنبط الظلال الإشارية، والإيحاءات المعنوية التي تنتظمها لبناته في عقد مطاويها، مقررة حيثية كونها مستجيبة لمقتضى حالها، خاضعة لمستدعيات مقامها، متمكنة [1] في نظمها، متناغمة مع فرائد سياقها؛ تقريرا لأهم أوجه الإعجاز [2] القرآني، ألا وهو الإعجاز البياني، كاشفة عن أبرز دلائله في النظم القرآني. **وعنوانها: (أسلوب القسم في سورة العصر وإعجازه البياني في النظم القرآني).**

أسباب اختياري الموضوع:

وقد دفعني إلى هذا البحث بعد إرادة الله ﷻ عدة أسباب، **في طليعتها: الأول:** تحقيق معنى القسم، واكتشاف سر وسمه بهذا الاسم، وبيان ما يوحي به ذلك من دلائل وأسرار. **الثاني:** إظهار خصائص القسم كأسلوب قرآني موسوم بالبلاغة، وحقيق بالإعجاز. **الثالث:** بيان مكانة المفردة في هذا السبك القرآني، واجتلاء أسباب تمكنها نظما، وأوجه اقتضائها حالا. **الرابع:** الكشف عن وشيج الصلة وأكيد المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه. **الخامس:** الاستجابة لمتطلبات العصر من ضرورة التجديد في الخطاب الديني، والذي ينتظم التجديد في التفسير أصالة وابتداء، بالإسهام في إكمال جهود السادة المفسرين، والبدء مما وقف عنده السابقون، مشاركة– ولو بالقليل– في تشييد صرح المكتبة التفسيرية. **السادس:** الإسهام في إحياء تراثنا الإسلامي والعربي، والكشف عن كنوزه، والإشادة بمكانة علمائه؛ اعترافا بجليل دورهم، وتنويها بسامق فكرهم، وبعد أفقهم، وثاقب بصرهم، وتجذر علمهم، وإقرارا بفضل سبقهم، وتسجيل الثناء الجميل حقا مستوجبا لهم.

أهمية البحث: تتجلى أهمية هذا البحث من خلال ما يثمره من أثر علمي ينتمي للصرح التفسيري، يتجلى في ضوئه إعجاز النظم القرآني، ويمكن بلورة أبرز أوجه أهميته في النقاط التالية:

الأولى: أنه يَتَأَتَّى من خلاله التعرف على حقيقة تسمية أسلوب القسم، وبيان خصائصه كأسلوب قرآني بديع.

الثانية: أنه يُعْنَى بإثبات إعجاز المفردة القرآنية في نظمها، مقدما حيثيات ذلك، ومقيما البراهين الدامغة عليه.

الثالثة: أن هذا البحث بعمومه يعد نمطا جديدا في مضمار الدراسات التفسيرية التحليلية، والموضوعية على السواء.

الرابعة: أنه يجمع بين الأصالة والمعاصرة، استجابة لمقتضيات العصر، واتساقا مع مجرياته.

الخامسة: أنه نمط فعلي، وعمل تطبيقي، ونموذج تجريبي؛ لإحياء تراثنا الإسلامي والعربي، والغوص في أعماق درره، واستخلاص كنوزه، وبيان أنه السبيل المرسوم لِمَنْ أراد أن يتشرف بولوج ساحة النظم القرآني، والتعرف على ميدان إعجازه البياني.

السادسة: أنه يعد عملا تقريريا لأصول دراسة التفسير لاسيما التحليلي، وينطلق في ذلك من أسس لا سبيل للمحيد عنها، ولا مناص من تفعيلها، والخطو عليها، **وأولى هذه الأسس:** الاعتماد على لغة القرآن الكريم بما لها من خصائص وميزات في البحث

---

[1] **قال الإمام الزركشي معرفا بالتمكين، ومبينا سره:** " هو أن تمهد قبلها تمهيدا تأتي به الفاصلة ممكنة في مكانها، مستقرة في قرارها، مطمئنة في موضعها، غير نافرة، ولا قلقة، متعلقا معناها بمعنى الكلام كله تعلقا تاما، بحيث لو طرحت؛ اختل المعنى، واضطرب الفهم. وهذا الباب يطلعك على سر عظيم من أسرار القرآن، فاشدد يديك به ". البرهان في علوم القرآن: 79/1 بتصرف. **وتبعه الإمام السيوطي مضيفا:** " وبحيث لو سُكِتَ عنها؛ كمله السامع بطبعه ". الإتقان في علوم القرآن: 345/3.

[2] **الإعجاز مفاده:** " أن القرآن يصيب العربي المبدع، وغيره من باب أولى بما يجعله لا يستطيع الإتيان بأقصر سورة من القرآن، أو يدانيه. وعرفه علماء القرآن بأنه: تمتع البنية القرآنية بطاقات، وخصوصيات خارجة عن طوق البشر، وعن طوق رسول الله ﷺ نفسه؛ ومن ثَمَّ فلا يكون إلا من خالق القوى، والقدر ". النبأ العظيم، للشيخ دراز (حقائق، وتجليات)، لـ أ.د/ محمد سالم أبو عاصي، عميد كلية الدراسات العليا بجامعة الأزهر سابقا: صـ11 بتصرف يسير.

عن أسراره، واستخراج دُرره، واكتشاف كنوزه، واستنباط علومه، وإثبات دلائل إعجازه. والتعويل على فهم العلماء السابقين، وجعل ما قدموه من سبق علمي بمثابة الأساس الذي يبنى عليه، ويشيد على دعائمه.

مشكلة البحث:

من المشكلات التي عُنِيَ البحث بها، هي الإجابة عن التساؤلات الستة التالية:

1. ما وجه تحقيق تسمية أسلوب القسم؟
2. ما هي القضايا التي تستهدف سورة العصر تقريرها؟
3. ما معنى العصر؟ ولماذا أقسم الله تعالى به؟
4. ما سر تمكن المقسم به في هذه السورة؟
5. ما المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه في نظم السورة؟
6. هل جاءت لبنات الصرح القرآني في نظم أسلوب القسم متمكنة في سياقها؟
7. ما المناسبة بين أسلوب القسم، وبين القضايا التي تُعْنَى بإثباتها السورة؟
8. ما هو السبيل المعتمد في الكشف عن أسرار الكلم القرآني، وبلوغ حيثيات إعجازه البياني؟
9. هل يمكننا القول: بأنه قد انتهت معطيات القرآن، واكتشفت بلاغة أساليبه؟

الهدف من دراسته:

قد استهدف البحث أهدافا بعينها، ورام بلوغها، وسعى في تحقيقها، وإصابة أبعد مراميها. **ومنها ما يلي:**

أولًا: تحقيق معنى القسم، وبيان خصائصه كأسلوب قرآني، والكشف عن بديع المناسبة بين أركانه.

ثانيًا: دراسة ذلك الأسلوب البديع، والبحث في دقائق نظمه، والتنقيب عن أسرار سبكه، والغوص في أعماق طيات فرائده، وتأمل مكنوناتها؛ كشفا عن بلاغته، وإثباتا لدلائل إعجازه.

ثالثًا: بيان الأصل المقرر لدراسة المفردة القرآنية، وإمكانية ترجمة رسالتها الإلهية، وذلك بالاعتماد على خصائص لسان وحيها، وعربية لفظها؛ لإظهار سعة مساحتها التعبيرية، وأبعاد مرامي دلالاتها السياقية.

رابعًا: إظهار أوجه تعين المفردة القرآنية مقاما، وبديع تمكنها نظما، وجلاء صدقها في معالجة أهداف سياقها، وإظهار بديع التناغم بينها وبين القضايا والمقاصد التي تنتظمها، والأحوال التي تقتضيها، والمقامات التي تستدعيها؛ لإبراز الطبيعة الجمالية في دلالات التعبير بها، والوقوف على حيثية الإعجاز البياني في إيثارها.

خامسًا: التأكيد على حتمية دراسة عناصر النظم القرآني من خلال أبعاده الدلالية، سواء أكانت من الناحية اللغوية، أم الصرفية، أم النحوية، أم الصوتية.. وغيرها؛ إذ بها يتقرر بلوغ النظم القرآني القمة السامقة في إيثار فرائده، والإحكام المتين في سبكها، بحيث لا يمكن لأحد تغيير ما أثبت فيه، ولا الاستعاضة عن بعض لبناته بسواها.

الدراسات السابقة:

لم أقف على دراسات مستقلة لهذا الموضوع في قسم التفسير وعلوم القرآن، وبعد طول بحث؛ تبين أنه لم تسبق دراسته بالطريقة التي سأتناوله بها– إن شاء الله تعالى–، وقد جاءت الإشارة الإجمالية في ثنايا تراثنا التفسيري وغيره إلى فوائد أسلوب القسم ضمن سياقاته المتعددة، وقضاياه المتنوعة، وإلقاء الضوء على بعض فرائد سبكه، دون التعرض إلى تحقيق تسميته، ولا بيان خصائصه، ولا الغوص في أعماق دلالة المفردة في نظمه، ولا بيان أوجه المناسبة بين أركانه، ولا الوقوف على رسالته الإلهية الناطقة بحيثيات إيثار التعبير به، والمعلنة بالبرهان أوجه إعجازه في النظم القرآني.

إضافة البحث العلمية:

هذا، ومن إضافة البحث العلمية ما يلي: **أولا:** أنه قد أسهم في تقديم تأصيل علمي يتجلى من خلاله تحقيق معنى القسم، وبيان أسرار تسميته، وإظهار خصائصه. **ثانيا:** أنه قد أصَّلَ لمنهجية التعامل مع أسلوب القسم من خلال تحقيق معناه، وجلاء السبيل

إلى دراسته، وارتسام خطوات. **ثالثا:** أنه قد عُنِيَ بإبراز أوجه الإعجاز في أسلوب القسم، لاسيما الكشف عن إعجاز المفردة القرآنية في نظمه ضمن أصول دراستها، محاولا الوقوف على رسالتها الإلهية التي تنطوي عليها، وإظهار وظيفتها التي أنيطت بها. **رابعا:** أنه قد وَجَّهَ غايته نحو إثبات العلاقة بين أركان القسم مجليا وشيجها، وبيان وطيد الصلة بينها وبين القضايا التي تعالجها، والأهداف التي تنتظمها. **خامسا:** أنه قد كشف عن وجه التناسب بين أسلوب القسم، وبين القضايا التي تُعْنَى السورة بإثباتها.

خطة البحث:

هذا، وقد اقتضى الحال تقسيم البحث **إلى مقدمة، وفصلين، وخاتمة** مذيلة بفهارس علمية.

أما المقـــدمة: فقد ضمنتها أسباب اختيار الموضوع، وأهمية البحث، ومشكلاته، والهدف من دراسته، والدراسات السابقة، وإضافة البحث العلمية، وخطته.

وأما الفصل الأول: فعنوانه: (أسلوب القسم في سورة العصر). وفيه مبحثان.

المبحث الأول: تحقيق معنى القسم. **وفيه مطلبان.**

المطلب الأول: حقيقة القسم في ضوء اللغة.

المطلب الثاني: حقيقة القسم اصطلاحا.

المبحث الثاني: التعريف بسورة العصر، وبيان القضايا التي تستهدف تقريرها إجمالا. **وفيه مطلبان.**

المطلب الأول: بطاقة تعريفية بسورة العصر.

المطلب الثاني: القضايا التي تعالجها السورة الكريمة إجمالا.

وأما الفصل الثاني: فعنوانه: (سبائك أسلوب القسم في نظم السورة). وفيه خمسة مباحث.

المبحث الأول: السبيكة الأولى: فرائد المقسم به. **وفيه مطلبان.**

المطلب الأول: المفردة الأولى: (واو القسم) خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية.

المطلب الثاني: المفردة الثانية: ﴿الْعَصْرِ﴾ حقيقتها وأسرارها.

المبحث الثاني: السبيكة الثانية: فرائد المقسم عليه. **وفيه خمسة مطالب.**

المطلب الأول: المفردة الأولى: ﴿إِنَّ﴾ خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية.

المطلب الثاني: المفردة الثانية: ﴿الْإِنسَانَ﴾ حقيقتها وأسرارها.

المطلب الثالث: المفردة الثالثة: (اللام) الداخلة على الخبر خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية.

المطلب الرابع: المفردة الرابعة: ﴿فِي﴾ الظرفية خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية.

المطلب الخامس: المفردة الخامسة: ﴿خُسْرٍ﴾ حقيقتها وأسرارها.

المبحث الثالث: المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه.

المبحث الرابع: تتمة أسلوب القسم في نظم السورة الكريمة.

المبحث الخامس: المناسبة بين أسلوب القسم وبين القضايا التي تُعْنَى بإثباتها السورة الكريمة.

وأما الخاتمة: فقد ضمنها أهم النتائج، وأبرز التوصيات، وذيلتها بالفهارس العلمية التي تخدم البحث.

منهج البحث، وإجراءاته: اعتمدت في دراستي المنهج التحليلي، فأقوم بدراسة أسلوب القسم سالكة الخطوات التالية:

1- **أبين** حقيقة القسم مُعْجَمِيًّا متتبعة دلالته اللغوية، واستعمالاته العربية، في بطون المصادر المعنية.

2- **أوظف** الدلالات اللغوية والاستعمالات العربية في الكشف عن حقيقته، واجتلاء سر تسميته، وإعلان خصائصه، وإبراز ملامحه الأسلوبية، والإنباء عن بواعثه، وأسرار وروده، والإفصاح عن بلاغته في سياقه، والإشعار بتمكن فرائد نظمه، والترغيب في العمل بمقتضاه، والإذعان له، والإعراب عن وظائفه السياقية، والإشعار بأحوال استدعائه،

والإيحاء بآليات دراسته، والإشارة إلى سبيل اكتشاف أسراره.. إلخ من حيثيات تَنَوَّهُ بها مادته التأليفية (ق س م) في ضوء لغتها، واستعمالات لسانها.

3- **أبين** حقيقة القسم اصطلاحا على اختلاف أهل كل مصطلح، وتنوع وجهات نظرهم، مذيلة ذلك ببيان العلاقة بين التحقيق اللغوي والمعنى الاصطلاحي.

4- **أقدم** بين يدي الدراسة بطاقة تعريفية بسورة العصر تتضمن اسم السورة، وزمان ومكان نزولها، وموقعها السياقي: سباقا، ولحاقا.

5- **أُنَوِّهُ** بالقضايا التي تعالجها السورة الكريمة إجمالا؛ تمهيدا لبيان وجه الاستدلال عليها، وتقريرا لتمكن أسلوب القسم إزاء مواجهتها.

6- **أدرس** سبائك أسلوب القسم في نظم السورة؛ فأتناوله ضمن سبيكتين، **الأولى**: فرائد المقسم به. **والثانية**: فرائد المقسم عليه.

7- **أتناول** كل مفردة في نظم السبيكتين على حدة، فأقوم بتأصيل حقيقتها في ضوء تراثنا العربي، فأحلل مادتها تحليلًا لغويًا مُعْجَمِيًّا دقيقًا يشمل الرجوع بها لجذورها اللغوية– ما أمكن ذلك–، وأبين استعمالاتها عند العرب، وذلك إذا كان للكلمة جذر لغوي. أما إذا كانت مفردة حرفية؛ فأتعرض لبيان دلالتها الصوتية، وخصائص حروفها الدلالية، مع بيان طبيعة تأليفها، واتساقها مع معناها المساوق لها.

8- **أبيِّن** حقيقة المفردة في ظلال تراثنا التفسيري، فأجمع أقوال السادة المفسرين بشأنها؛ لأبين مدى تأثرهم بالدلالة اللغوية، وتفعيلهم لما انطوت عليه من معان، وما انتظمته من أسرار ودلالات.

9- **أجمع** دلالتها المستخلصة لغويا وتفسيريا في عقد واحد، تحت عنوان: (التوسع في المعنى)؛ فأوجّه جميع ما انطوت عليه المفردة من دلالات، وما انتظمته من استعمالات، وما أثمرته من إيحاءات، وما لوحت به من إشارات، مستنبطة الأسرار التفسيرية من كوامن معانيها، متلمسة الأبعاد الدلالية، والإيحاءات المعنوية من ظلالها، وأنزلها على سياقها؛ تقريرا لثرائها المعنوي، وعمقها الدلالي، وبعدها الإشاري، وكشفا عن سر إيثارها، وإعلانا لحيثيات تمكنها نظما، ووجوه تعينها مقاما؛ مما من شأنه إثبات سمو نظمها، وتقرير وجه إعجازها.

10- **أتناول** إعجاز المفردة– إضافة إلى الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية، والأوجه التفسيرية– في ضوء دلالاتها الأخرى، لاسيما دلالتها من حيث البناء، والإعراب، وكذا دلالتها الصوتية، وخصائص حروفها الدلالية، في ظلال إيحاءات مخرجها، وطريقة تكونها، وطبيعتها النطقية، وصفاتها الصوتية بإيجاز؛ استقصاءً لأسرار بلاغتها، واستيفاءً لأوجه إعجازها.

11- **أوجِّه** الأساليب البلاغية الواردة في النظم، وأبين أثرها التفسيري في السياق.

12- **قد أتعرض** لبعض القضايا التفسيرية المتعلقة بالبنية القرآنية، مما هو من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام.

13- **أعلّق** على أقوال العلماء، والسادة المفسرين في ثنايا الشرح والتحليل، لإيضاحها، وبيان المقصود منها، أو شرح ما انطوت عليه من فنون نحوية، وبلاغية، وغير ذلك.

14- **أخرّج** الأحاديث الواردة في البحث، بعزوها إلى مصادرها المعتمدة، مقرونة بذكر اسم الكتاب، والباب، ورقم الحديث– إن وُجِدَ–، والراوي الأعلى، أو ما يقوم مقام ذلك باختلاف طرق العزو المقررة، مبينة لِمَنِ اللفظ عند تعدد مخارج الحديث، مع الحكم عليه؛ إذا كان الحديث في غير الصحيحين، أو أحدهما.

15- **أخرِّج** الأبيات الشعرية من مصادرها المعتمدة، مع العناية بشرح ما يحتاج إلى توضيح بها.

16- **أبيّن** المصطلحات العلمية غير المشهورة، والألفاظ الغريبة عند ذكرها لأول مرة.

17- **أترجم** للأعلام غير المشهورين بإيجاز عند ذكرهم لأول مرة.

18- **أعزو** الأقوال إلى قائليها موثقةً النصوص من المصادر والمراجع مكتفية بذكر اسم المصدر مختصرا مقرونًا بذكر اسم مؤلفه باختصار في أول مرة- إذا كان غير مشهور-، متبوعا برقم الجزء والصفحة، وذلك تجنبا للتكرار؛ حيث إني أورده في فهرس المصادر مقرونًا بذكر جميع بياناته. وقد أذكره باسمه المعروف، أو مضافًا لصاحبه.

المبحث الأول

تحقيق معنى القسم

المطلب الأول

حقيقة القسم في ضوء اللغة

من البدهي أننا إذا أردنا أن نفهم أسلوبا معينا، أو نقف على أسرار تسميته، ونجتلي فوائده، ونستنبط حيثيات إيثار التعبير به- لزمنا أولا تحقيق معناه، وإماطة اللثام عن كنه مادته التأليفية، وبيان مناط استعمالاتها؛ بلوغا إلى إدراك طبيعته الأسلوبية، وارتسام خصائصه البيانية.

ولما كان (القسم) أسلوبا عربيا، وسبكا قرآنيا؛ تعيَّن بيان حقيقته في ضوء لغته، واستعمالات لسانه، لاسيما وأن طبيعة المفردة العربية بما لها من الخصائص والميزات تنطوي على دلالات تكشف عن كنهها، وتنتظم معاني ترتسم حقيقتها، واستعمالات تخطط ملامحها، وتعلن خصائصها، وتجلي صورها، وتتضمن فوائدها، كما توحي بإيحاءات تنبعث بأسرار اقتضائها، وتلوح بإشارات تنطق بحيثيات التعبير بها، وتستصحب في مطاويها بداية استعمالها في إطارها المادي أولا، ثم تطورها وانتقالها إلى طور المعاني ثانيا؛ ربطا بين الماديات الحسية التي تنتظمها، والمعنويات التي تدل عليها، وغير ذلك من مقوماتها الذاتية، وخصائص لسانها الأساسية [1]؛ ومن ثَمَّ فهي تصرخ بسمو نظمها، وتُنَوِّهُ بدلائل إعجازها.

وفيما يلي عرض لأبرز أقوال أهل اللغة تأصيلا لمادة (ق س م)، وبيانا لدلالتها اللغوية، واستعمالاتها العربية.

فقال الخليل: " (قسم): القَسْمُ مصدر قَسَمَ يَقْسِمُ قَسْما، ويقال: قَسَمَ بينهم قِسْمةً. والقِسْم: الحظ من الخير، ويجمع على أقسام. والقَسَم: اليمين، ويجمع على أقسام، والفعل: أقْسَمَ. والقَسيمُ: الذي يقاسمك أرضا أو مالا بينك وبينه. وهذه الأرض قَسيمةُ هذه، أي: عزلت منها. والقَسّامُ: مَنْ يَقسِمُ الأرضين بين الناس، وهو القاسِمُ [2]. والاستِقسام: أنهم كانوا يجيلون السهام، أي: الأزلام عند الأصنام، فما يهمون به من الأمور العظام، مثل تزويج أو سفر؛ كتب على وجهي القدح: أخُرج، لا تخرج، تزوج، لا تتزوج، ثم يقعد عند الصنم بكفره: أيُّ الأمرين كان خيرا إلي فأذن لي فيه؛ حتى أفعله، ثم يجيل، فأي الوجهين خرج؛ فعل راضيا به قسما، وحظا. وحصاة القَسْمِ، ونواة القَسْمِ: أنهم إذا قَلَّ ماؤهم في المفاوز؛ عمدوا إلى غمر، فألقوا فيه تلك الحصاة أو النواة، ثم صبوا عليه من الماء قدر ما يغمرها؛ حتى يستوي بأعلاها؛ فيعطى كل إنسان شربة من ذلك الماء، بمقدار واحد على ما وصفت [3]. والأقاسيمُ: الحظوظ المقسومةُ بين العباد. والقَسيمُ من الرجال: الحسن الخلق. والقِسمةُ: الوجه [4] " [1].

---

[1] **على نحو قد قررته.** ينظر: وصف (عربي) في النظم القرآني "حقيقته، وأسراره"، لـ د/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد: صـ 658- 665.

[2] **وعند الأزهري:** "القَسَّامُ: الَّذِي يَقسمُ الدُّورَ وَالْأَرضين بَين الشُّرَكَاء فيها " . تهذيب اللغة (ق س م): 319/8. لسان العرب (ق س م): 479/12. **وعبارة ابن سيده:** " القسام: الَّذِي يَقسِم الأَشياء بَيْنَ النَّاسِ " . المحكم والمحيط الأعظم (ق س م): 247/6.

[3] **وقيل:** " حصاةُ القَسْم: أَنهم كَانُوا إِذا قلَّ المَاء عِنْدهم لِلشُّقَّةِ فِي الفَلوات؛ عَمدُوا إِلَى قعبٍ، فَألْقوا تِلْكَ الْحَصَاة فِيهِ، ثمَّ صبُّوا عَلَيْهَا المَاء قدر مَا يغمرها، وقُسِمَ المَاء بَينهم على ذَلِك " . تهذيب اللغة (ق س م): 321/8 وما بعدها بتصرف يسير.

[4] **ويقال:** " وجهٌ مُقَسَّمٌ، أَي: حسنٌ. والْأَثر المقَسَّم، أَي: المحَسَّن. والقَسِمَةُ: مَا بَين الْعَينَيْنِ. والقسمةُ: أعالي الْوَجْه. والقسِماتِ: مَجارِي الدُّموعِ والوجوه، واحدتها: قَسِمَةٌ. والقَسامُ: الحسْنُ، وَكَذَلِكَ القَسامَةُ. والقسيمةُ: المرأةُ الجميلةُ. يقال: امرأَة قسيمة، وَهِي: الحسناءُ. والقَسامِيُّ: الحسَنُ من القسامَةِ. والقسامَةُ: الحسنُ التَّامُّ، وجمعُها قَساماتٌ " . تهذيب اللغة (ق س م): 320/8– 322 بتصرف. **وقال**

وقال الأزهري: " يُقَالُ: هُوَ يَقسِمُ أمرهُ قَسْما، أَي: يُقَدِّرُهُ، ينظرُ كَيفَ يعملُ فيهِ. والقَسامِيُّ: الَّذِي يَطْوِي الثيابَ أَوَّلَ طَيِّها؛ حَتَّى تتكسَّرَ على طيِّهِ. والقَسامِيُّ: الَّذِي يكونُ بينَ شَيْئَيْنِ. والقَسامَةُ: الهدنةُ بَين العدوِّ وَبَين الْمُسلمين، وَجَمعهَا قساماتٌ. والقسامَةُ: الَّذين يحلفُونَ على حَقهم ويأخُذُونَ. والقَسامُ: وَقت الهاجِرَةِ [2]. ويقال: جاءتْ قَسامةُ الرَّجل، سُمُّوا بِالْمَصْدَرِ، وَقتل فلانٌ فلَانا بالقَسامة: بِالْيَمِينِ، وجاءتْ قسامةُ الرجل، وَأَصله: الْيَمين، ثمَّ جُعل قوما، **والمُقْسَمُ**: القَسَم، **والمُقْسَمُ**: الموضعُ يُحلف فِيهِ، **والمُقْسِمُ**: الرَّجل الْحَالِف. والقَسامةُ: اسْم من الإقسام وضع مَوضِع الْمصدر، ثمَّ قيل للَّذين يُقْسِمُون: قسامةٌ " [3].

وقال ابن فارس مؤصلا: " (قَسَمَ): (الْقَافُ)، وَ(السِّينُ)، وَ(الْمِيمُ): أَصْلَانِ صَحِيحَانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُمَا عَلَى جَمَالٍ وَحُسْنٍ. وَالْآخَرُ عَلَى تَجْزِئَةِ شَيْءٍ. فَالْأَوَّلُ الْقَسَامُ، وَهُوَ الْحُسْنُ وَالْجَمَالُ، وَفُلَانٌ مُقَسَّمُ الْوَجْهِ، أَيْ: ذُو جَمَالٍ. وَالْقَسِمَةُ: الْوَجْهُ، وَهُوَ أَحْسَنُ مَا فِي الْإِنْسَانِ [4]. وَالْقَسَامُ: شِدَّةُ الْحَرِّ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: الْقَسْمُ: مَصْدَرُ قَسَمْتُ الشَّيْءَ قَسْمًا. وَالنَّصِيبُ قِسْمٌ بِكَسْرِ (الْقَافِ). فَأَمَّا الْيَمِينُ فَالْقَسَمُ. قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: أَصْلُ ذَلِكَ مِنَ الْقَسَامَةِ، وَهِيَ الْأَيْمَانُ تُقْسَمُ عَلَى أَوْلِيَاءِ الْمَقْتُولِ؛ إِذَا ادَّعَوْا دَمَ مَقْتُولِهِمْ عَلَى نَاسٍ اتَّهَمُوهُمْ بِهِ [5]. وَأَمْسَى فُلَانٌ مُتَقَسِّمًا، أَيْ: كَأَنَّ خَوَاطِرَ الْهُمُومِ تَقَسَّمَتْهُ. والْقَسَامِيُّ، وَهُوَ الَّذِي يَطْوِي الثِّيَابَ أَوَّلَ طَيِّهَا، ثُمَّ تُطْوَى عَلَى طَيِّهِ. قَالَ: (طَيَّ الْقَسَامِيُّ بُرُودَ الْعَصَّابْ) [6]، يُقَالُ: إِنَّ الْعَصَّابَ: الْغَزَّالُ " [7].

الإمام الراغب: " فلان مُقْسِمُ الوجه، وقَسِيمُ الوجه، أي: صبيحة، والْقَسَامَةُ: الحسن، وأصله: من القسمة؛ كأنما آتى كلّ موضع نصيبه من الحسن، وأخذ قسما من الجمال؛ فلم يتفاوت. وقيل: إنما قيل: مُقَسَّمٌ؛ لأنه يقسم بحسنه الطّرف؛ فلا يثبت في موضع دون موضع " . المفردات، للراغب (ق س م): صـ 671 بتصرف يسير. **وعند ابن منظور:** "القَسِمَةُ: الوجهُ، وَقِيلَ: مَا أَقبل عَلَيْكَ مِنْهُ. وَقِيلَ: قَسِمَةُ الْوَجْهِ: مَا خَرج مِنَ الشَّعْرِ. وَقِيلَ: الأَنفُ وناحِيتاه، وَقِيلَ: وسَطه، وَقِيلَ: أَعلى الوَجْنة، وَقِيلَ: مَا بَيْنَ الوَجْنتين والأَنف، تُكْسَرُ سِينُهَا وَتُفْتَحُ، وقيل: مَا فَوْقَ الْحَاجِبِ. وَيُقَالُ مِنْ هَذَا: رَجُلٌ قَسِيم ومُقَسَّم؛ إِذا كَانَ جَمِيلًا". لسان العرب، لابن منظور (ق س م): 482/12 وما بعدها بتصرف.

[1] العين (ق س م): 5 / 86 وما بعدها بتصرف.

[2] " **وقِيلَ**: القَسَامَة: شِدَّةُ الْحَرِّ، وَقِيلَ: إن القَسَام: أَول وَقْتِ الْهَاجِرَة. وَقِيلَ: القَسَام: وَقْتُ ذُرور الشَّمْسِ، وَهِيَ تَكُونُ حِينَئِذٍ أَحسن مَا تَكُونُ، وأَتمّ مَا تَكُونُ مَرْآةً " . لسان العرب (ق س م): 483/12 بتصرف.

[3] تهذيب اللغة (ق س م): 8 / 319 – 321 بتصرف.

[4] **وعند ابن منظور:** " القَسَام، والقَسَامَة، والقَسِمَةُ: الحُسْن " . لسان العرب (ق س م): 482/12 بتصرف. **قلت:** وفي هذا الصنيع العربي الأصيل دليل على أن المعول عليه في اللبنة العربية إنما هو الجذر اللغوي لها؛ فقد اختلفت الأوزان ثَمَّ إلا أن معناها جميعا واحد وهو الحسن، وهذا ظاهر من خلال استقراء مادة (ق س م) معجميا. أما سائر الاختلافات في شكل البنية الكلامية، وتعدد الأوزان في صياغتها، فهذا شأن يخضع في تحليليه والوقوف على مراميه، للدلالة الصرفية، والنحوية، والصوتية، كما يُعْنَى ببيانه التحليل المقطعي داخل تلك البنية.. إلخ.

[5] **قَال الأزهري:** " وَتَفْسِيرُ القَسَامَة فِي الدَّمِ: أَن يُقْتل رَجُلٌ فَلَا تَشْهَدُ عَلَى قَتْلِ الْقَاتِلِ إِياه بَيِّنَةٌ عَادِلَةٌ كَامِلَةٌ، فَيَجِيءُ أَولياء الْمَقْتُولِ، فَيَدَّعُونَ قِبَل رَجُلٍ أَنه قَتَلَهُ، ويُدْلُون بِلَوْث مِنَ الْبَيِّنَةِ غَيْرِ كَامِلَةٍ، وَذَلِكَ أَن يُوجد المدَّعى عَلَيْهِ مُتلطِّخا بِدَمِ الْقَتِيلِ فِي الْحَالِ الَّتِي وُجد فِيهَا وَلَمْ يَشْهَدْ رَجُلٌ عَدْلٌ أَو امرأَة ثِقَةٌ: أَن فُلَانًا قَتَلَهُ، أَو يُوجَدُ الْقَتِيلُ فِي دَارِ الْقَاتِلِ وَقَدْ كَانَ بَيْنَهُمَا عَدَاوَةٌ ظَاهِرَةٌ قَبْلَ ذَلِكَ، فإِذا قَامَتْ دِلَالَةٌ مِنْ هَذِهِ الدَّلَالَاتِ؛ سَبَق إِلى قَلْبِ مَنْ سَمِعَهِ أَن دَعْوَى الأَولياء صَحِيحَةٌ؛ فَيُستَحْلَفُ أَولياءُ الْقَتِيلِ خَمْسِينَ يَمِينًا: أَن فُلَانًا الَّذِي ادَّعَوْا قَتْلَهُ، انْفَرَدَ بِقَتْلِ صَاحِبِهِمْ مَا شَرَكه فِي دَمِهِ أَحد، فإِذا حَلَفُوا خَمْسِينَ يَمِينًا؛ اسْتَحَقُّوا دِيَةَ قَتِيلِهِمْ، فإِن أَبَوْا أَن يَحْلِفُوا مَعَ اللَّوْثِ الَّذِي أَدلوا بِهِ؛ حَلَفَ المدَّعى عَلَيْهِ، وبَرِئَ، وإِن نَكَلَ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ عَنِ الْيَمِينِ؛ خُيِّرَ وَرَثَةُ الْقَتِيلِ بَيْنَ قَتْلِهِ، أَو أَخذ الدِّيَةِ مِنْ مَالِ الْمُدَّعَى عَلَيْهِ". تهذيب اللغة: (ق س م): 8 / 321. وينظر لسان العرب (ق س م): 481/12.

[6] **هذا عجز بيت صدره:** (طاوين مجدول الخروق الأحداب)، قاله رؤبة يصف إبلا أسرعت السير. و(العصاب): الغزال. ينظر: أدب الكاتب، لابن قتيبة: صـ 187. وشرح أدب الكاتب، لأبي منصور بن الجواليقي: صـ 174.

[7] مقاييس اللغة (ق س م): 5 / 86 وما بعدها بتصرف.

وقال الراغب: " قسم: الْقَسْمُ: إفراز النّصيب، وقِسْمَةُ الميراث، وقِسْمَةُ الغنيمة: تفريقهما على أربابهما. ورجل مُنْقَسِمُ القلب، أي: اقْتَسَمَهُ الهمّ، نحو: متوزّع الخاطر، ومشترك اللّبّ. وأَقْسَمَ: حلف، وأصله من الْقَسَامَةُ، وهي أيمان تُقْسَمُ على أولياء المقتول، ثم صار اسما لكلّ حلف " [1].

هذا، وقد توسع ابن منظور في استقراء استعمالاتها، وجمع ما يتعلق بها؛ فقال: " **والمَقْسَم:** نَصِيبُ الإِنسان مِنَ الشَّيْءِ. يُقَالُ: قَسَمْت الشَّيْءَ بَيْنَ الشُّرَكَاءِ، وأَعطيت كُلَّ شَرِيكٍ مِقْسَمه وقِسْمه وقَسِيمه. واسْتَقسَمُوا بالقِداح: قَسَمُوا الجَزُور عَلَى مِقدار حُظوظهم مِنْهَا. والاسْتِقْسَام: طَلَبُ القِسم الَّذِي قُسِم لَهُ وقُدِّر، مِمَّا لَمْ يُقسَم وَلَمْ يُقَدَّر. وقَاسَمْتُه الْمَالَ: أَخذت مِنْهُ قِسْمَك، وأَخذ قِسْمه. وَهَذَا قَسِيم هَذَا، أَي: شَطْرُه. والقُسَامَة: مَا يَعْزِله الْقَاسِمُ لِنَفْسِهِ مِنْ رأْس الْمَالِ؛ لِيَكُونَ أَجْرا لَهُ. والقُسَامَةُ: الصَّدقة؛ لأَنها تُقسم عَلَى الضُّعَفَاءِ. ويقال: وَعِنْدَهُ قَسْمٌ يَقْسِمه، أَي: عَطاء. وقَسَمَهم الدَّهر يَقْسِمُهُم؛ فتَقَسَّموا، أَي: فَرَّقهم؛ فتَفَرَّقوا. ونَوىً قَسُومٌ: مُفَرِّقة مُبَعِّدة، وقيل: مُقَسِّمة للشَّمْل، مُفَرِّقة لَهُ. والتَّقْسِيم: التَّفْرِيقُ. والقَسَم: الرَّأْي، وَقِيلَ: الشكُّ، وَقِيلَ: القَدَرُ. وقَسَمَ أَمرَه قَسْما: قَدَّره، ونَظَر فِيهِ كَيْفَ يَفْعَلُ، يُقَالُ: هُوَ **يَقْسِمُ** أَمره قَسْما، أَي: يُقَدِّره، ويُدَبِّره، يَنْظُرُ كَيْفَ يَعْمَلُ فِيهِ. ويُقَالُ: تَرَكْتُ فُلَانًا يَقْتَسِم، أَي: يُفَكِّرُ، ويُرَوِّي بَيْنَ أَمرين. وَيُقَالُ: فُلَانٌ جَيِّد القَسْمِ، أَي: جيِّد الرأْي. وَرَجُلٌ مُقَسَّمٌ: مُشتَرَك الخواطِر بالهُموم. والقَسَمُ، بِالتَّحْرِيكِ: الْيَمِينُ، وَكَذَلِكَ **المُقْسَمُ**. وَقَدْ أَقْسَمَ بِاللَّهِ، واسْتَقْسَمَه بِهِ، وقَاسَمَه: حلَف لَهُ. وتَقَاسَمَ القومُ: تَحَالَفُوا. والقَسامة: الْجَمَاعَةُ يُقْسِمُون عَلَى الشَّيْءِ أَو يُشهدون. ويَمِينُ القَسامةِ مَنْسُوبَةٌ إِليهم. **والمُقْسَمُ:** القَسَمُ. **والمُقْسَمُ:** المَوْضِع الَّذِي حَلَفَ فِيهِ. **والمُقْسِم:** الرَّجُلُ الْحَالِفُ. والقَسامةُ: اسْمٌ مِنَ الإِقْسام، وُضِع مَوْضِع الْمَصْدَرِ. وقيل: القَسَامة، بِالْفَتْحِ، الْيَمِينُ كالقسَم، وَقَدْ جَاءَتْ عَلَى بِناء الغَرامة والحَمالة؛ لأَنها تَلْزَمُ أَهل الْمَوْضِعِ الَّذِي يُوجَدُ فِيهِ الْقَتِيلُ؛ وَمِنْهُ قيل: القَسامة تُوجِبُ العَقْل، أَي: تُوجب الدِّيَةَ لَا القَوَد. وَسُمِّيَ السَّحَرُ قَسِيمَة؛ لأَنه يَقْسِم بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ. والقَسِيمَة: السُّوقُ. والقَسَّامُ: المِيزان، وَقِيلَ: الخَيّاطُ. وأَصل القَسَام: الحُسن. والقَسُومِيَّات: مَوَاضِعُ. وقاسِمٌ، وقَسِيمٌ، وقُسَيْمٌ، وقَسَّام، ومِقْسَم، ومُقَسِّم: أَسماء. والقَسْم: مَوْضِعٌ مَعْرُوفٌ. **والمُقْسِم:** أَرض. وَفَرَسٌ قَسَامِيٌّ: مَنْسُوبٌ إِلى قَسَام فَرَسٌ لِبَنِي جَعْدة " [2].

تعليق:

قلت: تجلى من الصنيع اللغوي والتأصيل المُعْجَمِيِّ: أن تسمية اليمين أو الحلف بالقسم يعود إلى أصل القسامة، وهي تلك الأيمان التي تقسم على أولياء المقتول، وهنا نتساءل سويا: لماذا آثر التعبير بالقسامة أصلا مع وجود ما يقوم بمعناها ظاهريا، كالتفريق على أولياء المقتول، أو التوزيع، أو ما شابه؟ وهنا ينشأ البحث عن سر تسمية الأصل، وإيثاره مع وجود ما يقاربه، وبذلك نجد أنفسنا نعود بأدراجنا لأصل المسألة، وهي لماذا سمي اليمين والحلف بالقسم؟ على أن استحضار رجوع ذلك إلى أصل القسامة هو نفسه محل تساءل ومجال بحث وتفسير!

وليس ثَمَّ جواب إلا في ضوء التأصيل اللغوي جملة وتفصيلا، فالقسم كلمة عربية، لها مادتها اللغوية، وصورتها التأليفية، فهي ذات جذر لغوي له خصائصه الدلالية، واستعمالاته العربية، وصورته النسقية، التي يجب أن تستحضر في كل اشتقاق انطوى على تلك المادة (ق س م)، أو بني على ذلك الأصل الجذري (قسم).

ومما سبق من التأصيل المعجمي يتجلى أن مادة تا [3] المفردة قد وضعت لدلالات مقصودة، وارتبطت استعمالا بمعان منشودة، وانصرفت ذهنا لأمور محسوسة، وتعلقت نطقا وتأليفا وضعيا بظواهر وأفعال معلومة، فإذا ما أطلقت تلك المادة بتأليفها الترتيبي؛ فهم كل ذلك في ضوئها، واستصحب في مطاويها، وجُرَّ- وضعا، واستعمالا، وحالا- في أذيال التعبير بها.

---

[1] المفردات (ق س م): صـ 670 وما بعدها بتصرف.

[2] لسان العرب (ق س م): 12 / 478 – 484 بتصرف.

[3] **قلت:** هو اسم إشارة للمؤنث، وقد آثرته؛ لما يوحي به صوتا، ورسما، من العلو، والرفعة، والامتداد، الذي يتطلبه المقام، ويستدعيه المرام.

وتبين أن من أشهر دلالاتها، وأظهر استعمالاتها: التجزئة، التفريق، النصيب والحظ من الخير، شطر الشيء، اليمين، اسما لمن يحلف عَلَى حق ويأخذه، وصفا لمنْ يقاسم آخر أرضا ومالا بينهما، توزيع الأرضين بين الناس، نعتا لمن يفرق الأرضين والدور بين الناس المشتركين فيها، اقتطاع واعتزال الشيء من مثيله، فعلا جاهليا كان محل رضا واقتناع، العطاء، تفريق الشمل، الإبعاد، الحظوظ المقسومة بين العباد، الجمال، الحسن التام، الوجه، وصبيحه، وما أقبل منه، وأعاليه، شدة الحر، أول وقت الهاجرة، وقت ذرور الشمس، اسم مواضع، وأرضا، حالة تعتري الإنسان بسبب الهموم كأن الخواطر تقسمته، انقسام القلب من الهم، توزع الخواطر، اشتراك اللب والخواطر بالهموم، طي الثياب طيا إثر آخر، إفراز النصيب، تفريق الأموال من إرث وغنيمة وما في معنيهما على أربابها، التحالف والاجتماع على أمر من الأمور، الهدنة بين العدو والمسلمين، الرأي، الشك، التروي بين أمرين، القَدَر، تقدير الأمر، والنظر فيه، وتدبره، جودة الرأي، السَّحَر، ما يكون بين الشيئين، الميزان، الحياكة، اسما لفرس عربي، وصفا لجماعة يقسمون على الشيء ويشهدون، وإليهم ينسب يمين القسامة.. إلخ.

كما ظهر نمط من تعليلاتهم للاستعمال العربي والصنيع اللغوي في بعض المواضع؛ إذ بينوا أن سبب دخول مدلول: (الوجه) في مادة (ق س م)، كونه أحسن ما في الإنسان معللين ذلك بقولهم: كأنما آتى كلّ موضع نصيبه من الحسن، وأخذ قسما من الجمال؛ فلم يتفاوت، أو لأنه يقسم بحسنه الطّرف؛ فلا يثبت في موضع دون موضع.

ومثله: مدلول: (السحر)؛ لأنه يقسم بين الليل والنهار. **ومدلول**: (القسام): وقت ذروة الشمس؛ لأنها حينئذ أحسن ما تكون، وأتم ما تكون مرآة.

كما تبين أن تلك المادة التأليفية (ق س م) تنتظم في طيات استعمالاتها كلا من: الحالف، وفعل الحلف، واسمه، والموضع الذي حلف فيه.. إلخ.

هذا، وبعد معايشتي لتلك المادة: دلالة، واستعمالا، أصالة، وتطورا؛ تقرر: أنه لا أنسب منها في الدلالة على القسم كأسلوب له نمطه المعين، ونسقه المحدد، وأركانه المقررة، وفوائده المنشودة، ورسائله المعقودة.

ولبيان ذلك؛ يجب أن ننظر في طبيعته الأسلوبية؛ فنراه يتكون من **ستة أجزاء**: فاعل القسم، وحدث القسم، وحرفه، والمقسم به، والمقسم عليه، والمقسم له. فمثلا عندما نقول: (**أقسم بالله إن الجنة حق**)؛ فبدهيا أن هذا القسم موجه لشخص ما أو جماعة (**وهذا هو المقسم له**)، وقد ارتسم حدث القسم وهو (**أصل لفظه**)، ثم فاعل القسم، وهو الضمير المستتر وجوبا في الفعل، وتقديره: (**أنا**)، ثم أداة القسم، وهي حرف (**الباء**)، ثم المقسم به، وهو اسم الجلالة (**الله سبحانه**) ثم المقسم عليه، وهو جواب القسم (**إن الجنة حق**).

وبنظرة عابرة، ولمحة سطحية عارضة؛ نجد أن ثُمَّة أمورا لا بد من إلقاء الضوء عليها إجمالا، وهي كما يلي:

الأمر الأول: أن القسم أسلوب قائم بطبيعته التركيبية على التفريق، وتعدد الأجزاء؛ فناسبه اسم القسم، الذي تدور مادته في أصل وضعها حول معنى: التجزئة، والتفريق، لاسيما وقد استوعبت مادة المفردة الدلالة على كل أركان القسم كأسلوب متعارف عليه، **فشملت كلا من**: القسم كحدث، واسمه، وفاعله، والموضع الذي يكون فيه؛ فيقال: "**والمُقْسَمُ**: القَسَمُ. **والمُقْسَمُ**: المَوْضِع الَّذِي حَلَفَ فِيهِ. **والمُقْسِم**: الرَّجُلُ الْحَالِفُ" [1].

الأمر الثاني: أن وجود معنى التفريق والتجزئة، لا يتعارض ولا يند عن تحقق معنى الارتباط والاتصال، أي: أن التقسيم حاصل في الألفاظ التركيبية للأسلوب؛ لكون كل جزء منه قائما برسالة معينة، ومؤديا وظيفة محددة، مع تقرر كامل الارتباط المعنوي بين أجزاء الشيء المقسَّم؛ لكونها جميعا تتعاضد لتعالج أمرا واحدا، وتتظاهر فيما بينها على إيضاحه، وتستهدف تحقيقه؛ كما هو حال الوجه، وحسنه، فهو مقسم لكنه غير مقطع الأجزاء، ولا منفصل الأركان، بل التواصل والارتباط محقق رغم تقسيمه، مع تحقق معنى الجمال في كل قسم فيه. **هذا بالنسبة للاستعمال المادي**.

---

[1] لسان العرب (ق س م): 481/12.

أما بالنسبة للاستعمال المعنوي، فيظهر هذا في معنى: المرء ينعت بالانقسام؛ كأن خواطر الهموم تقسمته، وصار مشتركَ اللب، متوزعَ الخاطر؛ ومن ثَمَّ فالانقسام حاصل إلا أنه بداخل الشيء الواحد؛ فمعنى التفريق الظاهر فيه لا يتعارض مع الارتباط المعنوي المحقق، والاتصال السياقي الوظيفي المقرر.

وفي هذه المناسبة قال العلامة ابن جني تحت باب: (إمساس الألفاظ أشباه المعاني) ملوحا: " أفلا ترى إلى تشبيههم الحروف بالأفعال، وتنزيلهم إياها على احتذائها، ومن ذلك: القسم، والقصم؛ فجعلوا (الصاد) لقوتها للمعنى الأقوى، و(السين) لضعفها للمعنى الأضعف؛ فالقصم أقوى فعلًا من القسم؛ لأن القصم يكون معه الدق، وقد يقسم بين الشيئين؛ فلا ينكأ أحدهما، فلذلك؛ خصت بالأقوى (الصاد)، وبالأضعف (السين) " [1].

قلت: فَنَوِّهَ الإمام بأن ثَمَّةَ انفصالا إلا أنه ضعيف ليس معه دق، ولا يلزم عنه انقطاع وإبانة، وبإضفاء هذا المعنى على أسلوب القسم؛ يتقرر بما لا غاية وراءه: أن أركان هذا الأسلوب البديع قد أنيط بكل منها رسالة سماوية، ومهمة سياقية، إلا أنها تتعاون فيما بينها على هدف أسمى، وغاية مشتركة، تحت لواء محدد، وراية متحدة، فما يظهر من تفرقها إنما هو عين اجتماعها، ونجاح غايتها، والظفر بمطلوبها.

فتقرر أن أركان أسلوب القسم تتظاهر على إفادة ما يرمي إليه بطبيعته، وإنما يتم ذلك بمجملها ومجموع أجزائها، وبهذا وفقط تتمكن من تحقيق أهداف أسلوبها، وتسهم في الإدلاء بوظيفته على الوجه اللائق، والنمط الفائق.

وفي هذا الشأن قال أبو البقاء ملمحا: " (القسم)، بالكسر: اسم من القسم بالفتح لغة: التجزئة. وعرفا: ضم مختص بمشترك. ويقال: هذا ينقسم قسمين: بالفتح؛ إذا أريد المصدر، وبالكسر؛ إذا أريد النصيب أو الجزء من الشيء المقسوم. والقسم: شطر الشيء، وقسم الشيء: ما يكون مندرجا تحته، وأخص منه، كالاسم أخص من الكلمة، ومندرج تحتها. وقسيم الشيء: ما يكون مقابلا للشيء، ومندرجا تحت شيء آخر كالاسم- أيضا-؛ فإنه مقابل للفعل، ومندرج تحت شيء آخر، وهو الكلمة التي أعم منهما " [2].

قلت: وفي ذلك إشارة تنبيهية، ولمحة تذكيرية، من شأنها أن تلقي الضوء على السبيل المرسوم لدراسة أسلوب القسم، وتمهد لاكتشاف خصائصه، والوقوف على وظيفته الفردية والجماعية، وترجمة رسالته الجزئية والكلية على السواء.

الأمر الثالث: أن قضية التفريق والتوزيع مرتبطة- وضعا، واستعمالا، وذهنا- بالخلافات والانقسامات، ومحاطة بالشكوك والشبهات، كما هو حال تقسيم الأرض والدور وسائر الأموال. وهذا يوحي بأن القسم كأسلوب كلامي، شأنه شأن القسمة المادية التي انطوت عليها مادته التأليفية؛ فيتصور في ضوء فض النزاع، وإثبات الحقوق، ودفع الشكوك، وإحباط الشبهات؛ ومن ثَمَّ فلا عجب أن كان من معاني المادة (ق س م) التي انتظمتها، وانطوت عليها: الشك، والرأي، والنظر في الأمر، والتفكر فيه، وتدبره، والتروي بين أمرين.. إلخ.

وفي هذا الصدد قال الإمام ابن عاشور عند قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ، كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: 55] **منوها بمساق القسم:** " والظاهر أن هذا القسم يتخاطبون به فيما بينهم، أو هو حديث آخر أعلنوا به؛ حين اشتد الخلاف بينهم؛ لأن المصير إلى الحلف، يؤذن بمشادة، ولجاج في الخلاف " [3]. "**وعن بعض الأعراب:** أنه لما سمع قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: 23]؛ صاح، وقال: مَنِ الذي أغضب الجليل؛ حتى ألجأه إلى اليمين؟ قالها ثلاثا ثم مات " [4].

---

[1] الخصائص، لابن جني: 162/2 وما بعدها بتصرف.

[2] الكليات، لأبي البقاء الحنفي: صـ 724 وما بعدها بتصرف.

[3] التحرير والتنوير: 129/21 بتصرف يسير.

[4] البرهان في علوم القرآن: 41/3 بتصرف يسير.

كما أن أسلوب القسم يُعْنَى بتأكيد المقسم عليه، وتنصب جُلُّ غايته نحو توثيقه وتقريره في ضوء المقسم به، ومن البدهي أن تأكيد المقسم عليه إنما يفهم؛ لأن هناك مَنْ يشك فيه.

وفي هذه المناسبة قال الشيخ الشعراوي: " أنت لا تُقسم لإنسان تلقاه، وتقول له: والله لقد كنت عند فلان بالأمس. إذن: فالقسم يأتي؛ لشك طرأ عند السامع، وأنت لا تقسم ابتداء. ويأتي القسم على مقدار مراتب الشك، وتأكيدا بأدواته. **والقسم تأكيد** " [1]. **وقال الشيخ أبو زهرة:** " اليمين تطلق بمعنى الحلف والقسَم، وأصل ذلك: أن العرب كانوا إذا **وثقوا** عهودهم بالقسم يقسمونه، وضع كل واحد من المتعاهدين يمينه في يمين صاحبه، وأطلق على القسم كلمة اليمين" [2]. " والقسم من اللَّه تعالى تأكيد لوقوع الأمر " [3].

وقال الإمام الألوسي: " قوله تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 79]: تقبيح لسوء فعلهم، وتعجيب منه، **والقسم**؛ لتأكيد التعجيب، أو للفعل المتعجب منه " [4]. **وقال في غير موضع:** "والقسم لتأكيد المقسم عليه، والمقسم به؛ اهتماما " [5].

قلت: فأفادنا مما سلف: أن القسم إنما يكون عند اشتداد الخلافات، وعظم الخطوب والأزمات، والغضب في المجريات، كما يكون بإزاء شك طرأ، وتوثيق عهد لزم، وتأكيد أمر وقع، وتقرر أن القسم إنما يتجه في ذلك إلى المقسم عليه، وهو جوابه؛ فيُعْنَى بتأكيده، ويضفي عليه بملامح توثيقه،؛ مما يدل على الاهتمام بذلك الأمر المعالج من قبل هذا الأسلوب، مع الإشارة التنبيهية إلى الاهتمام بالمقسم به، والإشادة بمكانته، وسمو غايته.

قال الإمام ابن عاشور: " أقسم الله تعالى بـ (العصر) قسما يراد به تأكيد الخبر ،كما هو شأن أقسام القرآن " [6]. **قلت:** قد نَوَّه الإمام بأن المراد أصالة، هو قضية المقسم عليه، وإنما جاء القسم؛ ليقررها، وآثر المقسم به المناسب؛ ليكون بينة محسوسة لها، وبرهانا على صدقها.

الأمر الرابع: أن معنى التقسيم يستحضر في ضوء الحقوق، وتوزيعها، وعليه؛ فمتعلق القسم حق، وموجبه صدق، ولازمه متقرر الوجود، وحاله واقع، وموضوعه ظاهر، لا يرتاب حوله العقلاء، ولا يند عنه إلا مكابر معاند مغرور.

وهذا ما ألمح إليه الإمام أبو زهرة قائلا عند قوله: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ..﴾ [النمل: 49]: " معنى: ﴿تَقَاسَمُوا﴾: أن كل واحد منهم تبادل القسم مع الباقين، **والقسم باللَّه، ولا غرابة في ذلك؛ فقد كانوا يعرفون الله،** وأنه خالق كل شيء، ولا خالق غيره، ولكنهم يعبدون الأوثان؛ لتكون زلفى إليه سبحانه عما يقولون علوا كبيرا " [7].

الأمر الخامس: أن معنى القسمة قائم على تحقيق المصالح، وإيصال الحقوق، ومنوط بالحظوظ المقسومة بين العباد، والنصيب من الخير، ومتعلق بالعطاء، وهذا المعنى ينتقل ذهنا إلى أسلوب القسم؛ فهو يتعلق بالحقوق المعنوية، ويعمل على إيصال المعاني العقلية بدقة وإحكام، وينشد من ورائه تحقيق المصلحة للأنام، وهذا شأن كل قسم في القرآن؛ مما يلفت النظر إلى ضرورة العمل بمواجبه، والإذعان لمقتضاه. **وفي هذا الشأن قيل:** " القسم بالشيء لا يخرج عن وجهين: إما لفضيلة، أو لمنفعة " [8].

---

[1] الخواطر= تفسير الشعراوي: 6331/10 وما بعدها بتصرف.

[2] زهرة التفاسير: 742/2.

[3] زهرة التفاسير: 4333/8.

[4] روح المعاني: 377/3 بتصرف.

[5] روح المعاني: 385/11.

[6] التحرير والتنوير: 528/30.

[7] زهرة التفاسير: 5462/10 وما بعدها بتصرف يسير.

[8] البرهان في علوم القرآن: 42/3 بتصرف يسير.

الأمر السادس: أن المعاني التي انتظمتها مادة (ق س م)، واستعمالاتها، ومتعلقاتها.. أمور تؤكد أنها مما ارتضتها العرب، وأذعنت لها، وعملت بمواجبها، وصارت أمرا قاضيا عندهم، ومعمولا به لديهم، بما لا مسوغ لتركه، ولا سبيل لمعاداته، ولا مجال لطرحه. ومما يشهد لذلك مدلولا: (حصاة القسم)، و(يمين القسامة).. إلخ. فبالأول يحفظون حياتهم في الفلوات، وبالثاني يقتلون في الخطوب والمجريات.

قلت: وهذا يفهم في ضوئه معنى إقامة الحجة عليهم؛ كفائدة مرجوة من فوائد القسم، وهدف منشود من إيثار وروده.

ومن ثَمَّ ذكر الإمام الزركشي متسائلا، ومجيبا: " إن قيل: ما معنى القسم منه سبحانه؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن؛ فالمؤمن يصدق مجرد الإخبار، وإن كان لأجل الكافر؛ فلا يفيده. **فالجواب**: أن الله ذكر القسم؛ لكمال الحجة، وتأكيدها، وذلك؛ أن الحكم يفصل باثنين: إما بالشهادة، وإما بالقسم، فذكر تعالى النوعين؛ حتى لا يبقى لهم حجة " [1].

قلت: لاسيما إذا ما كان نمطا متعارفا عليه عندهم، ومظنةَ قبول لديهم، ومحلَ إذعان من قبلهم، على أن القسم يستلزم الشهادة، لذا؛ كان من مطاوي مادته: (القسامة، أي: الجماعة يقسمون على الشيء ويشهدون)؛ ومن ثَمَّ فيبلغ ارتسام الرضا بموجبه مبلغه، وتتحقق إقامة الحجة بإيثاره على آكد وجه وأبلغه!.

الأمر السابع: أن التعبير بمادة (ق س م) يُنَوِّهُ بكل ما انطوت عليه من دلالات، وأسندت إليه من معان، ويشير إلى دعائم التعامل معه، **وبيان ذلك**: أن تلك المادة قد انطوت على معان تفهم في ضوء القسمة المادية، من إمعان النظر، والتقدير، والتروي، والتفكر، والتدبر، وجودة الرأي، والميزان، والخياطة؛ مما يوحي بأن أسلوب القسم كأحد المعاني التي ارتدت تلك المادة، وصارت له كساء، قد روعي فيه البيان المحكم، والسبك المحبك، والنظم البديع، والتركيب المفرَّد، وذلك اعتمادا على التقابل الدلالي، أو الإيحاء التقابلي. **هذا بالنسبة إلى إفادة التنويه به.**

أما الإشارة إلى دعائم التعامل معه: فقد أومأ إليها بمطاويه، مقررا أنه ينبغي أن يعامل بموجب ما بني عليه من الإحكام المحقق، والإتقان المقرر، والذي يقتضي أن يستفرغ في تدبره الوسع، وتبذل في دراسته الجهود، وتنفق له الأوقات، فهو جدير بالتأمل، خليق بالتروي، حقيق بإمعان النظر فيه، والعكوف على دراسته، وشدة التقدير له، وبليغ التفكر بشأنه؛ ومن ثَمَّ فيجب أن يقابل بمقتضى ما انطوى عليه من دلالات، وما استصحب في طياته من معان وافرات، وإشارات منبعثات، كلها يُنَوِّهُ بمكانته، ويؤذن ببلاغته، ويشيد ببعد مقامه، وسمو منزله.

كما أشعرت تلك التسمية بلطيفة، مؤداها: أنه لا مجال لفهم هذا الأسلوب البديع، والرصف البياني المعجز، إلا بالوقوف على رسالته المنوطة بكل أجزائه. وكأن المعنى المعالج من قبل أسلوب القسم موزع على أركان تركيبه، ومقسم بين عناصر نظمه، مع تحقق قوة الارتباط فيما بينهم جميعا، وعدم تصور افتراقهم، واستقلال أحدهم بمعنى دون الآخر. وهي تجتمع سويا؛ لتتظاهر على تقديم رسالة هذا الأسلوب البديع.

قلت: **إلى هنا نرجع** إلى حقيقة تسمية أسلوب القسم، والتي لا يَتَأَتَّى فهمها إلا في ضوء الإفادة من مدلولات مادته اللغوية، واستحضار استعمالات جذره العربية.

التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالات اللغوية، وتفعيل الاستعمالات العربية:

هذا، ويمكن ترجمة مراد تلك المفردة، وفهم وظيفتها، وسبب تسمية أسلوب القسم بمادتها التأليفية؛ من خلال دلالاتها اللغوية، واستعمالاتها العربية؛ إذ إن بعض مدلولاتها يكشف عن حقيقة هذا الأسلوب البديع، ويوحي بخصائصه، ويرتسم ضروبه، ويصرح بتعدد أركانه، ويبرز ملامحه الأسلوبية، وينبئ عن بواعث وروده، ويشعر بتمكن لبناته، ويقرر بلاغته، ويُنَوِّهُ بمكانته، ويشيد بمتعلقاته، ويرغب في العمل بمواجبه، والإذعان لمقتضاه، ويعرب عن وظائفه السياقية، ويشعر بدواعيه المقامية، ويؤذن بكونه من مقتضيات حاله، ويسلح بإمكانية دراسته، ويشير إلى سبيل اكتشاف أسراره.. إلخ. **وهذا إجمال لفا تفصيله نشرا كما يلي:**

---

[1] البرهان في علوم القرآن: 41/3 بتصرف.

أولا: الكشف عن حقيقة أسلوب القسم، والإيغال في بيان كنهه:

أسهمت مدلولات مادة (ق س م) في الكشف عن حقيقة مسماها، والإفصاح عن كنهه، وقد تقرر ذلك في ضوء مدلولات: اليمين، الحلف على حق وأخذه، التجزئة، التفريق، ممثلة في حالة تعتري الإنسان بسبب الهموم؛ كأن الخواطر تقسمته، انقسام القلب من الهم، توزع الخواطر، اشتراك اللب والخواطر بالهموم... إلخ.

وبتسليط تلك المدلولات، وإسقاطها على أسلوب القسم؛ نعلم يقنيا حقيقته، فهو عبارة عن يمين صدق، وحلف على حق، كما يتأكد ارتسام شكله، وتحديد طبيعته، ببيان أن عماده التجزئة الظاهرة، ومبنى أركانه التفريق شكلا، إلا أنها متحدة فيما بينها تحقيقا لمقصودها. **وفي هذه المناسبة قال الإمام الألوسي:** "والقسم: الحلف، وأصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على متهمين بقتل " [1].

وشأنه في ذلك، أي: بتوزيع المعنى عليه، وشيوعه في مطاوي أركانه، كشأن الهموم حال توزعها على الإنسان، واقتسامها خواطره، واشتراك لبه، وكما لا يسع جزء من أجزاء الإنسان عدم الاعتبار بما أصابه من هموم، فلا يسع جزء من أجزاء أسلوب القسم التخلي عن أداء دوره في النظم، أو الند عن وظيفته السياقية، والإدلاء برسالته الإلهية.

وبما أن مادته قد دلت على التجزئة والتفريق؛ فقد أسهمت- أيضا- في بيان هذا المفرق، وتحديده؛ ومن ثَمَّ فقد استوعبت جميع أركانه؛ فنظمت في مطاويها كلا من: الحالف، وفعل الحلف، واسمه، والموضع الذي حلف فيه، وكيفيته، ومستتبعات ذلك.. إلخ.

هذا، ولا يتوقف معنى التجزئة عند الإنباء عن طبيعة أسلوب القسم وارتسام شكله فحسب، بل يمتد إلى بيان أسبابه الداعية إليه، وآثاره المستتبعة له؛ إذ لا يكون أسلوب القسم إلا عندما ينقسم الناس إلى فريقين متخالفين.

وفي هذه المناسبة قال الإمام الرازي معللا بذكر ملابساته: " ولما كانت الحاجة إلى ذكر الحلف إنما تحصل عند انقسام الناس عند سماع ذلك الخبر إلى مصدق به ومكذب به؛ سموا الحلف بالقسم " [2]. **وتبعه فضيلة الإمام الأكبر: محمد سيد طنطاوي** [3].

كما امتد معنى التجزئة إلى بيان أثره المستتبع في النفوس البشرية؛ إذ إنها إزاءه منقسمة، مفرقة، مع الإيحاء الخفي بأن تفرقها ليس إلا شكلا وظاهرا، أما في حقيقة الحال فهي مجتمعة عليه، غاية الأمر أن هناك المتكبرين والمعاندين والمغرورين إلى يوم الدين.

ومن لطيف المناسبة: أن معنى الاشتراك والتجزئة لما كان في أصل المادة؛ فهو كذلك أصل في وقوع حدثها الذي تدل عليه، وترتسم حقيقته؛ إذ إن القسم يكون بآليات متعددة من الحالف؛ وكأنه فعل اشتركت فيه أجزاء متعددة من الجسم، ألا وهي: العقل المسئول عن أصل كل شيء صادر عن الإنسان، والقلب الذي وافق على هذ الفعل ولو ظاهريا، واللسان الفاعل للقسم، وفعل اليد المنبئة عن التحالف والمتلبسة به، كما أنه يكون بين طرفين: فاعل، ومفعول له. والمفعول نوعان: مصدق، ومكذب، ويكون بشيء على شيء، وكل ذلك يقرر معنى التقسيم الشائع في هذا الأسلوب؛ فلا أنسب من تلك التسمية كشفا عن حقيقته، وبيانا لطبيعته.

ومن بديع الاتساق: أن القسم قد انطوى على مدلول: (شطر الشيء)؛ فكان له شديد الوقع، وبليغ الأثر؛ إذ يوحي بأمرٍ سامق الشأن، جليل الغاية، وكأن المعاني المنظومة في عقد ذلك الأسلوب البديع قد قسمها الله تعالى على أركانه، وليس هذا فحسب بل إن الحقائق الكامنة في مطاويه هي نفسها بين الله تعالى (باعتباره فاعل القسم)، وبين خلقه (باعتبارهم المقسوم لهم)؛ مما يكشف عن وقعه وجميل فعله سبحانه، وكأنه يشاطرهم أمرا. **ومثله مدلول:** (القسيم: الذي يقاسمك أرضا أو مالا..) يوحي بأن الخالق سبحانه يشرّك عباده في الوقوف على بعض المعاني التي أودعها كلمات قرآنه، وجعلها في مطاوي بيانه؛ فما

---

[1] تفسير الألوسي: 390/9.

[2] التفسير الكبير: 111/13 وما بعدها بتصرف يسير.

[3] التفسير الوسيط لـ أ.د/ محمد سيد طنطاوي، فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف: 149/8.

أجلَّه من أسلوب يربط بين الخالق وعبده، ويشرِّكه في حقائق كلامه، ويقفه على أسرار بيانه المنثورة في بدائع خلقه، والمنوطة بأسرار ملكه المثبتة في نظم كتابه، والمودعة في مطاوي كَلِمِهِ، ومكنونات مدلولاته!.

هذا، ومما يكشف عن حقيقته، ويعد تتميما لبيان طبيعته: مدلول: (الوجه، وصبيحه، وما أقبل عليك منه)؛ إذ إن له ظلا وإشعاعا ينعكس على مسمى مادته (أعني: القسم)؛ فيلوح بعظيم خطبه، وجليل شأنه؛ لكون الوجه أعلى ما في الإنسان، كما أنه لا يقال: قسيم الوجه إلا لِمَنِ اتسم بصبيحه، وجماله، وشدة حسنه، وظهر في تعليل أهل اللغة أن مبعث ذلك الاستعمال؛ لكون كلّ موضع فيه قد آتى نصيبه من الحسن، وأخذ قسما من الجمال؛ فلم يتفاوت، ولأنه يقسم بحسنه الطّرف؛ فلا يثبت في موضع دون موضع؛ مما يقرر في ضوئه: أن القسم من أعالي أساليب الكلام كالوجه في علوه بالنسبة للإنسان، كما يرجع ذلك إلى معنى حسنه وظهوره الشائع في كل أركانه.

أما معنى حسنه: فلأن كل ركن في نظمه قد أخذ حظه من البلاغة، وموقعه من الإعجاز، فكل أجزائه قد حيكت بإبداع بليغ، ونظمت بإتقان بديع، بينها رباط قوي، وصلة وثقى. وكما أن الوجه يقسم بحسنه الطّرف؛ فلا يثبت في موضع دون موضع، فكذلك حال أسلوب القسم، يأخذ بجمال أركانه، وبلاغة نظم أجزائه العقول على اختلافها، والألباب على تفاوت مداركها.

وأما معنى ظهوره: فلكونه- بمجموع أجزائه- عبارة عن دعوة قد قامت عليها البينة، وبيان ذلك: أن من أجزاء القسم: (المقسم به)، وهو يحمل البينة على صحة (المقسم عليه)، بمعنى: أنه يحمل نفس معنى المقسم عليه بصورة مادية محسوسة، تنعكس على المقسم عليه؛ لإيضاح ما به من الصورة المعنوية المفهومة [1].

وفي تقرير هذا المعنى قالت د/ عائشة عبد الرحمن: " واختيار المقسم به تراعى فيه الصفة التي تناسب الموقف. وحين نتتبع أقسام القرآن؛ نجدها تأتي لافتة إلى صورة مادية مدركة، وواقع مشهود؛ توطئة بيانية لصورة أخرى معنوية مماثلة، غير مشهودة ولا مدركة، يماري فيها مَنْ يماري " [2].

قلت: وهذا بدوره يقرر شدة الصلة بين أجزاء القسم، ويُنَوِّهُ ببديع التناغم، وبليغ الاتساق بين أركانه، ويؤكد أنها ذات هدف مشترك، وتتجه نحو غاية مرسومة، وتتظاهر لبلوغ حقيقة منشودة، ضمن رسالة إلهية مبعوثة.

ثانيا: إعلان خصائص القسم، وإبراز ملامحه الأسلوبية:

كما ظهر عند أرباب المعاجم أن مبدأ استعمال مادة (ق س م) قد أنيط بما هو موجود، وحسن، وظاهر، ومعلوم، ومتعارف عليه، ومرضي به؛ إذ قد اشتهرت تلك المادة في بيان نمط تطبيقي متعارف عليه، ومرضي به في التقسيم.

ومن ثَمَّ فأومأت تلك المادة إلى أجلى خصائص القسم، وأبرز ملامحه. **أما خصائصه:** فقد تجلت لاسيما في ضوء مدلولات: وقت ذروة الشمس، السَّحَر، الميزان، ما يكون بين الشيئين، التجزئة، النصيب، الحظ من الخير.. وغيرها؛ مما يوحي بظهور هذا الفعل كالشمس، وتحقق أثره كالسَّحَر، وتقرر حاجته كالميزان، وتؤكد بلوغ نفعه الغاية كتقسيم الحقوق، وإيصال الحظوظ، والتفريق بين الأمور المتخالفة، وإيضاحها.

كما تجلت تلك الخصائص في ظلال مدلولات: اسم لفرس عربي، مواضع، وأرض معروفة، شدة الحر، أول وقت الهاجرة؛ فهي مرآة تدل بانعكاسها على أنه أسلوب ظاهر الدلالة، محقق الوقع، متيقن الأثر؛ ومن ثَمَّ فالقسم بالشيء دليل على الاعتراف به، وإقراره: وجودا، ونفعا. **وفي هذه المناسبة قال الإمام ابن عاشور:** " القسم بالله تعالى يدل على أنهم كانوا يعترفون بالله تعالى، ولكنهم يشركون به الآلهة " [3].

---

[1] على نحو قد قررته عند تحقيق العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه في ضوء سورة (الليل)، و(الضحى)، و(النجم)، وغيرها، وذلك ضمن مُؤَلَّفٍ قيد الطباعة والنشر.

[2] التفسير البياني للقرآن الكريم، لـ د/ عائشة عبد الرحمن: 25/1 بتصرف يسير.

[3] التحرير والتنوير: 283/19 بتصرف يسير.

وأما ملامحه: فقد تقرر أن القسم فعل عربي، لاسيما وقد ارتبطت مادته بما هو متعارف عند العرب (فهو فعل عربي، ونمط عربي، وصنيع عربي، واسم موضع عربي، ونعت لفرس عربي، ونسبة إلى عربي..)، وتضمنت الإشارة إلى سائر أركانه، كما تجلى أنه لا بد أن يكون متعلقا بموجود، ومنتظما بالفوائد، ومما ترغبه النفوس. وقد ارتبط ذهنا بما هو محل قبول، وإذعان، من: أفعال، وأقوال. واتجه نحو المعاني الحسية، والأغراض المادية؛ انتقالا إلى القضايا العقلية، والصور المعنوية. ويطلق على أفضل الأشياء، ويتعلق بأحسنها، ويناط بأعلاها، ويشير إلى أشرفها. كما أنه يستعمل في أظهر الأشياء، وأجلاها. ويعد نمطا من العطاء، ونوعا من الامتنان. وقد تعينت الحاجة إليه، وتحققت ضرورة الصيرورة إليه. وأنه يقتضي التجزئة لأمر متحقق فيه معنى الشركة.. إلخ.

وهذه الخصائص تنعكس على أسلوب القسم القرآني مؤكدة أنه قد جاء على نحو ما تعارفته العرب، وثبتت حجته لديهم، وهو من أعلى وأبلغ أساليب الكلام عندهم، كما أنه في غاية الظهور، والتجلي، وأنه يعالج القضايا المتسمة لا محالة بالثبوت والتحقق، ومع ذلك فهو يُعْنَى بإقامة الأدلة عليها رغم غنائها عنها، وظهورها بنفسها، ويخاطب الفطر بأهميتها، وجليل شأنها، وبالغ الحاجة إليها.. إلخ كما سيتقرر في الجانب التطبيقي- إن شاء الله تعالى-.

ومما هو جدير بالذكر: أن أظهر ذه الخصائص وتي الملامح: أن أسلوب القسم وإن كان قائما على التفريق، إلا أن أجزاءه ذات ارتباط قوي، فبينها جميعا بديع التناغم، وشديد التناسب، وقد تبين ذلك في ضوء مدلولات: التحالف والاجتماع على أمر من الأمور، وصف لمنْ يقاسم آخر أرضا ومالا بينهما، توزيع الأرضين بين الناس، نعت لمن يفرق الأرضين والدور بين الناس المشتركين فيها، تفريق الأموال من إرث وغنيمة وما في معنيهما على أربابها، إفراز النصيب، طي الثياب طيا إثر آخر.. إلخ؛ إذ أسهمت تلك المدلولات في الإيحاء بشدة الاتصال بين أركان هذا الأسلوب البديع، وكأن كل ركن يسلم للآخر ويقود إليه، والآخر بدوره مبني عليه، مكمل وظيفته، مترجم رسالته، محقق غايته.

هذا، ويعرب بشكل خاص عن شدة الاتصال، ويوحي بعظيم الالتئام **مدلول:** (القسام: الذي يقسم الأرضين بين الناس)؛ إذ يلوح بأن المعنى المنشود تحققه مقسم بين أركان أسلوبه، وموزع في ثنايا أجزائه، مع الأخذ في الاعتبار أن ما اعتراه القسمة وهي الأرض مرتبطة حقيقة، إلا أنها موزعة ومفرقة اعتبارا؛ إذ لا يتصور- بحال- تحركها، ويستحيل في العقول انتقالها؛ مما يقرر شدة الاتصال بين المجزأ مع تحقق اختلاف أجزائه باختلاف المالكين، وهذا يصور أن لكل جزء من القسم رسالة جزئية إلا أنها متصلة بسائر أركان القسم، وموزعة عليها، كحال قطعة الأرض الواحدة، مقسمة معنويا ومتصلة ماديا.

ومدلول: (رجل منقسم القلب: اقتسمه الهم)؛ إذ إن فيه إشارةً إلى أن الوظيفة أيا كانت موزعة، والمهمة منوطة بالجميع ومفرقة، وفيه بعد معنوي؛ إذ لَوَّحَ من وراء ظلاله إلى حتمية تفرق المعاني على سائر أركان القسم مشعرا بعدم إمكانية استقلال أيٍّ منها بالمعنى المنشود، بل هو شائع فيها، وإنما يتصور ذلك في ضوء حال الإنسان وقد أصابه الهم وما في معناه؛ فلا يستطيع أن يحصره في أحد أجزائه، ولا طاقة له في أن يستقل به عضو من أعضائه.

ومن ذلك- أيضا-: إحداث أثره الذي بدوره يتوفر فيه معنى التجزئة، لاسيما **مدلولات:** (نوى قسوم): مفرقة مبعدة، مقسمة للشمل، مفرقة له. و: (السَّحَر)؛ لأنه يقسم بين الليل والنهار، و: (ما يكون بين الشيئين)، و: (الميزان). **واستعمال:** (قسمهم الدهر فتقسموا)، أي: فرقهم فتفرقوا؛ إذ إن الناس إزاء أسلوب القسم منقسمو الرأي، مفرقو الشمل، مبعدو الأهواء. وهكذا حال البشر في كل حق يرد، وكل صدق يتقرر؛ فكان هذا الأسلوب كالحد الفاصل بين المتناقضين، والشفير القاسم بين المتخالفين، والآلة الفارقة بين الحق والباطل في العالمين.

ثالثا: الإنباء عن بواعث ورود أسلوب القسم، وأسرار إيثاره:

نظمت مدلولاتها ما ينبئ عن أسباب ورود مسماها، وأسرار إيثاره، مجلية من وراء ذلك لواء الرحمة الإلهية مفصحة عن ضروب امتنانها، وناظمة عناوين اللطف الرباني معلنة أنماط إنعامها، ويتجلى ذلك في ضوء مدلولات: العطاء، الصدقة، النصيب، الحظ من الخير، الحظوظ المقسومة بين العباد.. إلخ.

وبإضفاء هذه المدلولات على أسلوب القسم؛ يتقرر أنه محض عطاء رباني، منبعه رحمة إلهية، واسم للصدقة من إله البرية؛ عناية بالبشرية، المدبر أمرها، الراحم لضعفها، الناظر في شئونها، الهادي لها، المقوم لاعوجاج كثير من أفرادها، كما يتأكد أنه رزق مقسوم بين العباد، وحظ من الخير أنيط بهم، ونصيب وافر مبعوث إليهم؛ فحري بهم الإذعان له، والانقياد لمقتضاه.

رابعا: الإفصاح عن بلاغة أسلوب القسم في سياقه، والإشعار بتمكن فرائد نظمه:

أسهمت بعض مدلولات المادة في الإفصاح عن بلاغة أسلوب القسم، وفصاحة أجزائه، مقدمة أروع الحيثيات في هذا الصدد، وقد تجلى ذلك في ضوء معان حسية معبرة، وظلال مادية موحية؛ إذ حملت في طيات مكنوناتها مدلولات: الجمال، الحسن التام ماديا ومعنويا، الجودة، الوجه وصبيحه وما أقبل عليك منه وأعاليه، ما بين العينين، الأنف وناحيتاه ووسطه، أعلى الوجنة، مجاري الدموع والوجوه، شدة الحر، أول وقت الهاجرة، وقت ذرور الشمس؛ لأنها تكون حينئذ أحسن ما تكون، وأتم ما تكون مرآة، تقدير الأمر والنظر فيه وتدبره، وجودة الرأي.

وقد أسهمت هذه المدلولات في إثبات بلاغته من حيثيات خمس. **الأولى**: بيان أنه أسلوب متسم بالحسن التام، والجمال الأخاذ. **الثانية**: إبراز أنه قد بلغ في ظهوره الغاية، ووصل في تجليه ذروة النهاية. ويصور هذا بشكل خاص **مدلول**: (القسام: شدة الحر)؛ إذ ينبع بمعنى الحسن الذي يستمد من آثار الوضوح والظهور والتجلي والتلألأ.

وقد أسهمت هاتان الحيثيتان في تحقيق الحسن والظهور التام على السواء؛ تحقيقا لمكانة الأسلوب شكلا وموضوعا، وكشفا عن بلاغته؛ فهو يأخذ بالألباب على تنوعها، ويخاطب المدارك على اختلافها، ويقنع العقول مع تفاوت استعداداتها.

هذا، ومعنى الوضوح في أسلوب القسم أمر بدهي؛ لأنه يستدل من خلاله بأمر محس على أمر معقول، ويربط بينهما في ارتقاء بلاغي محكم، ونظم إعجازي محقق.

الثالثة: تقرير علو مقامه، ورفيع شأنه، وارتسام كونه بالنسبة لسائر الكلام كالوجه وأجزائه بالنسبة لسائر تكوين الإنسان.

الرابعة: التأكيد على أن إسناد تلك الحيثيات ليس لجزء من أجزائه دون الآخر، بل إن كل الأجزاء على تفرقها الشكلي مقرر لها تلك الخصائص؛ كحال وجه الإنسان، وما في عقد تركيبه، وسائر أحواله؛ إذ اتضح أنه وسم بمادة (ق س م)؛ لحسن تام فيه؛ كأنما آتى كلّ موضع نصيبه من الحسن؛ فلم يتفاوت، كما أنه أعلاه وأظهره، وما يقبل عليك منه؛ فكان للعلو والظهور والإقبال في مدلولاتها بديع الأثر في إعلان بلاغته، وتقرير علو بيانه، جملة وتفصيلا في سائر أركانه.

الخامسة: الإعراب عن خصائصه الأسلوبية، لاسيما في ظلال مدلولات: القَدَر، والتدبير، وجودة الرأي، والميزان، والتقدير، والخياطة؛ إذ تبين في ضوئها أنه أسلوب قائم على الإحكام، ودقة البيان، وأن أجزاءه قد نظمت نظما حكيما، واجتمعت فيما بينها، وتحالفت للقيام بما هو منوط بها من أغراض متنوعة، ضمن سياقاتها المتعددة، مع مراعاة أنها قد اختيرت بعناية فائقة، وقدرت بمقتضى تدبير محكم، وفق ميزان حساس ودقيق، وسبكت سبكا حبيكا، وحيكت تفصيلا مبدعا؛ ومن ثَمَّ فقد أوحى ذلك بمواجب أسلوب القسم من حتمية الإقرار به، والإيذان بحيثيات الإذعان له.

السادسة: الإفصاح عن أكيد تمكنه نظما، واقتضائه مقاما، يسهم في تقريره- فضلا عما سبق- مدلول: (هذه الأرض قسيمة هذه، أي: عزلت منها)؛ إذ يدل على اختيار أسلوب القسم، واقتطاعه من مثيله، وعزله عن أشباهه، وتعين أركانه في كل موضع ذكر فيه لاسيما المقسم به، كأنه اقتطع من غيره، وعزل عنه، وتعين إيثاره. ومثله **مدلول**: (قسمة الغنيمة: تفريقها على أربابها)؛ حيث إن فيه إشعارا بأن لبنات سبكه هي أرباب المعاني المنشود تحققها منه، وفيه دليل على تمكنها في نظمها، وإعجازها في بيانها؛ مما يوحي بتعين المقسم به والمقسم عليه وسائر أركان القسم، وكأنها أرباب المعنى الذي يوزع عليها؛ فلا ثمة مَنْ يقوم به سواها، ولا أبلغ في القيام برسالة سياقها عداها. ومما يؤكد هذا: **مدلولا**: (القَدَر، وتقدير الأمر)؛ إذ إنهما يقرران مدى إحكام أسلوب القسم، وينوهان بسامق سبكه؛ كيف لا، وقد روعي فيه معنى التقدير الإلهي، والتدبير الرباني؟!

خامسا: التنويه به، والترغيب في العمل بمقتضاه، والإذعان لموجبه:

قد أسهمت مدلولات مادة (ق س م) في التنويه بمسماها، وحمل النفوس على الإذعان لمقتضاه؛ إذ صورت بظلالها مدى النفع المعقود في مطاويها، وجليل العطاء في ضوء متعلقها؛ إذ دارت استعمالا بين ما هو خير ونفع وعطاء، وبين ما هو حق وصدق ويقين، وقد تجلى ذلك من خلال مرآة مدلولات كثيرة، يتصدرها: الحظوظ المقسومة بين العباد، تفريق الأموال من إرث وغنيمة وما في معنيهما على أربابها، القدر، حصاة القسم، النصيب، والحظ من الخير، العطاء، الجمال، الحسن التام، وإفراز النصيب.. إلخ. وبتسليط تلك المعاني على أسلوب القسم؛ يتحقق جليل شأنه، ويتقرر سمو مقامه؛ فيبلغ التنويه به مبلغه، ويتعين وجوب العمل بمقتضاه على آكد وجه وأبلغه!.

هذا، ومدلول: (الاستقسام) يقرر أنه فعل جاهلي، كان محل رضا وقبول، وموضع قناعة وإذعان؛ مما يُنَوِّهُ بلزوم صدق أسلوب القسم، ويشعر بحتمية الأخذ به، ويؤذن بضرورة الإذعان لمقتضاه.

سادسا: الإعراب عن وظائفه السياقية:

كما تبين من خلال مادة (ق س م) أن جُلَّ استعمالاتها منوطة بقسمة الحقوق والأموال، وما في معنيهما، وكمن في طياتها مدلول: الحلف على الحقوق وأخذها، وبلا شك أن هذه الأمور محل نظر، ومجال تفكر، ومقام تروٍ؛ ومن ثَمَّ فيتقرر أن القسم كأسلوب كلامي إنما يقع في مواجهة الشك، ومعالجة الريب، ويُعْنَى وظيفةً بإثبات واقع، وتقرير حق، وتقديم نفع، وتأكيد عطاء، وتحقيق خير ذي شأن، مقدما مظاهر تمكن خبره، وأنماط برهان صدقه في صورة حسية لا يَتَأَتَّى إنكارها، وظلال معان مادية لا سبيل للإعراض عنها، مبرزا من ورائه أمورا من شأنها أن يجتمع لها، ويتحالف على تقرير نفعها؛ فلزم أن تتدبر، وينظر فيها، وتتأمل؛ للوصول إلى ما فيها من عبر، مع التنويه بجودة سبكها، وإحكام الرأي المترتب عليها، وحقية موضوعها، وصدق خبرها، معلنا أنه إنما يفصل ويفرق بين حق وباطل، كما أن السَّحَرَ من شأنه الفصل بين الليل والنهار، ويكشف عن طبيعة النفوس إزاءه، ويجليها كالميزان.

هذا، ويتصور معنى النزاع والانشقاق— أيضا— في ظلال كون المعنى المنشود من القسم (وهو ما يقابل الحق المقسوم ماديا) موزعا على أركانه، وهي تقابل الشركاء (الموزع عليهم) في القسمة المادية، وكما تختلف الآراء في شأن القسمة المادية، وتتنوع في سبيلها الأهواء، وتتفاوت في تلقيها العقول مع الإذعان لموجبها انتهاء؛ فكذلك أسلوب القسم، وهذا بدوره يعد دليلا على كثرة المعاني الكامنة في تلك الأركان، وفيض الرسائل المنبعثة منها؛ مما يجعله مثارَ نقاش، وموضعَ خلاف، ومناطَ جدال، ومجال تفكر، ومقام نظر وتروٍ.

كما أن مدلول: (حصاة القسم) يسهم بشكل خاص في الإعراب عن وظيفته؛ إذ يلوح بسر تسمية أسلوب القسم، ويوضح ارتباطه بالمعنى الحسي موحيا بشدة الحاجة إليه في تقرير جليل المعاني، ومواجهة أهم القضايا؛ إشعارا بتمكنه، وإيذانا بتعينه؛ إذ في ظلال هذا المدلول ما يكشف عن كون القسم وما يعالجه أمرا محتما في الشدائد العظام، وشأنا مقررا في الخطوب الجسام، وطوقا للنجاة من المهالك العجاب.

قلت: ولتحقق معنى الظهور، والتجلي، والانكشاف.. وما في معناها؛ يستعمل القسم للتأكيد، ووظفه العلماء والسادة المفسرون في هذا الغرض، وهو عمل له وقعه وظلاله، كما أنه فهم له صداه وإيحاؤه؛ إذ يوحي بأن القضية التي يعالجها القسم من الظهور والبيان بمكان؛ ومن ثَمَّ فالقسم عليها بمثابة التأكيد لها؛ لكونه على أقل تقدير يمثل إعادة ذكرها.

وفي هذا الشأن قال الزركشي: " قد علمت أن القسم إنما جيء به؛ لتوكيد المقسم عليه؛ فتارة يزيدون فيه؛ للمبالغة في التوكيد، وتارة يحذفون منه؛ للاختصار، وللعلم بالمحذوف " [1].

[1] البرهان في علوم القرآن: 44/3.

قلت: وقد آذن ذلك ببعد نفسي له وقعه وصداه؛ حيث قد كشف عن تلألأ مظاهر الرحمة الإلهية، وتوافد عناوين العناية الربانية، كيف لا وقد أنيط القسم بالمصالح، وتحقيق المنافع، والإرشاد إلى الحقوق، مع مراعاة معنى التأكيد عليه، وبالغ الدلالة إليه! فيبلغ إثبات سمو الرحمة الإلهية مبلغه، وتتقرر العناية الربانية والتدابير السماوية على آكد وجه وأبلغه!

كما أنه يُعْنَى بالتهديد، ومنوط به الوعيد؛ إذ إنه بعد تحقق خبره وظهوره قضيته، وبيان أن متعلقه خير، ومنوط بالنفع.. إلخ من سائر الخصائص التي توفرت لمادته- فكان ينبغي أن يقابل بالإذعان، ويظهر أثره في بني الإنسان، أما وإن تحقق خلاف ذلك؛ فلكبر وغرور محل مواجهة من قبل الرحمن.

لذا فلا عجب أن كان من مطاوي الأصل (قسم) مدلول: الهدنة بين العدو والمسلمين؛ إذ إن له بليغ الوقع، وجليل الأثر؛ حيث أوحى بإشارة خفية، مفادها: الإيذان باستتباع العقاب له؛ إذا لم يتلقَ القسم بما يستحق من القبول، والإذعان، والرضى، والطواعية، شأن الأمور التي يعبر عنها بمادته التأليفية. لاسيما وأن تلك الهدنة تلوح من وراء ظلالها أن مدتها إنما هي لأجل النظر في هذا الأسلوب البديع، والعكوف على تأمله؛ ليسري أثره في النفوس، فتنجو من غفلتها، وتجد مبتغاها؛ فتبلغ غايتها.

ومن ثَمَّ قال الإمام ابن عاشور: " والقسم من أساليب إظهار الغضب "[1]. وفيه إيحاء بعلمه تعالى بنفوس عباده، وبانقسامهم إزاء ورود القسم من ذاته الإلهية؛ ومن ثَمَّ فيمكن القول: أن فيه إعجازا غيبيا، ونفسيا.

سابعا: الإشعار بأحوال استدعاء القسم، والإيذان بكونه من مقتضيات المقام:

أسهم الجذر اللغوي (قسم) في بيان مناط القسم، وخطوب استعماله، ومواضع وروده؛ إذ تأكد من التأصيل اللغوي، والاستعمال العربي: أنه يحتاج إليه في صعاب الأمور، ويظهر أثره في ضيق الأحوال، ويتعين في الخطوب الجسام. وقد أعرب عن ذلك بفصاحة وطلاقة بيان مدلولُ المادة الحسي، أعني: (حصاة القسم)، وهو فعل يتقرر الأخذ به، والحاجة إليه في أصعب الأمور، لاسيما عند قلة الماء للشقة في الفلوات، وما كان يفعل آنذاك من كونهم يعمدون إلى قعب، ويلقون به حصاة القسم، ويصبون الماء عليها؛ حتى يغمرها، ويكون هذا الفعل هو الميزان الذي يقتسمون به الماء، ويحفظون به حياتهم من المهالك، وينأون به عن الإشراف على الموت، وقد تجلى أن هذا العمل محل قبول، ومدار إذعان عند الجميع؛ فكان يجب أن يدور هذا المعنى مع مادته مهما اختلف اشتقاقها، أو تعدد في اللسان العربي استعمالها. وبذلك يتجلى شدة الحاجة إلى أسلوب القسم في سياقاته المتعددة، ومقاماته المتنوعة، ويتقرر نوعية القضايا التي يُعْنَى بتحققها، ويتصدر معالجتها، ويجاهد في مواجهة انحراف الناس إزاءها، كما يتأكد أنها من الأهمية بمكان، وأن الإذعان لها، والاعتراف بمقتضاها، والعمل بمواجبها، والرضى بها، لا يقل شأنا عن ضرورة المحافظة على حياة الإنسان، والرضى بقسمة الماء في الفلوات عند اشتداد الخطوب، وتوارد الشدائد، وتزاحم الاحتياجات.

وبذلك يتم إماطة اللثام عن شديد وقع القسم، وارتسام ما ينبغي أن يقابل به؛ فهو فعل عربي كانوا يفعلونه في الخطوب، مداره الرضا بلوازمه، ومن مآلاته الإذعان لمقتضاه؛ مما يقيم الحجة على المتلقين، ويدحض أعذار الجاحدين.

كما يتبين أن الإخلال بتلك القضايا المقررة ضمن أسلوب القسم، يتصور أثره في صورة عدم الإذعان **لمدلول:** (حصاة القسم)، وما يستتبعه من مخاطر، ومهالك، واختلافات، من شأنها الفتك بحياة الفرد والجماعة على السواء.

قلت: وقد أسفر هذا عن أثر نفسي بعيد المدى، سامق الصدى؛ إذ عمل على تقرير صفات الإلهية، وتثقيف النفوس بنعوت الربوبية مخاطبا لها بما قد تقرر لديها، وثبت عندها؛ فأكد مدى الرحمة الإلهية، وجميل العناية الربانية التي تحمل البرية على ما فيه خيرها، ويحقق سعادتها، وتحرضها على مناطات نفعها، وتُعْنَى بإيصال الخير لها، وتوجهها نحو الاعتراف من الحقوق المنثورة لديها، والنيل من الحظوظ المنشورة أمامها، وتنشد إبلاغها بما فيه نفعها، وتلفت أنظارها إلى العطاءات، وترشدها إلى طوق نجاتها

[1] التحرير والتنوير: 245/16.

حتى من أنفسها واستنقاذها من ضلالاتها. وقد تقرر ذلك في صور مادية استقر في أذهانها بالغ نفعها، وارتسم في مداركهم عظيم أثرها؛ مما يقيم الحجة عليها، ويقطع أعذارها!.

ثامنا: الإيحاء بكيفية دراسته، والإشارة إلى سبيل اكتشاف أسراره:

هذا، ولم يقف أمر إعجاز تلك التسمية عند ذلك الحد من التوظيف، بل إن هناك الكثير من الدروس المفادة منها؛ إذ أوحت بمدلولاتها واستعمالاتها، بطريقة دراسة هذا الأسلوب، ورسمت سبيل الولوج إلى أسراره، والتعرف على وظيفته، وفاضت بإمكانية فهم رسالته، وأمددت بآلية ترجمتها.

وإنما يتجلى ذلك في ضوء مدلولات كثيرة، واستعمالات عديدة، في طليعتها **مدلولات**: توزيع الحقوق على أربابها الشركاء فيها، التحالف والاجتماع على أمر، طي الثياب طيا إثر آخر.. وبتوظيفها يتقرر أنه يتحتم على دارس هذا الأسلوب المحكم أن يعلم علما يقينيا أنه حتى يَتَأَتَّى له إزاحة الستار عن وظيفة هذا الأسلوب، والولوج إلى دقائقه، والغوص في أسراره، يلزمه ما يلي:

أولًا: البحث في كل أركان القسم، وتأملها بفكر عميق، ونظر فيه دائم، وتدبر متكرر؛ لفهم وظيفته، والوقوف على حقيقة رسالته، وبلوغ غايته. أسهم في هذا مدلولات: (التقدير، التدبير، النظر، الفكر، التروي، جودة الرأي). **ثانيًا**: الكشف عن أوجه التناسب، وحيثيات الارتباط بين كل أركان القسم، وتحقيقها. **ثالثًا**: مراعاة أن ثمت أمرا ظاهرا، وعاملا مشتركا، آل إلى الجمع بين تلك الأركان، ولذا؛ كان من مدلولات المادة: توزيع الحظوظ على أربابها الشركاء فيها، مع مراعاة أنها قد اختيرت بحكمة إلهية موزونة، وفق عناية رباني مقدرة. **رابعًا**: أن الأمر الذي تعالجه تلك الأركان موزع عليها، وكل منها يقدم جزءا من المعنى، وهذا أشبه ما يكون بتجميع المتفرقات، وإكمال الحلقات، مع مراعاة أن يكون كل منها في موطنه؛ ليَتَأَتَّى فهم الصورة النهائية، وترجمة الرسالة الأساسية. يشهد لهذا ويدعمه مدلول: "القَسامة: الْجَمَاعَةُ يُقْسِمُون عَلَى الشَّيْءِ أَو يُشهدون، ويَمِينُ القَسامةِ مَنْسُوبَةٌ إليهم" [1]، ومثله: (التحالف والاجتماع على أمر من الأمور)؛ مما يسهم في ارتسام مدى التعاون بين تلك الأجزاء، والاجتماع فيما بينها؛ لتحقيق المعنى المنشود من القسم، وكأنها تشهد عليه باجتماعها، وتقرره بتعاضدها واتحادها. **خامسًا**: أن تلك الأركان لقوة ارتباطها، ووشيج الصلة بينهما؛ يفهم بعضها في ضوء بعض، ويشهد بعضها لبعض، ويسلم السابق منها للاحق، ويسهم كل ركن منها في إيضاح الآخر؛ وكأنها كل منها مرآة يرى فيه الآخر، وينعكس معناه من خلالها، وهذا ما يفهم من وراء ظلال مدلولات المادة واستعمالاتها.

أسهم في ذلك مدلول: (القسامة): شدة الحر، و(القسام): أول وقت الهاجرة، أو وقت ذروة الشمس؛ حيث تكون آنذاك أحسن حالا، وأتم ما تكون مرآة.

كما أسهم فيه بشكل خاص **مدلول**: (القسامي: وهو الذي يطوي الثياب أول طيها، ثم تطوى على طيه)، وقيل: "الذي يطوي الثياب؛ **لتعود** على طيها الأول " [2]؛ إذ أشعر بأن الطي الثاني إنما كان على احتذاء الأول، والثالث على احتذاء الثاني، وهكذا، مؤذنا بأنه لا سبيل لإمكانية الطي الثاني لولا الأول، ولا سبيل للثالث لولا الثاني.. إلخ، فالكل مبني على الآخر، مع الإيحاء بأن الأول هو الأساس، ولابد من العودة إليه، ففيه دليل على أن المعاني تعود على بدئها، وما يقرره كل جزء في هذا الأسلوب البديع، له مرآة تشفه وتعكس أثره وتوضح معناه، وفيه بعد معنوي وأثر تفسيري؛ إذ إنه يلوح من وراء ظلاله إلى سر جميل، هو أن معنى الكناية لا ينفك عن أسلوب القسم، فأركانه يسلم بعضها لبعض، وترى مطاوي أركانه في مرآة بعضها البعض، كما يؤذن بشدة الاتصال بين تلك الأركان؛ حتى كأنها كالقطعة الواحدة التي لا تنفك المعاني عنها جملة وتفصيلا، كما أنه لا سبيل للوقوف على رسالته كأسلوب إلا من خلال فهم وظيفة كل أجزائه، وترجمة رسالة جميع لبناته، وبلوغ حيثية ربطها

---

[1] المحكم والمحيط الأعظم (ق س م): 248/6. لسان العرب (ق س م): 481/12.

[2] شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان بن سعيد (ق س م): 8/ 5483.

جميعا برباط التناسب والانسجام، بهذا يَتَأَتَّى الحصول على الثوب كاملا؛ فما علينا إلا فرد الثوب المطوي؛ ليظهر في كامل هيئته، ويتجلى في رونق أبهته.

وهذا ما سيظهر جليا في الجانب التطبيقي- إن شاء الله تعالى-؛ إذ إن الجزء الأساس من أسلوب القسم يمثله أول أجزائه، كما سيتبين أن هذا الأسلوب يعد أحد صور الكناية؛ لأنه بأركانه عبارة عن دعوى ببينة؛ ومن ثَمَّ يكون قد استوعب وظيفة الكناية؛ فهو دعوى يمثلها (المقسم عليه)، وبينة لتلك الدعوة ويمثلها (المقسم به)، ويمهد لهما تمهيدا بليغا معجزا حذف فعل القسم وحرفه، والاستعاضة عنهما بـ (الواو) على نحو ما سيأتي.

معايشة لبعض مدلولات المادة، واستصحاب استعمالاتها:

انطوت مادة (ق س م) على كثير من الدلالات، وفاضت بالعديد من الإيحاءات، وابتعثت الغزير من الإشارات، مما يحتاج إلى مزيد تنبيه عليه، وفضل إصغاء لبعد مرماه، وفريد تأمل في مقتضاه، وشديد استماع لقوة صداه.

فمدلول: (الأقاسيم: الحظوظ المقسومة بين العباد) فيه إلماح إلى أن أسلوب القسم ملئ بالعطاءات، فياض بالمعاني، مفعم بالإشارات، وأن كل ناظر فيه يأخذ منه على قدر حظه المقسوم به، والمقدر له.

ومدلول: (القسيم من الرجال، والقسيمة من النساء) يُنَوِّهُ بحسن أسلوب القسم، ويشيد بجودة سبكه، وعلو شأنه بين أفانين الكلام، ملوحا بأن مادته اتسعت بمعناها؛ لتشمل نوعي المخاطبين: رجالا، وإناثا؛ مما يقيم الحجة على جميعهم، ويسع المخاطبين على تنوعهم؛ فكل ناظر فيه مقر لا محالة بمقتضاه؛ فكان عمومه وشموله من تتمة حسنه وجماله.

ومن عجيب المناسبة، وبديع الدلالة: أن معنى الحسن قد ارتبط بمادة (ق س م) في كثير من المعاني على اختلاف اتجاهاتها، وتعدد أوجهها؛ ففهم منه حسن الرجال والنساء، وحسن الوجوه، وحسن الفعال؛ مما يوحي بأن جميع مناطات الحسن هي لله سبحانه وتعالى: خلقا، وملكا، وتصرفا، فكما أن فعله جل جلاله ممثلا في خلقه موسوم بالحسن، فكذلك كلامه، وعليه فالحسن مسند لله عز وجل فعلا، ومسند إليه قولا. فمرجع الحسن إلى " فِعْلِ القَسّام، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى؛ وإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بقَوْلِهِ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾ [الزخرف: 32] "[1].

ومدلول: (قسمة الوجه: وسطه) يومئ إلى أن أسلوب القسم يعد نمطا من الكلام شديد الوضوح، بليغ الظهور، جميل السبك، أخاذ بالألباب، فقد وصل في ظهوره وتقرره الغاية، وبلغ في حسنه وعلو شأنه إلى ذروة النهاية؛ وكأنه وجه الكلام، وما أقبل على الأسماع منه، وما استقر في الأذهان من بديعه.

ومعنى: كونه الثياب بعد طيها الأول تكسر على طيه، أي: أن المعاني بإزاء بعضها، ويبنى أولها على آخرها، وأن بناء المقسم عليه محذو بالمقسم به؛ إيغالا في تحقق شدة الاتصال فيما بينها.

هذا، واتصال المادة (ق س م) بمعاني توزيع الحقوق، لاسيما قسمة الميراث والغنيمة يتقرر في ظله: أن القسم إنما يكون على حق ثابت مقرر، كشأن المواريث في ثبوتها، والغنائم في تقررها.

ومدلول: (القسامة: الذين يحلفون على حقهم ويأخذون، أو الجماعة يقسمون على الشيء ويشهدون)، يلوح بالأثر النفسي الذي يثمره أسلوب القسم؛ إذ يُنَوِّهُ بأن الحق سبحانه إنما يحلف على حق، وهذا الحق يلج النفوس، ويجدي نفعا في العقول، ويسري إلى الأعماق، ويتغلغل في الدواخل؛ تحقيقا لجدواه، وتقريرا لثماره، وتأكيدا لبلوغ أهدافه، وإيصال رسالته. كما أنه يشير إلى أن معنى الجمعية متوفر في أصل المسألة، مما يصحح معنى التقسيم والتوزيع والتفريق؛ إذ لا يفهم إلا في ضوء متفرق يَتَأَتَّى اجتماعه وتحالفه.

---

[1] لسان العرب (ح ظ ظ): 440/7 بتصرف.

وقد أثمر هذا بدوره بعدا معنويا وأثرا نفسيا؛ إذ إن هؤلاء القوم ليس معروفا عنهم أنهم يحلفون على باطل؛ ومن ثَمَّ فكان هذا إلزاما لهم بما يعرفون في نفوسهم، وتشهد به أحوالهم؛ إذ كيف يسندون لبارئهم سبحانه ما لا يسندونه لأنفسهم، وبأي حق يرضون له ويتوقعون من جنابه ما لا يرضونه لأنفسهم، ولا يتوقعونه من ناحيتهم!.

ما وراء ظلال استعمالات مادة (ق س م):

هذا، وقد أشارت تلك المادة العربية الفصيحة إلى كثير من المعاني، واستصحب جذرها اللغوي الأصيل بظلاله العديد من الإيحاءات؛ فآذن **مدلولا**: (طي الثياب طيا بعد آخر، وإفراز النصيب) بكثرة فوائده، وانطوائه على المنافع؛ إذ أوحا بكون أسلوب القسم منتظما المعاني، منطويا عليها طيا متكررا، وموشحا بها ترتيبا محكما، وسبكا مبدعا.

وأومأ **مدول**: (قَسِمَةُ الْوَجْهِ: مَا خَرج مِنَ الشَّعْرِ) إلى أن القسم يخرج منه المعنى، ويتفرع عنه، وينبت من خلاله. وأشعر **مدلول**: (القَسِمَات: مَجارِي الدُّمُوعِ، وَالْوُجُوهُ) بأن القسم مليء باللطائف، غزير بالمعاني، مفعما بالدلالات، كما أن العيون مملؤة بالماء، فياضة بها.

كما أوحي بعض مدلولاتها من وراء ستار استعمالاتها إلى ما يفهم بليغ أثره، ويقرر شدة وقعه، وقد تجلى ذلك في إطار **مدلولات**: تفريق الشمل، الإبعاد، انقسام الإنسان من الخواطر، انقسام القلب من الهم، مرتسما ذلك المعنى في ضوء الحسيات، لاسيما وقت السَّحَر؛ لأنه يقسم بين الليل والنهار، والنوى القسوم؛ لكونها مفرقة مبعدة مقسمة للشمل؛ مما يوحي بكون هذا الأسلوب البديع يفرق بين الآراء، ويحدث الإبعاد؛ لأنه أسلوب يتميز به الحق من الباطل، والظاهر من الخفي، والقوي من الضعيف: قولا، وفعلا، واعتقادا. كما أن فيه دليلا على أن المعاني المفرقة بين المقسم به، والمقسم عليه، كثيرة؛ حتى لكأنها تختلف حولها الآراء، وتتشعب فيها الأهواء، مما يجعلها مثارا للاختلاف، ومبعثا للفكر، ومناطا للجدال؛ ومن ثَمَّ يكون قد كشف عن الأثر النفسي الذي يحدثه في نفوس المتلقين.

وقد أسهم هذا بدوره في الإيحاء بأن كل ناظر في هذا الأسلوب البديع، يأخذ منه على قدر استعداده، وقوة تبصره، وشدة ترويه، ودقة تأمله، وكثرة تمعنه. ويفهمه إشارةً قول العرب: (واسْتَقسَمُوا بالقِداح: قَسَمُوا الجَزُور عَلَى مِقدار حُظوظهم مِنْهَا).

كما استعمل الأصل (قسم) بمعنى: (السوق)، ولعل ذلك؛ لانقسام الناس تجولا فيه، ولتعدد الأغراض به، إلا أنه يلمح إلى أن أسلوب القسم محل مقصود لكل غرض منشود، ومقام يجد فيه كلٌ بغيته، ومنه يصل إلى هدفه المراد.

واستعمل– أيضا– بمعنى: (ما يعزله القاسم لنفسه من رأس المال؛ ليكون أجرا له)، وفيه إشارة خفية إلى أن أسلوب القسم فيه من المعاني والأسرار واللطائف ما يختص به تعالى وحده؛ ليكون بمثابة الحق له. مع الإيحاء بأن البشر مهما أتوا من الوسائل لم يحيطوا علما بكل ما عقد في مطاويه، ولم يستطيعوا أن يقفوا على كل أهدافه، أو أن يحصلوا جملة سامق مراميه.

وأخيرا– وليس آخرا–: فأسلوب القسم مسلك عربي، وسبك قرآني، وقد تجلى أن فيه معنى التقسيم بحسب طبيعته الأسلوبية، وقالبه الكلامي، كما أنه يعالج أمرا ما متلبسا بانقسام الناس إزاءه إلى قسمين: مصدق، ومكذب، ومن آثاره: أنه يقسم الطرف بحسنه، كما أنه بطبيعته الأسلوبية– أيضا– يكون بين الفاعل والمفعول له، وهذا يسهم في الإنباء عن علو شأنه، وسامق مكانته، وجليل القضايا المعالجة من قبله. وقد تقرر من خلاله أنه يصرح بأهدافه، ويميط اللثام عن سياقاته، فهو يستهدف تأكيد القضايا التي ينطوي عليها وينتظمها، ويقيم الحجة عليها، ويقطع الأعذار بشأنها؛ ومن ثَمَّ فقد كشف معجميا عن حقيقته، وبين خصائصه، وقرر بلاغته، وأمد بآلية التعامل معه.. وغير ذلك من حيثيات نبعت من مطاوي مادته التأليفية، واستمدت من استعمالاته العربية، كان لها من واقع البلاغة وأكيد المبالغة ما لا غاية وراءه، ولا مرمى بعده!.

هذا بالنسبة لمعنى القسم وبيان حقيقته في ضوء لغته واستعمالات لسانه. وفيما يلي عرض لمعناه في ضوء اصطلاحات أهل العلم على اختلاف مشاربهم، وتنوع أهدافهم، وتعدد غاياتهم.

المطلب الثاني

حقيقة القسم اصطلاحا

لما كان أسلوب القسم محلَ عناية، ومناطَ دراسة عند أرباب العلوم على اختلاف فنونهم، وتنوع أغراض دراساتهم، وتباين أهداف معالجتهم؛ لزم بيان معناه عند أهل كل مصطلح منهم. وبعد طول بحث، وتكرار نظر؛ تقرر أن (القسم) في تراثنا الإسلامي والعربي قد استعمله علماؤنا بمعنى الحلف، وفسروه باليمين، حتى لكأن هذا الحال محل إجماع عندهم. وبذلك يكونون قد فعلوا جزءا من الدلالة اللغوية في فهم معناه تاركين ما عداه. وفيما يلي تفصيل ذلك بمطالعة طرف من تراثنا الإسلامي النفيس على تعدد فنونه، ومحاولة الوقوف على نصوص العلماء واستقرائها ما أمكن [1]، ثم بالتعليق عليها، واستخلاص مضمونها ولب جوهرها إجمالا.

أولا: تعريفه عند السادة المفسرين:

لم يظهر كبير فرق عند السادة المفسرين حول معنى القسم، ففسروه بالحلف تارة، وباليمين أخرى، وقد تجلى إجماعهم على ذلك في كثير من السياقات، وفي طليعتهم الأئمة: مقاتل بن سليمان، ويحيي بن سلام، والطبري، والزجاج، وابن أبي حاتم، والماتريدي، والسمر قندي، وابن زمنين، والثعلبي، ومكي بن أبي طالب، والماوردي، والواحدي، والبغوي، وابن الجوزي، والرازي، والعز بن عبد السلام، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وابن جزي، والخازن، وابن كثير، وابن عادل، والإيجي، والسيوطي، وأبو السعود، وإسماعيل حقي، والقونوي، والجمل [2]، وغيرهم [3].

وقد تأكد من نصوصهم- أيضا- تأويل القسم وما في معناه بالشهادة مع تحقيق العلاقة بينهما، كما أنه قد انطوت عباراتهم على بعض التعليلات التي تكشف عن سر التسمية، وتقدم نمطا من حيثياتها؛ ومن ثُمَّتْ فقد تجلت الدلالة اللغوية باستقراء الموقف التفسيري في أظهر مدلولاتها استعمالا، وأكثرها شيوعا.

فقال الإمام الماوردي: " ﴿فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: 6]، والشهادة هنا يمين عبر عنها بلفظ الشهادة.. والعرب تسمي الحلف بالله تعالى شهادة " [4]. **وقال عند قوله سبحانه:** ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾

---

[1] **هذا**، وقد اعتمدت في ترتيب ذكر أهل الاصطلاح مبدأ القرب من تلك الدراسة؛ فقدمت ما هو من بابها، ثم الأقرب فالأقرب.

[2] **ينظر على الترتيب:** تفسير مقاتل بن سليمان: 311/3. تفسير يحيي بن سلام: 551/2. تفسير الطبري: 108/10. معاني القرآن وإعرابه: 282/2. تفسير ابن أبي حاتم: 1368/4. تفسير الماتريدي: 466/6. تفسير السمر قندي: 586/2. تفسير ابن زمنين: 305/3. تفسير الثعلبي: 216/7. الهداية إلى بلوغ النهاية، لمكي بن أبي طالب: 4/ 2428. تفسير الماوردي: 173/3. و(77/4). التفسير الوسيط، للواحدي: 381/3. تفسير البغوي: 151/2. و(509/3). زاد المسير: 65/2. تفسير الرازي: 534/15. تفسير العز بن عبد السلام: 183/2. تفسير القرطبي: 62/7. تفسير البيضاوي: 131/2. تفسير النسفي: 514/2. و(611/2). التسهيل لعلوم التنزيل: 104/2. تفسير الخازن: 146/2. تفسير ابن كثير: 316/3. اللباب، لابن عادل: 91/4. تفسير الإيجي: 323/2. الدر المنثور: 369/6. تفسير أبي السعود: 188/6. روح البيان، لإسماعيل حقي: 350/1. حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 489/7. حاشية الجمل على الجلالين: 180/1.

[3] ينظر: إيجاز البيان، لأبي القاسم النيسابوري: 634/2. باهر البرهان، لبيان الحق: 786/2. البحر المديد، لابن عجيبة: 202/4. التفسير المظهري: 122/7. فتح القدير، للشوكاني: 172/3. تفسير مراح لبيد: 593/1. محاسن التأويل، للقاسمي: 321/6. تفسير المراغي: 212/7. أضواء البيان، للشنقيطي: 376/2. و(119/6). تفسير أبي زهرة: 2628/5. حاشية الصاوي على الجلالين: 104/1. أيسر التفاسير، للجزائري: 26/4. موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، لـ أ.د/ حكمت بن بشير بن ياسين: 170/3. الروايات التفسيرية في فتح الباري، لعبد المجيد الشيخ: 893/2. التفسير الواضح، للحجازي محمد: 796/2. التفسير المنير، لـ أ.د/ وهبة الزحيلي: 274/13. التفسير الوسيط، للإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي: 80/8.

[4] النكت والعيون: 77/4 بتصرف.

[المنافقون: 1] مقدرا: " يعني: نحلف، فعبر عن الحلف بالشهادة؛ لأن كل واحد من الحلف والشهادة إثبات لأمر مغيب " [1].

وقد سبقه الإمام الماتريدي قائلا: " قال هاهنا: ﴿نَشْهَدُ﴾، ولم يقل: (نشهد بالله)؛ لأن المعنى من هذا: الحلفُ، والحلف من المؤمنين في المتعارف إنما يكون باللَّه تعالى، فلذلك؛ أجزئ بقوله: ﴿نَشْهَدُ﴾ وعن قوله: (بالله)؛ فيكون هذا دليلا لقول أصحابنا: إن قوله: ﴿نَشْهَدُ﴾ يكون يمينا؛ حيث ذكر هاهنا بطريق القسم " [2].

وقال الزمخشري مبينا سبب النزول: " كان الرجل يحلف على ترك بعض الخيرات، من صلة رحم، أو إصلاح ذات بين، أو إحسان إلى أحد، أو عبادة، ثم يقول: أخاف اللَّه أن أحنث في يميني؛ فيترك البرّ إرادة البرّ في يمينه، فقيل لهم: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمانِكُمْ﴾ [البقرة: 224]، أي: حاجزا لما حلفتم عليه. وسمى المحلوف عليه يمينا؛ لتلبسه باليمين، كما قال النبي صلى اللَّه تعالى عليه وآله وسلم لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله تعالى عنه: " وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ، فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا؛ فَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ" [3]، أي: على شيء مما يحلف عليه " [4].

وذكر الإمام الرازي: " إنما سمى اليمين بالقسم؛ لأن اليمين موضوعة؛ لتوكيد الخبر الذي يخبر به الإنسان: إما مثبتا للشيء، وإما نافيا. ولما كان الخبر يدخله الصدق والكذب؛ احتاج المخبر إلى طريق به يتوسل إلى ترجيح جانب الصدق على جانب الكذب، وذلك هو الحلف. ولما كانت الحاجة إلى ذكر الحلف إنما تحصل عند انقسام الناس عند سماع ذلك الخبر إلى مصدق به ومكذب؛ سموا الحلف بالقسم، وبنوا تلك الصيغة على- أفعل- فقالوا: أقسم فلان يقسم إقساما، وأرادوا: أنه أكد القسم الذي اختاره، وأحال الصدق إلى القسم الذي اختاره، بواسطة الحلف واليمين " [5]. **وقال معللا:** " الأيمان: جمع يمين، بمعنى: الحلف، والقسم. وقيل: للحلف يمين، وهو اسم اليد؛ لأنهم كانوا يبسطون أيمانهم؛ إذا حلفوا أو تحالفوا. وقيل: سمي القسم يمينا؛ ليمين البر فيه " [6]. **وقال الإمام البغوي:** " ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ..﴾ [النمل: 46]، تحالفوا يقول بعضهم لبعض: احلفوا بالله أيها القوم، وموضع: ﴿ تَقَاسَمُوا﴾ جزم على الأمر، وقال قوم: محله نصب على الفعل الماضي، يعني: أنهم تحالفوا وتواثقوا، تقديره: قالوا متقاسمين بالله " [7].

وقال الإمام القرطبي: " الأيمان: جمع يمين. وقيل: ويمين فعيل من اليمن وهو البركة، سماها الله تعالى بذلك؛ لأنها تحفظ الحقوق. ويمين تذكر وتؤنث، وتجمع: أيمان، وأيمن " [8].

وقال الخازن: " ﴿وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمانُكُمْ﴾ [النساء: 33]، المعاقدة: المحالفة، والمعاهدة، والأيمان: جمع يمين يحتمل أن يراد بها: القسم، أو اليد، أو هما جميعا، وذلك؛ أنهم كانوا إذا تحالفوا؛ أخذ كل واحد منهم بيد صاحبه، وتحالفوا على الوفاء بالعهد، والتمسك بذلك العقد. وكان الرجل يحالف الرجل في الجاهلية، ويعاقده؛ فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، ترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك.. " [9]. **وقال الحافظ ابن كثير مقدرا:** " قوله تعالى: ﴿الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر: 90]، أي: المتحالفين، أي: تحالفوا على مخالفة الأنبياء، وتكذيبهم،

---

[1] النكت والعيون: 13/6.

[2] تفسير الماتريدي: 19/10.

[3] **هذا جزء من حديث صحيح:** أخرجه الإمام البخاري: كتاب كفارات الأيمان، باب الكفارة قبل الحِنْثِ وبعده، برقم (6722). صحيح البخاري: 147/8.

[4] الكشاف: 267/1 بتصرف يسير.

[5] التفسير الكبير: 111/13 وما بعدها بتصرف يسير.

[6] تفسير الرازي: 534/15.

[7] تفسير البغوي: 509/3.

[8] تفسير القرطبي: 264/6.

[9] تفسير الخازن: 369/1.

وأذاهم، كما قال تعالى إخبارا عن قوم صالح أنهم: ﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ..﴾ [النمل: 46]، قال مجاهد: ﴿تَقَاسَمُوا﴾: تحالفوا " [1]. **وقال ابن عادل:** " سُمِّي الحَلفُ يَمينا؛ لأن العرب كانوا إذا تَحَالَفُوا؛ وضع أحدهم يمينه في يمين الآخر. وقيل: لأَنَّه يحفظ الشَّيء؛ كما تحفظ اليد اليمنى الشَّيء " [2].

وقال إسماعيل حقي: " الأقسام والقسم محركة: اليمين بالله " [3]. **وقال مقدرا قوله تعالى:** ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ..﴾ [النور: 53]: "أي: حلف المنافقون بالله، وأصله من القسامة، وهى أيمان تقسم على المتهمين في الدم، ثم صار اسما لكل حلف " [4]. **وقال– أيضا–:** " اليمين: تقوية أحد الطرفين بالمقسم به " [5]. **وقال معرفا ومعللا:** " ﴿أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 225]: جمع يمين، وهو الحلف، وسميت بها لمعنيين. أحدهما: أنها من اليمين التي هي اليد اليمنى، وكانوا إذا تحالفوا في العهود؛ تصافحوا بالأيمان؛ فسميت بذلك. والثاني: أن اليمين هي القوة، وسميت به؛ لأن الحالف يتقوى بيمينه على حفظ ما حلف عليه من فعل أو ترك " [6]. وقوله عز شأنه: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النمل: 46] " تحالفوا، يقال: أقسم، أي: حلف، وأصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على المتهمين في الدم، ثم صار اسما لكل حلف " [7].

وقال الإمام القونوي عند قول الحق سبحانه: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ..﴾ [المائدة: 53] **معلقا:** " (فإن المنافقين حلفوا لهم بالمعاضدة، وجهد الأيمان: أغلظها) [8]: إما بالتكرير والتأكيد، أو بالانضمام إلى الحلف حرف التقرير والتأكيد " [9].

وقال فضيلة الإمام محمد سيد طنطاوي: " القسم: الحلف: وسمى الحلف قسما؛ لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب " [10]. **وقال الشيخ الشعراوي:** " ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: 225]، المقصود به: الحلف، والحلف من معانيه: التقوية، وهي مأخوذة من الحِلْف، وهو أن يتحالف الناس على عمل ما. ونحن عندما نتحالف على عمل؛ فنحن نقسِّم العمل بيننا، وعندما نفعل ذلك؛ يسهل [11] علينا جميعا أن نفعله " [12]. **وقال في غير موضع:** " اليمين: هو الحلف أو القسم، وسمى يمينا؛ لأنهم كانوا قديما إذا تحالفوا؛ ضرب كل امرئ منهم يمينه على يمين صاحبه، وذلك؛ لأن اليمين هو الجارحة الفاعلة " [13]. و: " الأَيْمان: جمع يمين، وهو الحلف الذي نحلفه، ونُؤَكِّد عليه؛ فنقول: والله، وعهد الله.. إلخ " [14].

---

[1] تفسير القرآن العظيم: 4/ 548 بتصرف يسير.

[2] اللباب: 4 / 91. وهذا ما أشار إليه السمر قندي قائلا: " وأكده بالقسم " . بحر العلوم: 529/6.

[3] روح البيان: 34/5.

[4] روح البيان: 171/6.

[5] روح البيان: 2 / 433.

[6] روح البيان: 350/1 بتصرف يسير.

[7] روح البيان: 357/6.

[8] أنوار التنزيل: 131/2.

[9] حاشية القونوي: 489/7 بتصرف.

[10] التفسير الوسيط للشيخ سيد طنطاوي، فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشريف– رحمه الله تعالى–: 8 / 149.

[11] **قلت:** وفي كلام الإمام إشعار بسهولة أسلوب القسم بكون المعاني الوظيفية والأهداف السياقية موزعة على جميع أركانه؛ فيسهل قيام كل ركن بما أنيط به، كما يسهل إدراك رسالة الأسلوب من خلال الوظيفة الشائعة في كل لبناته.

[12] الخواطر: 976/2.

[13] الخواطر: 975/2. وقال الجزائري: " الإيمان جمع يمين وهو الحلف، وسمي الحلف يمينا؛ أخذا من اليمين؛ لأن عادة العرب إذا حلف أحدهم للآخر وضع يده اليمنى على يده اليمنى، ويقال: أعطاه يمينا؛ إذا حلف له مؤكدا حلفه بوضع يده اليمنى على يد صاحبه اليمنى". أيسر التفاسير: 209/1.

[14] الخواطر: 8175/13.

وقال– أيضا–: " القَسَم: هو اليمين، والحَلِف، والإنسان يُقسم؛ ليؤكد المقسَم عليه، يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسم عليه حق " [1].

وظهر تأويلهم (اليمين) بالجارحة وبالحلف كما في قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ﴾ [الصافات: 93]؛ **فقال العلامة أبو السعود مقدرا:** " أي: فراغ عليهم يضربهم ضربا، أو هو الحال منه على أنه مصدر بمعنى الفاعل، أي: فراغ عليهم ضاربا باليمين، أي: ضربا شديدا قويا، وذلك؛ لأن اليمين أقوى الجارحتين، وأشدهما، وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وشدته. وقيل: بالقوة والمتانة، وعلى ذلك مدار تسمية الحلف باليمين؛ لأنه يقوي الكلام ويؤكده. وقيل: بسبب الحلف، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ..﴾ [الأنبياء: 57] " [2].

ومما هو جدير بالذكر: أنه قد جمع الإمام ابن عاشور الأسماء الثلاثة (اليمين، الحلف، القسم) في عقد واحد، وبين وشيج العلاقة فيما بينها؛ فقال: " الأيمان جمع يمين، وهو الحلف، سمي الحلف يمينا؛ أخذا من اليمين التي هي إحدى اليدين، وهي اليد التي يفعل بها الإنسان معظم أفعاله، وهي اشتقت من اليمن، وهو البركة؛ لأن اليد اليمنى يتيسر بها الفعل أحسن من اليد الأخرى، وسمي الحلف يمينا؛ لأن العرب كان من عادتهم إذا تحالفوا؛ أن يمسك المتحالفان أحدهما باليد اليمنى من الآخر، فكانوا يقولون: أعطى يمينه؛ إذا أكد العهد. وشاع ذلك في كلامهم، ثم اختصروا؛ فقالوا: صدرت منه يمين أو حلف يمينا، فتسمية الحلف يمينا من تسمية الشيء باسم مقارنه الملازم له، أو من تسمية الشيء باسم مكانه؛ كما سموا الماء واديا. ولما كان غالب أيمانهم في العهود والحلف، وهو الذي يضع فيه المتعاهدون أيديهم بعضها في بعض؛ شاع إطلاق اليمين على كل حلف؛ جريا على غالب الأحوال فأطلقت اليمين على **قسم** المرء في خاصة نفسه دون عهد ولا حلف " [3].

كما بين جميل المناسبة بين القسم والشهادة؛ فقال: " القصد من الحلف يرجع إلى قصد أن يشهد الإنسان الله تعالى على صدقه في خبر أو وعد أو تعليق، ولذلك يقوله: (بالله)، أي: أخبر متلبسا بإشهاد الله، أو أعد أو أعلق متلبسا بإشهاد الله على تحقيق ذلك، فمن أجل ذلك؛ تضمن اليمين معنى قويا في الصدق؛ لأن مَنْ أشهد بالله على باطل؛ فقد اجترأ عليه، واستخف به، ومما يدل على أن أصل اليمين إشهاد الله: قوله تعالى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ..﴾ [البقرة: 204]، وقول العرب: (يعلم الله) في مقام الحلف المغلظ، ولأجله؛ كانت (الباء) هي أصل حروف القسم؛ لدلالتها على الملابسة في أصل معانيها. وقد كانت العرب في الجاهلية تغضب فتقسم بالله وبآلهتها وبآبائها، على الامتناع من شيء؛ ليسدوا باليمين باب المراجعة أو الندامة " [4].

هذا، وقد تجلى حد (القسم) عن بعض المفسرين؛ فقال الإمام ابن العربي: " حقيقة اليمين: هي ربط العقد بالامتناع والترك أو بالإقدام على فعل بمعنى معظم حقيقة أو اعتقادا. والمعظم حقيقة، كقوله: والله لا دخلت الدار أو لأدخلن. والمعظم اعتقادا، كقوله: إن دخلت الدار فأنت طالق، أو أنت حر. والحرية معظمة عنده؛ لاعتقاده عظيم ما يخرج عن يده في الحرية، والطلاق. ودليله قوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: " مَنْ كَانَ حَالِفًا، فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ أَوْ لِيَصْمُتْ" [5]؛ فسمى الحالف بغير الله تعالى حالفا " [6].

---

[1] الخواطر: 10310/17.

[2] إرشاد العقل السليم: 198/7 بتصرف.

[3] التحرير والتنوير: 2 / 377 وما بعدها بتصرف.

[4] التحرير والتنوير: 2/ 278 بتصرف يسير.

[5] **متفق عليه:** أخرجه البخاري– واللفظ له–: كتاب الشهادات، باب كَيْفَ يُسْتَحْلَفُ، برقم (2679)، من حديث عبد الله رضي الله تعالى عنه. صحيح البخاري: 180/3. ومسلم: كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، برقم (1646)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

[6] أحكام القرآن، لابن العربي: 148/2 بتصرف يسير.

وقال ابن عثيمين معرفا: " القسم: تأكيد الشيء بذكر معظم على وجه مخصوص. فكل شيء محلوف به لابد أن يكون معظما لدى الحالف، وقد لا يكون معظمًا في حد ذاته. فمثلا الذين يحلفون باللات والعزى هي معظمة عندهم، لكن هي في الواقع ليست عظيمة ولا معظمة. فالحلف، أو القسم، أو اليمين المعنى واحد، هي تأكيد الشيء بذكر معظم عند الحالف على صفة مخصوصة. وحروف القسم هي: (الباء)، و(الواو)، و(التاء) " [1].

ثانيا: عند العلماء المعنيين بعلوم القرآن:

قال مناع القطان حادا ومعللا: " القسم واليمين واحد: ويعرف بأنه: ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا. وسُمي الحلف يمينًا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف " [2]. وتبعه صاحب (الواضح في علوم القرآن) [3].

ثالثا: عند علماء الحديث:

قال الحافظ ابن حجر: " الأيمان: بفتح الهمزة جمع يمين، وأصل اليمين في اللغة: اليد، وأطلقت على الحلف؛ لأنهم كانوا إذا تحالفوا؛ أخذ كل بيمين صاحبه. وقيل: لأن اليد اليمنى من شأنها حفظ الشيء؛ فسمي الحلف بذلك؛ لحفظ المحلوف عليه. وسمي المحلوف عليه يمينا؛ لتلبسه بها، ويجمع اليمين- أيضا- على أَيْمُنٍ، كَرَغِيفٍ وَأَرْغُفٍ. وعرفت شرعا بأنها: توكيد الشيء بذكر اسم أو صفة لله تعالى، وهذا أخصر التعاريف، وأقربها " [4].

وقال القسطلاني: " الأيمان: بفتح الهمزة جميع يمين، واليمين خلاف اليسار، وأطلقت على الحلف؛ لأنهم كانوا إذا تحالفوا؛ أخذ كلٌ يمين صاحبه، وقيل: لحفظها المحلوف عليه كحفظ اليمين، وتسمى أَلِيَّةً وَحَلِفًا، وفي الشرع: تحقيق الأمر المحتمل أو توكيده بذكر اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته [5]. هذا إن قصد اليمين الموجبة للكفارة، وإلاّ؛ فيزاد أو ما أقيم مقامه؛ ليدخل نحو الحلف بالطلاق أو العتق، وهو ما فيه حث أو منع أو تصديق " [6].

وتبعه الزرقاني، وقال: " شرعا: تحقيق ما لم يجب بذكر اسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته، هذا إن قصد بها الموجبة للكفارة وإلا زيد: وما أقيم مقامه؛ ليدخل الحلف بنحو إطلاق أو عتق " [7].

وقيل: " الأيمان: جمع يمين، يحتمل أن يراد بها: القسم، أو اليد، أو هما جميعا، وذلك؛ أنهم إذا تحالفوا؛ أخذ كل واحد منهم بيد صاحبه، وتحالفوا على الوفاء بالعهد، والتمسك بذلك العقد، وكان الرجل يحالف الرجل في الجاهلية، ويعاقده؛ فيقول: دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، ترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك.. " [8].

---

[1] تفسير العثيمين: صـ 210.

[2] مباحث في علوم القرآن، لمناع القطان: صـ 301.

[3] ينظر الواضح في علوم القرآن، لمصطفى ديب البغا، ومحيي الدين ديب مستو: صـ 207.

[4] فتح الباري، لابن حجر: 516/11 بتصرف يسير. وتبعه المباركفوري. ينظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري: 101/5. وينظر عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، لمحمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبي عبد الرحمن شرف الحق الصديقي، العظيم آبادي: 48/9.

[5] ينظر تيسير العلام شرح عمدة الأحكام، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح بن حمد بن محمد بن حمد البسام: صـ 681.

[6] إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني: 362/9. وينظر: سبل السلام، لمحمد بن إسماعيل بن صلاح الكحلاني عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير: 544/2.

[7] شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري: 83/3.

[8] عون المعبود: 96/8.

رابعا: عند علماء الفقه:

قال الفقهاء مقدرين: " ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ..﴾ [الأنعام: 109]، أي: حلفوا، وسمي الحلف قسما؛ لأنه يكون عند انقسام الناس إلى مصدق ومكذب " [1]. وقيل: " الأيْمان: جمع يمين، واليمين في اللغة: القوة. وتطلق اليمين على اليد اليمنى، وذلك؛ لتوفر القوة فيها. وتطلق اليمين- أيضا- على الحَلِف بمعظم. وسمى الحلف يمينا؛ لأن العرب كانوا إذا تحالفوا؛ أخذ كل واحد منهم بيمين صاحبه. وأما اليمين اصطلاحا: فهي توثيق كلام غير ثابت المضمون بذكر أحد أسماء الله عزّ وجلّ، أو ذكر صفة من صفاته، بصياغة مخصوصة " [2]. **وقالوا:** " الأيمان: جمع يمين، وهي مؤنثة وتذكر. وتجمع- أيضا- على (أيمن) ومن معاني اليمين لغة: القوة، والقسم، والبركة، واليد اليمنى، والجهة اليمنى. ويقابلها: اليسار، بمعنى: اليد اليسرى، والجهة اليسرى. أما في الشرع، فقد عرفت بأنها: توكيد حكم بذكر معظم على وجه مخصوص [3]. ومقتضى هذا التعريف: تخصيص اليمين بالقسم، لكن قيل بتسمية التعليقات الستة أيمانا، وهي تعليق الكفر، والطلاق، والظهار، والحرام، والعتق، والتزام القربة " [4]. **وجاء في (موسوعة الفقه الإسلامي):** " الأيمان: جمع يمين. واليمين: هي توكيد الأمر المحلوف عليه بذكر الله، أو اسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، على وجه مخصوص. وتسمى القَسَم، أو الحَلِف، أو اليمين " [5]. **وقيل:** "جمع يمين وضعت في الأصل؛ لتوكيد المحلوف عليه، وهي: القسم، والإيلاء، والحلف " [6]. **وقيل:** " الأيمان لغة: جمع يمين، وهو الحَلِف أو القَسَم، وسمي الحلف يمينا؛ لأنهم كانوا إذا تحالفوا؛ ضرب كل واحد منهم بيمينه على يمين صاحبه. وشرعا: توكيد الشيء المحلوف عليه بذكر اسم الله، أو صفة من صفاته " [7]. " **أو هو** عقد يقوي به الحالف عزمه على الفعل أو الترك. واليمين والحلف والايلاء والقسم بمعنى واحد " [8]. **وقيل:** " الأيمان- بفتح الهمزة- جمع يمين. وأصل اليمين في اللغة: اليد. وأطلقت على الحلف؛ لأنهم كانوا إذا تحالفوا؛ أخذ كلٌّ بيمين صاحبه. وهي في الشرع: توكيد الشيء بذكر اسمٍ أو صفةٍ لله سبحانه " [9].

خامسا: عند العلماء المعنيين بالحدود:

قال الجرجاني: " القسمة: لغة: من الاقتسام، وفي الشريعة: تمييز الحقوق وإفراز الأنصباء. وقسم الشيء: ما يكون مندرجًا تحته وأخص منه، كالاسم؛ فإنه أخص من الكلمة، ومندرج تحتها. واعلم أن الجزئيات المندرجة تحت الكلي؛ إما أن يكون تباينها بالذاتية، أو بالعرضيات، أو بهما، والأول يسمى أنواعًا، والثاني أصنافًا، والثالث أقسامًا. وقسيم الشيء: هو ما يكون مقابلًا للشيء ومندرجًا معه تحت شيء آخر، كالاسم؛ فإنه مقابل للفعل ومندرجان تحت شيء آخر، وهي الكلمة التي هي أعم منهما. القسم، بفتح (القاف): قسمة الزوج بيتوتته بالتسوية بين النساء. والقسامة: هي أيمان تقسم على المتهمين في الدم " [10]. **وقال السيوطي:** " القَسْم: تَقْدِير الرجل مُدَّة لبثه عِنْد نِسَائِهِ " [1].

---

[1] فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب، للجمل: 292/5. وينظر حاشية البيجرمي: 4/ 319.

[2] الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، لـ د/ مُصطفى الخِنْ، ود/ مُصطفى البُغا، وعلي الشّرْبجي: 9/3.

[3] **وقيل في شرحه:** " (اليمين توكيد حكم)، أي: محلوف عليه (بذكر معظم)، وهو المحلوف به (على وجه مخصوص)، كقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ..﴾ [الدخان: 2-3] " . مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، لمصطفى بن سعد بن عبده الحنبلي: 357/6.

[4] الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- (الكويت): 245/7 بتصرف.

[5] موسوعة الفقه الإسلامي، لمحمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري: 258/5.

[6] الإحكام شرح أصول الأحكام، لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم القحطاني الحنبلي النجدي: 457/4.

[7] الفقه الميسر، لمجموعة من المؤلفين: صـ 387.

[8] فقه السنة، لسيد سابق: 9/3.

[9] الوجيز في فقه السنة والكتاب العزيز، لعبد العظيم بن بدوي بن محمد: صـ 385 بتصرف يسير.

[10] التعريفات، لعلي بن محمد الجرجاني: صـ 175 بتصرف.

وقال أبو البقاء: " الْقِسْم، بِالْكَسْرِ: اسْم من الْقسم بِالْفَتْح لُغَة: التجزئة، وَعرفا: ضم مُخْتَصّ بمشترك. وَالْقَسْم بِالْفَتْح والسكون: إفْرَاز النَّصِيب والتسوية بَين الزَّوْجَات فِي الْمَأْكُول والمشروب والملبوس والبيتوتة، لَا فِي الْمحبَّة وَالْوَطْء. وَيُقَال: هَذَا يَنْقَسِم قَسْمَيْنِ بِالْفَتْح؛ إِذا أُرِيد الْمصدر، وبالكسر؛ إِذا أُرِيد النَّصِيب أَو الْجُزْء من الشَّيْء الْمَقْسُوم. وَالْقِسْمَة بِالتَّاءِ: تَجِيء بِمَعْنى الْقسم بِلَا تَاء، كَقَوْلِه تَعَالَى: ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَن الماء قسْمَة بَينهم﴾ [القمر: 28]، وَالْمرَاد: النَّصِيب. وَالْقِسْمَة الفعلية: الْفَصْل والفك، سَوَاء كَانَ بِالْقطعِ أَو بِالْكَسْرِ " [2].

تعليق:

قلت: تجلى مما سبق موقف السادة المفسرين وسائر العلماء المعنيين، واتضح أن الموقف التفسيري قد امتاز بالعموم والشمول والاتساع، وقد تبين موطن الاتفاق فيما بينهم، ومحل الاختصاص عند بعضهم. وقد خلص موقفهم جميعا إلى أن القسم يأتي بمعنى: الحلف، واليمين، والشهادة، والإيلاء، والجزم على الأمر، والتوثيق، كما تجلى معنى التفريق، والتجزئة؛ إذ إن أصله من القسامة، وهي أيمان تقسم على المتهمين في الدم. وتقرر أنه لا يكون الحلف إلا على الوفاء بالعهد، والتمسك بالعقد، وما في معناه عادة.

وقد تقرر أن علماءنا على اختلاف علومهم، وتباين فنونهم، قد اتفقوا فيما بينهم على أن القسم واليمين والحلف بمعنى، وأنه لا يوجد كبير فرق بينها جميعا.

وظهرت بعض التعليلات التي تسهم في ارتسام العلاقة بين المتقاربات الثلاث، وتقدم حيثياتها؛ إذ قرروا أن تسمية الحلف بالقسم تعود إلى سببه الداعي إليه، وأثره المترتب عليه. أما سببه: فهو أن الحاجة إلى ذكر الحلف إنما تحصل عند انقسام الناس عند سماع ذلك الخبر إلى مصدق به ومكذب. وأما أثره: فلأنه يتلقاه الناس منقسمين إلى مصدق به، ومكذب بمقتضاه. فتجلى معنى التجزئة، وهو انقسام الناس إزاءه ما بين مصدق به، ومكذب بمقتضاه، ومما لا ريب فيه أن التعبير بالقسم بين المتخالفين له وقعه الذي لا ينكر، وظلاله التي يجب أن تستحضر.

ومن التعليلات: أن الحلف من معانيه: التقوية، وهي مأخوذة من الحِلْف، ومضمونه: أن يتحالف الناس على أمر أو عمل ما؛ مما يقتضي توزيعه وتفريقه فيما بينهم؛ فيسهل أمره؛ فتجلى- أيضا- معنى التفرقة والتجزئة، مع اتحاد الوظيفة المنوطة بكل، ووحدة العمل الموزع عليهم جميعا.

كما عللوا وسم القسم والحلف باليمين؛ لمعنى: القوة، واليمن، والبركة، أي: لأنه يتقوى به على تحقيق الأمر، وليمن البر به، ولأنه من اليمن، أي: البركة؛ لكونه يحفظ الحقوق، ولأن اليمين موضوعة لتوكيد الخبر نفيا أو إثباتا، والخبر يعتريه الصدق والكذب؛ فيحتاج المخبر إلى سبيل لترجيح أحدهما على الآخر، وهذا يكون بالقسم، أو لأنه اسم لليد؛ لأن العرب كانوا يبسطون أيمانهم، أو لأن اليمين هي القوة؛ فيتقوى الحالف بيمينه على حفظ ما حلف عليه، كما تحفظ اليد اليمنى الأشياء، ولأن اليمين هي الجارحة الفاعلة، وهي أقوى الجارحتين، وأشدهما، وقوة الآلة تقتضي قوة الفعل وشدته. كما أن من معانيها: القوة، والمتانة، والقسم يقوي الكلام ويؤكده.

وفي ذلك دلالة على التصميم في إمضاء الأمر المقسم عليه أو تركه، وتحقيق مضمونه وتأكيد عقده. كما أن فيه إيحاءً بملابسات حدث القسم، ولاسيما أسبابه التي دعت إليه، وآثاره التي تترتب عليه. كما يتأكد أن القسم بأي اسم ورد به إنما هو فعل محل رضى وقبول، ومقام تصديق وإذعان، ومناط تسليم وإلزام.

كما تجلى من الموقف التفسيري أن الشهادة قسم، معللين ذلك بأن كليهما يُعْنَى بإثبات أمر مغيب، ولأن القصد من القسم يعود إلى قصد الحالف أن يشهد الله تعالى على صدقه في مقتضى قسمه، لذا؛ تضمن القسم معنى قويا في الصدق؛ لإبعاد أن

---

(1) معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، للسيوطي: صـ 57.

(2) الكليات: صـ 724 وما بعدها بتصرف.

يكون ذلك على سبيل الاستخفاف بالله سبحانه؛ إذ لا طاقة لأحد على أن يتجاسر على الذات الإلهية، ويعرِّض نفسه لمستتبعات هذا الجرم.

وعليه فقد تأكد أن من دواعي القسم: تأكيد المقسم عليه، وتقوية أحد الطرفين بالمقسم به، وطمأنة المخاطب أنه حق، ومن دواعيه- أيضا- الغضب؛ لأن العرب كانت تغضب؛ فتقسم بالله تعالى، وبآلهتها، وبآبائها، **ومنها**: التصميم على أمر ما، وتأكيده: فعلا كان أو تركا. **وتبين أن من خصائصه**: أنه لا يكون إلا بمعنى معظم حقيقة أو اعتقادا، ويكون على وجه مخصوص، وبصفة وبألفاظ مخصوصة.

وعلى ما تقرر آنفا يسعني القول: إن علماءنا قد أدلو بدلوهم، وقدموا لب عقولهم، وخلاصة فكرهم إزاء هذا العمل التأصيلي، وما يبقى على عاتق مَنْ بعدهم هو اتباع خطاهم، واقتفاء أثرهم، وإكمال مسيرتهم، والاهتداء بثاقب بصرهم. وهذا ما عُنِيَتْ به تلك الدراسة، فلم تقف عند منتهى عمل السابقين، بل شيدت على أساس بنيانهم، في محاولة لعلو صرحهم الذي شيدوا، وإكمال سطورهم التي بمداد عقولهم رسموا، وعلى صفحات عصرهم نقشوا.

وذلك وفق قواعد مقررة، وأصول مفعلة، قد استقرأت أجزاءها، وجمعت شتاتها، وأعدت نظمها؛ لتكون نبراسا متبعا في دراسة أي لبنة قرآنية، قد وسمها الحق سبحانه وتعالى بكونها عربية [1].

وأولي تلك القواعد: أن اللبنة القرآنية لا بد أن تفهم في ضوء لغتها التي بها نزلت، ووفق استعمالات لسانها الذي يفصح عن مرادها، ويعرب عن هدفها، ويترجم رسالتها، وقد تقرر من التأصيل اللغوي: أنه لا مناص من تفعيل الدلالة اللغوية، وأخذها بالاعتبار، وتوظيف الاستعمالات العربية ووضع استصحابها في الحسبان، وتبين منها أنه قد ارتبطت مادة (ق س م) دلالة بمعنى التجزئة والتفريق، وأنيطت استعمالا بمعنى الحسن والجودة، وعلقت وضعا بأهم مظاهر الجمال الحسية، وأشد الخطوب الجلية، وكثر ورودها فيما هو محل تحقيق مصلحة، ومقام إنشاد فائدة، وموطن رجاء نفع، ومحط ترقب عطاء.. إلخ.

ومن ثُمَّتْ فأسلوب القسم منوط بمعظم وملزم، فمادته استعملت في الأمور التي لها من الحرمة والعظمة ما لها، كما تجلى أن ما تعلقت به تلك المادة جار نافذ بلا رجعة فيه، أو تردد، فهو إلزام يتم به أصعب الأمور حتى زهق الأرواح قتلا. كما أن التعبير بتي [2] المادة من شأنه إماطة اللثام عن شديد وقع القسم، وارتسام ما ينبغي أن يقابل به، لاسيما وأنه شأن جاهلي كان معلوما مشهورا، ومحل رضا واقتناع، وفعل كانوا يفعلونه في الظروف والخطوب العظام، كما أنبأ مدلول: (حصاة القسم)، فمبناه الرضا بمقتضاه، كما أنه وصف لجماعة يقسمون على الشيء ويشهدون، وإليهم ينسب يمين القسامة.. إلخ. وليس هذا فحسب بل إن عماد هذا الأسلوب: الإحكام والإتقان، الذي ينبغي أن يقابل بالتسليم والإذعان؛ فلله دَرُّ نظم القرآن!.

تذييل: العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي:

قلت: تبين مما سبق: أن المعنى الاصطلاحي نابع من التحقيق اللغوي، ومبني عليه لا محالة؛ إلا أن الحد الاصطلاحي هو جزء من الحقيقة اللغوية، وأحد مطاويها، وأشهر استعمالاتها، وينفرد التحقيق اللغوي بمزيد بيان، وضرب تفصيل مسهم في الكشف عن حقيقة الكلمة، والإعراب عن خصائصها، وارتسام صورها، واستحضار ملابساتها، موغلا في التعريف بها شكلا وموضوعا، مجليا سر تسميتها.. إلخ، كما قد تقرر.

هذا، وقد دلت مادة (ق س م) بمكنونات طياتها على معنى التجزئة، وإفراز النصيب، وتوزيع الحقوق على أربابها، بشكل ملزم، وعلى نحو مقرر، فهذه أولى غايات فعل القَسْم. كما أن القَسَم اصطلاحا يقتضي توجه النفس نحو أمر معين مع العزم على إمضائه، وربطها بما يوجب إتيانه، بمعنى معظم عندها. وعليه فالمراد من القسم: تأكيد المقسم عليه، فهو بمثابة النصيب المفرز، كما أنه محط القضية المعالجة الذي يتم التمهيد لها بالمقسم به: فعلًا، وبينةً عليه، وتقريرًا له، هذا مع التنويه بمكانة المقسم به،

---

[1] ينظر: المفردة القرآنية في نظم الجملة الحالية في سورة البقرة "دراسة تفسيرية تحليلية"، لـ د/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد: صـ 47 وما بعدها. ووصف (عربي) في النظم القرآني: صـ 613- 646.

[2] هو اسم إشارة يشار به إلى المؤنث.

وتقرير كونه معظما، ومحل عناية واهتمام، وغير ذلك مما توفر له في ذاته من خصائص عظام، فضلا عن شدة الحاجة إليه؛ لاجتلاء المقسم عليه؛ لكونه بينته، ومرآة برهان تحققه، وشاهد تأكد خبره، وآية صدق واقعه؛ كما سيتجلى.

المبحث الثاني

التعريف بسورة العصر وبيان القضايا التي تستهدف تقريرها إجمالا

المطلب الأول

بطاقة تعريفية بسورة العصر

قبل البدء في تناول أسلوب القسم الذي انطوت عليه سورة (العصر)؛ أقدم بين يدي الدراسة بطاقة تعريفية بها، تتضمن إلقاء الضوء على اسمها، وزمان ومكان نزولها، وموقعها ومناسبتها لسياقها، ملوحة من وراء ذلك بأبرز أجوائها، وأهم ملابساتها.

أولا: اسم السورة:

قال الإمام ابن عاشور: " (سورة العصر) وكذلك تسميتها في مصاحف كثيرة، وفي معظم كتب التفسير. وسميت في بعض كتب التفسير، وفي (صحيح البخاري) [1] سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [2] بإثبات (الواو) [3] على حكاية أول كلمة فيها، أي: سورة هذه الكلمة " [4]. **وقال الإمام محمد سيد طنطاوي:** "سورة (العصر)، وتسمى سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ " [5].

هذا، وسوف أرجئ بيان حقيقة اسمها، وسبب تسميتها؛ لأنه أحد لبنات نظم أسلوب القسم التي سأتناولها في الجانب التطبيقي- إن شاء الله تعالى-.

ثانيا: زمكان [6] نزول السورة:

ظهر باستقراء نصوص السادة المفسرين أن الكثيرين منهم يقولون بمكية السورة الكريمة؛ حتى اقتصر بعضهم على هذا الرأي، ولم يتعرضوا لسواه. وحكى بعضهم قولين: الأول بمكيتها، والثاني بمدنيتها دون ترجيح. وذكر فريق ثالث الوجهين مرجحا القول بمكيتها، وهذا إجمال، تفصيله فيما يلي:

الفريق الأول: القائلون بمكيتها، ولم يصرحوا بغيره، منهم: **الزجاج؛ حيث قال:** "سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ مكية " [1].

---

[1] صحيح البخاري: 177/6.

[2] مثل: تفسير عبد الرزاق: 458/3. معاني القرآن وإعرابه: 359/5. تفسير ابن زمنين: 161/5. تفسير ابن فورك: 3/ 269. الهداية: 8423/12. تفسير القرطبي: 178/20. أنوار التنزيل: 336/5. تفسير ابن عرفة: 4/ 346. نكت وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس البسيلي: 3/ 649. حاشية الشهاب: 8/ 394. مراح لبيد: 2/ 660. تفسير المنار: 11/ 416. تفسير السعدي: صـ 934. الروايات التفسيرية في فتح الباري: 1393/3.

[3] **وقد ذكر الإمام الطبري الاسمين؛ فقال في بداية تفسير السورة:** "تفسير سورة (العصر)". جامع البيان، للطبري: 587/24. **وقال في ختامها:** "آخر تفسير سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ". جامع البيان: 591/24. ومثله الإمام الرازي؛ إذ قال عند تفسيرها: "سورة (العصر)". تفسير الرازي: 277/32. ثم قال في غير موضع: "شرف أمته في سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ " . تفسير الرازي: 309/32.

[4] التحرير والتنوير: 527/30.

[5] التفسير الوسيط: 499/15 بتصرف يسير.

[6] **قلت:** (الزمكان): مصطلح علمي فيزيائي، وهي يشير إلى أن الزمان والمكان بعد واحد لا ينفكان، وكان هذا أساسَ اعتماد آينشتاين في نظرية النسبية، بل وأحد معطياتها، ويجمعهما لفظ واحد (زمكان). وهذا في حقيقة الأمر مبدأ قرآني، ولا يقال عنه: إنه سبق علمي. والآيات المؤكدة لذلك أكثر من أن تحصى، وأقرب شاهد عليه هو الآية التي معنا، فالقسم بالعصر، إذا كان معناه: الدهر، فهو يتكون من أزمان سابقة، وكائنة، ومستقبلة، ولا يتسنى وجود الزمان بلا مكان، بل إن تعدد الأوقات، وتعاقب الأيام، هو في ذاته نتيجة حركة الأرض أمام محورها حول الشمس، مما ينشأ عنه الليل والنهار، اللذان هما الوحدة المتعارف عليها في تكوين العصر. فحركة الأرض تمثل البعد المكاني، وتعاقب ظرفا الليل والنهار الناشئ عنها اللازم منها، يمثل البعد الزماني، ولا يتصور بحال الانفكاك بينهما، على نحو قد قررته بالتفصيل في مُؤَلَّفٍ قيد الطباعة والنشر.

وقال السمر قندي: " ثلاث آيات مكية " [2]. **وقال ابن زمنين**: " سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ وهي مكية كلها " [3].

وقال الثعلبي: " مكّيّة، وهي ثمانية وستون حرفا، وأربع عشرة كلمة [4]، وثلاث آيات" [5]. **وقال السيوطي**: " مكية وآياتها ثلاث، عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: نزلت سورة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ بمكة " [6].

وعلى هذا سار جُلُّ السادة المفسرين، كالأئمة: مكي بن أبي طالب، والواحدي، والزمخشري، وابن عطية، والرازي، والبيضاوي، وابن كثير، والثعالبي، والإيجي، وأبي السعود، ومراح لبيد، والمراغي، والسعدي، وعبد الكريم الخطيب، وأ.د/وهبة الزحيلي [7].

الفريق الثاني: الذاكرون الوجهين دون ترجيح، ومنهم الإمام: الماوردي؛ حيث قال: " هي مكية، وفي إحدى الروايتين عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعن قتادة: أنها مدنية " [8]. **وتبعه الأئمة**: البغوي، والقرطبي، وابن عادل، والخطيب الشربيني، وإسماعيل حقي، والشوكاني، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور [9].

الفريق الثالث: مَنْ ذكروا الوجهين مرجحين، **ومنهم**: **الإمام سيد طنطاوي؛ حيث قال**: " سورة (العصر) من السور المكية عند جمهور المفسرين، وكان نزولها بعد سورة (الانشراح)، وقبل سورة (العاديات)؛ فهي السورة الثالثة عشرة في ترتيب النزول. وقيل: هي مدنية، والمعول عليه الأول؛ لأنه المنقول عن ابن عباس وابن الزبير وغيرهما رضي الله تعالى عنهم، وعدد آياتها ثلاث آيات " [10]. **وقيل انتصارا لوجه مكيتها**: " وأسلوبها يدل على أنها من أوائل السور نزولا، مثل: (الليل)، و(الأعلى)، وغيرهما؛ لأنها

---

[1] معاني القرآن وإعرابه: 359/5.

[2] تفسير السمر قندي: 615/3.

[3] تفسير ابن زمنين: 161/5.

[4] **قلت**: وعبارة: (أربع عشرة كلمة) قد ذكرت في كثير من المصادر، ولا أعلم على أي أساس عَدَّ علماؤنا كلمات السورة، فمن المسلم به: أن الكلمة تنقسم **إلى**: اسم، وفعل، وحرف، والحرف: إما مبنى، أو معنى. وعلى هذا فعدد كلمات السورة ليس أربع عشرة كلمة، بل إحدى وعشرون كلمة، بيانها كالتالي: (واو القسم، العصر، إن، الإنسان، اللام الداخلة على الخبر، في، خسر، إلا، الذين، آمنوا، واو العطف، عملوا، الصالحات، واو العطف، تواصوا، الباء، الحق، واو العطف، تواصوا، الباء، الصبر)، فنظمت من: (عشرة كلمات حرفية)، و(سبع كلمات اسمية)، و(أربع كلمات فعلية).

هذا، ولا وجه لعد علمائنا الأجلاء إلا أنهم قد اعتبروا الاتصال في شكل الكلمة؛ فاعتبروها وما اتصل بها أمرا واحدا، على النحو التالي: (والعصر، إن، الإنسان، لفي، خسر، إلا، الذين، آمنوا، وعملوا، الصالحات، وتواصوا، بالحق، وتواصوا، بالصبر)، وهذا أمر محل استدراك؛ لكونهم اعتبروا الاتصال الشكلي، ولم يعتبروا الانفصال معنى ودلالة، وهو المعول عليه: واقعا، وشرحا، وتفسيرا. والله تعالى أعلم.

[5] الكشف والبيان: 283/10.

[6] الدر المنثور: 621/8 بتصرف.

[7] ينظر: الهداية: 8423/12. التفسير الوسيط: 551/4. الكشاف: 793/4. تفسير ابن عطية: 520/5. مفاتيح الغيب: 277/32. أنوار التنزيل: 336/5. تفسير القرآن العظيم: 479/8. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي: 625/5. تفسير الإيجي: 527/4. إرشاد العقل السليم: 197/9. مراح لبيد: 660/2. تفسير المراغي: 221/30. تفسير السعدي: صـ 934. التفسير القرآني للقرآن: 1667/16. التفسير المنير: 390/30.

[8] النكت والعيون: 333/6 بتصرف يسير. **وقال أبو حيان**: " هذه السورة مكية في قول ابن عباس وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم والجمهور، ومدنية في قول مجاهد، وقتادة، ومقاتل " . البحر المحيط: 538/10 بتصرف يسير.

[9] ينظر: معالم التنزيل: 302/5. تفسير القرطبي: 178/20. اللباب: 483/20. السراج المنير، للخطيب الشربيني: 583/4. روح البيان: 505/10. فتح القدير: 600/5. روح المعاني: 457/15. محاسن التأويل: 535/9. التحرير والتنوير: 527/30.

[10] التفسير الوسيط: 499/15 بتصرف يسير.

احتوت مبادئ عامة محكمة من مبادئ الدعوة. وقد ذكرت بعض الروايات: أنها مدنية، غير أن أسلوبها يدل على مكيتها، وهو ما عليه الجمهور " [1].

وجدير بالذكر: أن هناك مَنْ لم يتناول تلك القضية صراحة إلا أنه انتصر لها في ثنايا تفسير السورة، وتعينت من توجيه كلامه.

وفي هذا الشأن قال الإمام الماتريدي متسائلا ومجيبا: "لقائل أن يقول: كيف استثنى أهل الربح من أهل الخسران، ولم يستثنِ أهل الخسران من أهل الربح؟! فيقول: (إن الإنسان لفي ربح إلا الذين كفروا)، واستثناء هذه الفرقة من تلك أولى في العقول من تلك؟! **والجواب عن هذا**: أن هذه الآية إنما نزلت بقرب من مبعث رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، والقوم بأجمعهم كانوا أهل كفر وخسار، فلذلك؛ وقع الاستثناء على ما ذكر؛ إذ استثناء القليل من الكثير هو المستحسن عند أهل اللغة، وإن كان القسم الثاني في حد الجواز، والقرآن في أعلى طبقات الكلام في الفصاحة " [2].

قلت: فاتضح موقف الإمام في الذهاب إلى مكيتها: قولا، وفعلا. أما حيثية القول بذلك، فهو مما لا يخفى، بل تبادر تعينه عنده؛ إذ إن قوله: "نزلت بقرب من مبعث النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم" صريح في الدلالة على مكيتها. وأما حيثية فعله، فقد دل على ذلك بما لا غاية وراءه؛ لكونه وجَّه النظم عليه، وفهم السياق في ضوئه، وفَعَّلَ فيه أثره.

هذا، ويفهم من صنيع ابن عاشور ترجيحه؛ إذ يقول: " هي مكية في قول الجمهور، وإطلاق جمهور المفسرين. وعن قتادة ومجاهد ومقاتل: أنها مدنية. وروي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، ولم يذكرها صاحب (الإتقان) في عداد السور المختلف فيها. وقد عدت الثالثة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة (الانشراح)، وقبل سورة (العاديات). وهي إحدى سور ثلاث هن أقصر السور عدد آيات: هي، و(الكوثر)، و(النصر) " [3].

قلت: فقد بدا ترجيحه في كونه أسند القول بمكيتها إلى الجمهور، وجعله إطلاق جمهور السادة المفسرين، لاسيما وقد حكى وجه مدنيتها بصيغة التمريض؛ مما يوحي بضعفه، ويعرِّض بقبوله تارة، ويقرر بمفهومه القول المقابل تارة أخرى.

ثالثا: موقع السورة ومناسبتها لسياقها:

عند بيان موقع السورة لابد من الحديث عن مناسبتها لما قبلها، ولما بعدها على السواء، فموقعها يقتضي إبراز مجموع سياقها: سباقا ولحاقا.

أما السباق فقال الإمام أبو حيان مبينا وجه التناسب: " لما قال فيما قبلها: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1]، ووقع التهديد بتكرار: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: 3]؛ بَيَّنَ حال المؤمن والكافر " [4].

وقال الإمام البقاعي: " قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر: 1]، وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان، وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه، وذلك؛ لبعده عن العلم بموجب الطبع ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]؛ أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان؛ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1، 2]، فالقصور شأنه، والظلم طبعه، والجهل جبلته، فيحق أن يلهيه التكاثر، ولا يدخل الله تعالى عليه روح الإيمان " [5].

---

[1] التفسير الحديث، لدروزة محمد عزت: 561/1.

[2] تفسير الماتريدي: 611/10 وما بعدها بتصرف يسير.

[3] التحرير والتنوير: 527/30 بتصرف يسير.

[4] البحر المحيط: 538/10.

[5] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي: 22 / 237 وما بعدها بتصرف.

وقال الإمام الألوسي: " فيها إشارة إلى حال مَنْ لم يلهه التكاثر [1]، ولذا؛ وضعت بعد سورته " [2]. **وقال الإمام المراغي**: " وجه المناسبة بينها، وبين ما قبلها: أنه لما ذكر هناك الجزاء على الخير والشر؛ أتبعه تعنيف الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ولا يستعدون لحياتهم الثانية، بتعويد أنفسهم فعل الخير " [3].

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب مصرحا: " مناسبتها لما قبلها: أن الإنسان الذي ألهاه التكاثر بالأموال، والتفاخر بالجاه والسلطان، دون أن يتزود للآخرة بزاد الإيمان والتقوى، هو هذا الإنسان الخاسر. وأي خسران أكثر من أنه اشترى الدنيا بالآخرة؟ وهذا ما جاءت سورة (العصر)؛ لتقرره " [4].

قلت: سورة (التكاثر) فيها أحداث وملابسات تقع من الإنسان، وتلك الأحداث حتى تقع؛ لا بد لها من ظرف لتقع فيه، وهذا الظرف يشمل أمرين: المكان، والزمان، ولعدم تصور افتراقهما ظهر مصطلح (الزمكان)؛ لكونهما يمثلان معا بعدا واحدا، وهذا البعد هو ما تعالجه سورة (العصر)، وكأن الحق جل جلاله يلفت أنظار عباده إلى أنه قد خلق البشر، وخلق ظرف وجودهم؛ فكان ينبغي أن تكون حركاتهم وفقا لأمر خالقهم عز وجل؛ لكونهم هم وظرف حركاتهم الصادرة عنهم، لله تعالى خلقا، وملكا، وتصرفا، فكيف يكون المظروف والظرف لله تعالى ويحدث منه وفيه ما هو على خلاف أمره؟!

لذا يتجلى وجه التناسب في كون الأولى ذكرت الحركات الصادرة عن البشر، والثانية ذكرتهم بظرف تلك الحركات، لافتة الأنظار لما فيه من تدبير وإبداع في كل من الظرف والمظروف، يصرخ بوجود إله خالق قادر مريد حكيم.

كما أن الأولى قد نظمت ملامح الخسران، وسطرت أبرز مظاهره، وأعلنت أقوى بواعثه، والثانية سجلته واقعا فعليا، وحدثا تقريريا، وكأنها نتيجة حتمية بنيت على مقدماتها المقررة، ورتبت على مظاهرها الواقعة، وملامحها المعاينة؛ تحقيقا لوقوعها. **هذا بالنسبة إلى السباق**.

أما اللحاق: **فقال الإمام البقاعي مقررا وجه التناسب**: " لما بين الناجين من قسمي الإنسان في (العصر)، وختم بالصبر؛ حصل تمام التشوف إلى أوصاف الهالكين؛ فقال مبينا لأضلهم، وأشقاهم الذي الصبر على أذاه في غاية الشدة؛ ليكون ما أعد له من العذاب مسلاة للصابر: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: 1]. وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: لما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 2]؛ أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره، وظنه الكمال لنفسه؛ حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال؛ ظنا أنه يخلده، وينجيه، وهذا كله هو عين النقص، الذي هو شأن الإنسان، وهو المذكور في السورة قبل " [5].

قلت: يتلألأ إعجازها في كونها واقعةً بين خسرين، مع مراعاة أنها نتيجة حتمية لما قبلها، وتمهيد بديع لما بعدها، فحصرت بين خسرين: الأول قاد لها، والثاني بين أسوأ أفرادها، وترتب- من وجه- عليها [6]. فكأنها بموقع الاعتراض بين مساقها، فكان لها

---

[1] **قلت**: يشير الإمام إلى مَنْ تحققت فيهم صفات القبول، وهم المعقودون في سلك الاستثناء، المتحلون بأوصاف جملة الصلة وما في حيزها.

[2] روح المعاني: 457/15.

[3] تفسير المراغي: 221/30.

[4] التفسير القرآني للقرآن: 16/ 1667 بتصرف يسير.

[5] نظم الدرر: 243/22 وما بعدها بتصرف.

[6] **قلت**: ومن البليغ: أن السباق قد ذكر ملامح الخسر رؤية ومعاينة للجحيم؛ فقال تعالى: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: 6]. أما اللحاق فقد ذكر ملامحه إصابة بالنار وطرحا في الجحيم؛ فقال سبحانه: ﴿كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ [الهمزة: 4]. " أي: ليطرحن في النار بعد موته؛ جزاء له على اغتراره وطعنه، طرح ما هو خفيف هين جدا على كل طارح؛ كما دل عليه التعبير بالنبذ " . نظم الدرر: 244/22- 246 بتصرف. لأن النبذ "الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره ". التحرير والتنوير: 540/30. ومن المعلوم: أن الثاني أشنع من الأول؛ فروعي في النظم الترقي المثمر، والإعجاز المحقق، وفق سبك رصين، وإحكام متين.

من بلاغته، وفوائده لاسيما تأكيدها مضمون ما قبلها وتقريره، والتمهيد والتوطئة لما بعدها وتحقيقه، ما لا يَتَأَتَّى إنكاره، ولا يسع المخاطبون إلا الإقرار لجلال سلطانه، والخضوع لبليغ إحكامه! كما أنها بذلك تعد إشارة إلى برهان (إني) بالنظر لما قبلها، وبرهان (لمي) بالنظر للحكم الذي بعدها [1].

المطلب الثاني

القضايا التي تعالجها السورة الكريمة إجمالًا

نزلت سورة (العصر) في العهد المكي، فمن شأنها تصوير حال البيئة الجاهلية آنذاك، فوظيفة القسم الذي أنيطت به، ورسالته التي ابتعث لأجل إبلاغها، لا يمكن أن تترجم إلا في ضوء حال نزول السورة، ومن هنا وجب التنويه بأن أسلوب القسم إنما يستهدف مرامي سورته، ويروم أهداف سياقه، **وهي في المقام الأول**: إصلاح الجانب العقدي الذي بلغت إصابته مبلغا لا يبارى، ووقعا مترديا لا يجارى، كان لا بد من مجابهته بوجوه من الاستدلال، وضروب من التذكير، وأنماط من الامتنان. وعليه فوظيفة القسم الوارد في السورة الكريمة تنقسم إلى وجهين. **أحدهما**: أنه جاء للاستدلال على كبرى القضايا العقدية، لاسيما قضية تقرير الوجود، والوحدانية، وما في نظمها من إثبات صفات الجمال، ونعوت الجلال. ثم الاستدلال على البعث وما يستتبعه؛ باعتبار أنه منوط به الحساب والجزاء على ما تقدم من الأعمال. **الثاني**: أنه جاء لافتا الأنظار إلى ما فيه من منافع جمة، ومصالح محققة؛ وكأنه للامتنان، والتذكير.

قال الإمام البقاعي: " قال الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه: إنها سورة لو لم ينزل إلى الناس إلا هي؛ لكفتهم، وهو معنى قول غيره: إنها شملت جميع علوم القرآن. ومقصودها: تفضيل نوع الإنسان المخلوق من علق، وبيان خلاصته وعصارته، وهم الحزب الناجي يوم السؤال، عن زكاء الأعمال بعد الإشارة إلى أضدادهم، والإعلام بما ينجي من الأعمال والأحوال بترك الفاني والإقبال على الباقي؛ لأنه خلاصة الكون، ولباب الوجود، واسمها (العصر) واضح في ذلك؛ فإن العصر يخلص روح المعصور، ويميز صفاوته، ولذلك؛ كان وقت هذا النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام الذي هو خلاصة الخلق وقت العصر، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات " [2].

قلت: ومن ثَمَّتْ فهي تُعَنْى بالاستدلال على كبرى القضايا العقدية، وتثقيف النفوس بصفات الإله الحق، ضمن الأدلة المتعددة، كدليل: (الخلق والاختراع، والتدبير، والعناية..) إلخ، كما أنها عُنِيَتْ بتقرير البعث، وتوجهت نحو الاستدلال على إثبات صدق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ومواساته هو واتباعه، وحملت في مطاوي نظمها دعائم الامتنان على الإنسان. وشيدت بنيانها على ركائز التربية والإعداد، وقد أدمجت أغراضها بألوان التذكير، وأنماط الوعيد، ومظاهر التسلية والتثبيت، ..إلخ.

وفي هذه المناسبة قال الشيخ الشعراوي: " إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها، وهو الإيمان والعمل الصالح " [3]. فعنيت ببيان أن " مُطلَق الإنسان في خُسْر لا ينجيه منه إلاّ أنْ يتصف بهذه الصفات " [4]. ومن ثَمَّ فقد " استثنى من جنس الإنسان عن الخسران الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا الصالحات بجوارحهم " [5].

كما أنها ركزت على تعريف الإنسان بحقيقة نفسه، من العجز والجهل وسوء الاختيار.. وغير ذلك من أحوال سفلية، وطبائع ظلامية، وجبلات سوداوية؛ مما يتطلب الإرشاد، ويقتضي التوجيه، مع الإيذان بضرورة تدخل العناية الإلهية بمنهج من شأنه تحقيق صلاح حاله، وفلاح مآله، وعليه مدار الرسالات. وعليه فقد عُنِيَتْ السورة ببيان صفات الإله الحق الذي ينشد رقي أتباعه، ويعمل على تخليصهم مما يرديهم، إزاء ما للإنسان من صفات تقوم بإهلاكه، وتقضي على سموه وإشراقه، مقررة صدق

---

[1] **قلت تعليلا**: إنها بمثابة التأكيد لما قبلها (أي: إنية الحكم السابق)، والتعليل للحكم الذي بعدها (أي: لمية الحكم اللاحق).

[2] نظم الدرر: 234/22 بتصرف يسير.

[3] الخواطر: 1665/3.

[4] الخواطر: 10403/17.

[5] تفسير ابن كثير: 8 / 480.

الرسالة ضمن أدلتها السياقية المتوافدة، وقرائنها الحالية المتضافرة، وبدهياتها العقلية المتكاثرة. **وفي هذا الصدد قال الإمام البقاعي مقدرا:** " ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أي: نقص بحسب مساعيهم في أهوائهم، وصرف أعصارهم في أغراضهم؛ لما لهم بالطبع من الميل إلى الحاضر، والإعراض عن الغائب، والاغترار بالفاني. وفي هذا إشارة إلى العلم بالاحتياج إلى إرسال الرسل؛ لبيان المرضي لله تعالى من الاعتقادات والعبادات إيمانا وإسلاما، وإدامة لذلك؛ ليكون فاعله من قبضة اليمين، وتاركه من أصحاب الشمال " [1].

وقال الإمام الألوسي: " هي على قصرها جمعت من العلوم ما جمعت " [2]. **وقال الإمام سيد طنطاوي:** " قد اشتملت على بيان مَنْ هم أهل الخسران، ومَنْ هم أهل السعادة " [3]. **وقيل:** " احتوت السورة توكيدا حاسما بأن لا فلاح للإنسان إلّا بالإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق وبالصبر " [4]. **قلت:** وسوف يأتي تفصيل إجمالات تلك النقول عند بيان مناسبة أسلوب القسم للقضايا التي تُعْنَى بإثباتها السورة في المبحث الأخير- إن شاء الله تعالى-.

الفصل الثاني

سبائك أسلوب القسم في نظم السورة

المبحث الأول

السبيكة الأولى: فرائد المقسم به

صدرت السورة الكريمة بالقسم، واختير في المقسم به (العصر) دون ما عداه، وخصص المقسم عليه بكون الإنسان خاسرا مستثنية من عموم جنسه فريقا قد اتصف بصفات، نظمتها جملة الصلة في قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وما عطف عليها داخلا في حيزها، مقدمة بلفظها ومعناها حيثيات هذا الاستثناء، ومقيمة بالبرهان صحة ما تخبر به. وقد جاء أسلوب القسم في نظمها ضمن سبيكتين: **الأولى:** فرائد المقسم به، **والثانية:** فرائد المقسم عليه. وقد نظمت أولاهما من مفردتين، هما: (واو) القسم، والمقسم به (العصر)، وتتجلى وظيفتهما السياقية، وأسرارها البيانية، ومن ثَمَّ يَتَأَتَّى ترجمة رسالتهما الإلهية ضمن المطلبين التاليين.

المطلب الأول: المفردة الأولى (واو القسم): خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية:

اتسم أسلوب القسم القرآني بخصائص كثيرة، يتصدرها جميعا أنه في غالب الأحوال، وكثير من السياقات، يأتي مكونا من حرف القسم (الواو)، والمقسم به، والمقسم عليه. وقد تمخض[5] هذا التركيب عن حذف فعل القسم، وحرف القسم الأصلي (الباء) الذي يتعدى به، واستعيض عنهما بـ (الواو).

---

[1] نظم الدر: 237/22 بتصرف.

[2] روح المعاني: 457/15.

[3] التفسير الوسيط: 499/15.

[4] التفسير الحديث: 561/1 بتصرف يسير.

[5] **قال الخليل:** " المِخِيضُ: ما قد أخذ زبده، والمخض: تحريكك المِخْضَ، وهو الذي فيه اللبن. ويستعمل المَخْضُ في أشياء كثيرة نحو السحاب يَتَمَخَّضُ بمائه. والدهر يتمخَض بفتنهِ. والتَّمُّخضُ: التحرك. والإمخاضُ: ما اجتمع من الألبان؛ حتى صار وقر بعير. والمِسْتَمْخِضُ من اللبن: البطيء الروب، وإذا راب ثم مَخَضْتَهُ؛ فعاد مَخْضا، فهو المِسْتَمْخِضُ، وذلك أطيب الألبان " . العين (م خ ض): 180/4 وما بعدها بتصرف.

وعند ابن فارس: "يُقَالُ لِلسِّقَاءِ؛ إِذَا تَمَخَّضَ: قَدْ جَاءَ أَتْوُهُ " . مقاييس اللغة (أ ت ى): 50/1. **قلت:** وهذا يتسق مع كون أسلوب القسم قد اختير بعناية فائقة، وأخذ زبده، وانتقت عصارته.

وفي هذه المناسبة قال الإمام أبو البركات الأنباري متسائلا، ومجيبا: " إن قال قائل: لِمَ حذف فعل القسم؟ قيل: إنما حذف فعل القسم؛ لكثرة الاستعمال. فإن قيل: فَلِمَ قلتم: إن الأصل في حروف القسم (الباء) دون غيرها، يعني: (الواو)، و(التاء)؟ قيل: لأن فعل القسم المحذوف فعل لازم، ألا ترى أن التقدير في قولك: "بالله لأفعلنَّ: أقسم بالله، أو أحلف بالله"، والحرف المعدي من هذه الأحرف هو (الباء)؛ لأنَّ (الباء) هو الحرف الذي يقتضيه الفعل، وإنما كان (الباء) دون غيره من الحروف المعدِّية؛ لأنَّ معناها الإلصاق؛ فكانت أولى من غيرها؛ ليتصل فعل القسم بالمقسم به مع تعديته، والذي يدلُ على أنها هي الأصل: أنها تدخل على المضمر والمظهر، و(الواو) تدخل على المظهر دون المضمر، و(التاء) تختص باسم الله تعالى دون غيره، مما يدل على أن (الباء) هي الأصل. فإن قيل: فَلِمَ جعلوا (الواو) دون غيرها بدلا من (الباء)؟ قيل: لوجهين: **أحدهما:** أنَّ (الواو) تقتضي الجمع [1]، كما أنَّ (الباء) تقتضي الإلصاق، فلما تقاربا في المعنى؛ أُقيمت مقامها. **والثَّاني:** أن (الواو) مخرجها من الشفتين، كما أنَّ الباء مخرجها من الشفتين، فلما تقاربا في المخرج؛ كانت أولى من غيرها.. " [2]. هذا خلاصة الموقف النحوي إزاء هذا التركيب.

مبنى أسلوب القسم وخصائصه:

وقبل بيان فرائد المقسم به، أُنَوِّهُ بأن ثُمَّتْ أمورا لابد من إلقاء الضوء عليها، وهي في بيان تتمات تتعلق بالحذف؛ لكون أسلوب القسم مبنيا عليه، مختصا به؛ خلوصا إلى إثبات أثره التفسيري في السياق القرآني.

وأولى تلك الأمور: أن " الحذف خلاف الأصل " [3]، كما هو المفهوم من المحبوبي [4] صاحب (التوضيح) [5]، والمصرح به في (التلويح) [6]. **وفي هذه المناسبة قال الإمام الزركشي:** " والحذف خلاف الأصل، وعليه ينبني فرعان. **أحدهما:** أنه إذا دار الأمر بين الحذف وعدمه؛ كان الحمل على عدمه أولى؛ لأن الأصل عدم التغيير. **والثاني:** أنه إذا دار الأمر بين قلة المحذوف، وكثرته؛ كان الحمل على قلته أولى " [7].

ومنها: أنه " لابد في كل حذف من وجود داع يدعو إليه، يجعل الحذف أبلغ من الذكر " [8]. كما أنه لا بد من وجود دليل يدل على المحذوف. **ومن ثَمَّ قال ابن الشجري** [9]: " ولما كان الحذف بهذه المثابة؛ فقد أجمعوا على أنه لا يصار إليه، ولا

---

[1] **قلت:** والجمع أمر مراد، وشأن متعين، يسهم في توجيه أسلوب القسم، ويمد بآلية فهمه، ويوطئ لإمكان ترجمة رسالته؛ كما سيأتي.

[2] **ثم أكمل كلامه قائلا:** " فإن قيل: فلِمَ اختصت (الواو) بالمظهر دون المضمر؟ قيل: لأنها لَمّا كانت فرعًا على (الباء)، وهي تدخل على المظهر والمضمر؛ انحطّت عن درجة (الباء) التي هي الأصل، واختصّت بالمظهر دون المضمر؛ لأنَّ الفرع –أبدًا– ينحط عن درجة الأصل " . أسرار العربية، لابن الأنباري: صـ 203 وما بعدها بتصرف.

[3] أمالي ابن الشجري: 82/1.

[4] **هو:** " عبيد الله بن مسعود بن محمود بن أحمد المحبوبي البخاري الحنفي، صدر الشريعة الأصغر بن صدر الشريعة الأكبر، من علماء الحكمة والطبيعيات وأصول الفقه والدين، له كتاب (تعديل العلوم)، و(التنقيح) في أصول الفقه، وشرحه (التوضيح)، و(شرح الوقاية) لجده محمود، في فقه الحنفية، و(النقاية مختصر الوقاية)، و(الوشاح) في علم المعاني، توفي في بخارى عام (743 هـ)". الأعلام، للزركلي: 197/4 وما بعدها بتصرف يسير.

[5] ينظر التوضيح في حل غوامض التنقيح، لصدر الشريعة الأصغر عبيد الله بن مسعود المحبوبي البخاري الحنفي: 182/1.

[6] ينظر شرح التلويح على التوضيح، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني: 182/1.

[7] البرهان في علوم القرآن: صـ 686.

[8] الموسوعة القرآنية المتخصصة، لمجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين: صـ 478 بتصرف. وينظر خصائص التعبير القرآني، لـ أ.د/ عبد العظيم المطعني: 6/2.

[9] **هو:** " هبة الله بن علي بن محمد الحسني، أبو السعادات الشريف المعروف بابن الشجري، من أئمة العلم باللغة والأدب وأحوال العرب، مولده ووفاته ببغداد، من كتبه: (الأمالي)، و(الحماسة)، و(ديوان مختارات الشعراء)، و(ما اتفق لفظه واختلف معناه)، و(شرح اللمع لابن جني)، وكان حسن البيان، حلو الألفاظ، نسبته إلى (شجرة)، وهي قرية من أعمال المدينة، (ت: 542هـ)". الأعلام: 74/8

يستحسن إلا باجتماع شيئين. **الأول:** أن تدعو إليه ضرورة فنية، مبناها على ما اختُصَّت به العربية من الإيجاز، وطرح فضول الكلام، والاكتفاء باللمحة الدالة، وطلب الخفة واليسر؛ رعاية للانسجام الصوتي في بعض أنواع الكلمة والكلام، ثم من قبل كل ذلك ومن بعده، إمتاع الذهن بما تذهب إليه النفس في تقدير المحذوف، والمطوي في أثناء الكلام. **والثاني:** أن يدل على المحذوف دليل " [1].

إجمال أسباب الحذف القرآن الكريم، وأدلته: هذا، ويمكن إجمال أسباب الحذف في القرآن الكريم فيما يلي:

1 – " الاختصار، والاحتراز عن العبث؛ لظهور " [2]. " وكونه لا يصلح إلا له " [3]. قلت: وفيه الاعتبار لعقول المخاطبين ما لا يخفى، وهذا السبب يتحقق في كل حذف في الكتاب العزيز. **قال أ.د/ محمد عبد المنعم خفاجي:** "والاختصار نكتة لفظية موجبة للحذف؛ فرارًا من العبث " [4].

2 – " التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف، وأن الاشتغال بذكره يفضي إلى تفويت المهم " [5].

3– مراعاة السياق بأن يكون مقتضاه الاختصار [6]. **قال الإمام عبد القاهر الجرجاني:** " فما من اسم، أو فعل تجده قد حذف، إلا وأنت تجد حذفه أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى، وآنس من النطق به " [7].

4 – " التخفيف؛ لكثرة دورانه في الكلام " [8]. "واكتفاء بعلم المخاطب" [9]. كما يحقق هذا الحذف " الفراغ بسرعة للوصول إلى المقصود " [10].

5 – " شهرته حتى يكون ذكره وعدمه سواء، وهو نوع من دلالة الحال التي لسانها أنطق من لسان المقال " [11]. **قال الزمخشري:** "ونحو هذا الإضمار– أعني: إضمار ما لم يسبق ذكره [12] – فيه فخامة لشأنه؛ حيث يجعل لفرط شهرته؛ كأنه يدل على نفسه، ويكتفى عن التصريح بذكر شيء من لوازمه " [13].

6 – " ظهور المعنى " [1]. **قال الفراء:** " إذا كان المعنى معلوما؛ طُرِحَ منه ما يردُّ الكلام إلى الإيجاز" [2]. ومن ثَمَّ "فيحسن الحذف ما لم يشكل به المعنى؛ لقوة الدلالة عليه " [3]. وغيرها كثير [4]. هذا بالنسبة إلى أسباب الحذف.

بتصرف يسير.

[1] أمالي ابن الشجري: 82/1 وما بعدها بتصرف يسير. وينظر البلاغة العربية، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي: 43/2.

[2] البرهان في علوم القرآن: صـ 687. الإتقان: 145/3. وينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي: 337/2. علوم البلاغة، لأحمد بن مصطفى المراغي: صـ 185. المنهاج الواضح للبلاغة، لحامد عوني: 135/2. البلاغة العربية: 40/2.

[3] البرهان في علوم القرآن: صـ 689.

[4] الإيضاح في علوم البلاغة، للقزويني: 3/ 187.

[5] البرهان في علوم القرآن: صـ 687 بتصرف يسير. ينظر: الإتقان: 145/3. البلاغة العربية: 41/2. بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، لـ أ.د/فاضل = صالح السامرائي: صـ 13.

[6] ينظر بلاغة الكلمة: صـ 13.

[7] دلائل الإعجاز في علم المعاني، لعبد القاهر الجرجاني: صـ 152 بتصرف.

[8] الجملة العربية تأليفها وأقسامها، لـ أ.د/ فاضل صالح السامرائي: صـ 96.

[9] الكتاب، لسيبويه: 345/2. وينظر البلاغة العربية: 42/2.

[10] الجملة العربية تأليفها وأقسامها: صـ 103 بتصرف يسير.

[11] البرهان في علوم القرآن: صـ 689 بتصرف. وينظر الإتقان: 146/3.

[12] تصرَّف من الباحثة.

[13] الكشاف: 169/1 بتصرف.

وأما أدلة الحذف: فتتنوع ما بين الدلالة اللفظية، والدلالة العقلية، والدلالة الحالية؛ فتفهم إما من قرائن المقال الموجودة في السباق، أو في السياق، وإما من قرائن الحال، وإما أن تكون من المفاهيم الفكرية، والاقتضاءات العقلية، واللوازم الذهنية [5]، وهذا كثير في القرآن الكريم، وقد أفاض السادة المفسرون والعلماء في بيانه مقرونًا بأدلته في مواقعه من الكتاب العزيز [6]. لذا فالدليل هنا معلوم، لأنه شأن بدهي، يفهم من السياق الكلامي، وفقا لقواعد اللسان العربي.

دلالة حذف فعل القسم وفاعله، وأثره التفسيري في النظم القرآني:

قلت: وقد أثمر هذا الحذف أثرا تفسيريا بعيد المدى، وهدفا سياقيا بديع الصدى؛ إذ بتسليط الأسباب السابقة على السياق؛ يعلم يقينا أنها جميعا تتوفر في حذف فعل القسم وفاعله بوجه أو بآخر، لكونه معلوما، ظاهرا، مشتهرا؛ مما يدعو إلى حذفه، وعدم الاشتغال بذكره، لاسيما وأن الشيء إذا صار معلوما؛ كان ذكره فضولا ينأى عنه الكلام، فما بالنا ببيان الرحمن سبحانه جَلَّ عن الأنام!.

كما أن الحذف بتلك الأسباب التي أثمرته قد تناغم مع المقام، واستجاب لمقتضى الحال؛ لكونه في بيان قضية معلومة مشتهرة، أعني: (خسر الإنسان)، ورغم ظهورها جاء السياق مستدلا عليها بقسم يقررها، وبينة يقيمها على صحة دعواها، أعني: (العصر) كما سيتقرر. فالحال كله محوط بالمعلومية، والظهور، والبيان.

كما اتسق الحذف مع طبيعة الأسلوب الذي نظمه؛ لأن القسم من شأنه- اسما، وعملا- الظهور، والتأكيد، والتقرير، وإقامة الحجة.. إلخ. كما أومأ إلى أن القسم من الرحمن جل جلاله فعل عظيم، وشأن جليل، وكذلك حال المحذوف يحذف؛ تعظيما له، وتنويها بشأنها؛ تمهيدا لبيان أنه يجب أن يتلقى بالقبول والإذعان، لا بالإعراض والنكران.

وليس هذا فحسب؛ بل قد أسهم هذا الحذف بدوره في توجيه الأذهان نحو المقسم به، والمقسم عليه، وتفريغ الساحة لهما؛ لينصب عليهما الجهد الفكري، والتوجه العقلي؛ بحثا عن العلاقة بين الركنين، وتشوقا للحصول على وجه التناسب في السبكين، والوقوف على طبيعة الوظيفة التي يقدمها كل منهما؛ ليتسنى فهم رسالة هذا الأسلوب الإلهي على آكد وجه، وأبلغ بيان. وبذلك يتحقق سبب الحذف من الفراغ بسرعة للوصول إلى الهدف المقصود، وبلوغ حقيقة الرسالة الإلهية المنشودة.

وحري بالذكر: أن هناك أسبابا أخرى اقتضت الحذف، منها: الاختصار، والاحتراز عن العبث، والتخفيف، والاكتفاء بعلم المخاطب. وفي تلك الأسباب ما يوحي ببلاغة أسلوب الحذف الذي بُنِيَ عليه القسم؛ إذ إن السياق يُعْنَى بوظيفة سماوية، ومنوط به إبلاغ رسالة إلهية، فكان من البديع أن ينصب على مقصوده سالكا أيسر السبل، منشغلا بالأهم، معنِيًّا بالمجدي نفعا، والمثمر أثرا؛ مما دعا للحذف؛ تحقيقا للاختصار، وتنزُّها عن العبث، وتخفيفا على المخاطبين؛ لأنه كلما قل الكلام كان بالذهن أعلق، وللعقل أذكر، وللوقوف على الغرض المنشود أسرع.

ومما يشهد لهذا المعنى: أنه قد أوثرت (الواو) في أسلوب القسم بعد حذف فعله وحرفه؛ لكونها تتسم بخصائص كثيرة، منها: الجمع، والضم، والوضوح، والبروز، والقوة.. إلخ؛ مما يُنَوِّهُ بضرورة الجمع بين مربوطيها، ويجعلها من مقتضيات الحال، ومستدعيات السياق، كما سيتقرر.

كما أن الاكتفاء بعلم المخاطبين الذي سبب الحذف فيه تنويه بفهمهم؛ لكونهم أهل البيان، وأصحاب اللسان، فاتسق مع مقتضى الحال لاسيما وأن المقام في إقامة الحجة عليهم، ودحض أعذارهم.

---

(1) الجملة العربية تأليفها وأقسامها: صـ 96.

(2) معاني القرآن، للفراء: 2/ 278.

(3) أمالي ابن الشجري: 84/1.

(4) ينظر أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم "دراسة تفسيرية تحليلية "، لـ د/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد: صـ 25 وما بعدها.

(5) ينظر البلاغة العربية: 43/2.

(6) **على نحو قد فصلته في موضعه**. ينظر أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم: صـ 29– 43.

قلت: وألمح في سببية الاحتراز عن العبث بعدا تفسيريا جليلَ الأثر؛ إذ إن أسلوب القسم أوثر فيه (العصر) كمقسم به، وهو في أحد أشهر معانيه يراد به الدهر- كما سيتجلى-، والقسم به يُنَوِّهُ بتعظيمه، ويرتسم مكانته، وفيه توجيه إلى احترام الوقت، وإنفاقه فيما يحب الله تعالى ويرضى، فكان من باب تعظيمه، وإنفاقه في وجهه: أن لا يفعل فيه ما هو من قبيل العبث؛ ومن ثَمَّ فاتسق سبب الحذف مع مقصود القسم بما لا غاية وراءه، ولا مرمى بعده!.

وكان من هذا القبيل: التنبيه على أن الزمان يتقاصر عن الإتيان بالمحذوف؛ احتراما لبعد الوقت، وتوجها نحو توظيفه فيما هو أولى وأحرى، وبذله فيما هو أجدر وأقضى. وكأن المولى سبحانه وتعالى يدعونا إلى الاقتداء بفعله في كلامه الذي جاء على أكمل وجوه الاحتراز عن العبث، ويرتسمه أمامنا نبراسا نسير في ضوئه، ومنهجا تطبيقيا نعمل بموجبه؛ فما أجملها من تربية إلهية! وما أجلها من موعظة ربانية!.

كما أن فيه إيحاءً بأنه إذا كان مجرد كلامه تعالى منزَّهًا عن العبث؛ فما بالنا بفعله سبحانه! فهو- أيضا- لا محالة منزَّه عنه على آكد وجه، وأبلغه؛ فليحذر المخاطبون؛ فإنه سبحانه لم يخلقهم اعتباطا وعبثا، ولم تتعلق إرادته سبحانه بإيجادهم لعبا ولهوا؛ بل للقيام برسالة قد أنيطت بهم، وابتعث الرسل عليهم السلام من أجل هدايتهم وتحذيرهم؛ مما يقرر في ضوئه ضرورة مبدأ الجزاء المترتب على اختياراتهم، والتنكيل بقبيح فعل الكافرين، والوعيد على غي المشركين، والإنذار بسوء عقباهم. **هذا من وجه.**

ومن وجه آخر، فإنه يقرر دعائم الجزاء على حسن عمل المؤمنين، والوعد على طاعتهم، والتبشير بحسن مثواهم؛ فيبلغ تسلي الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على إعراضهم الغاية، ويصل حمل المؤمنين على الصبر والثبات وتبشيرهم بمقتضى إحسانهم إلى ذروة النهاية.

ومما هو جدير بالذكر: أنه لما كان الحذف خلاف الأصل؛ فقد أوحى هذا بلطيفة إشارية، **مفادها:** أن القسم من الله تعالى أمر عظيم، لاسيما وأن النفوس النقية، والقلوب السليمة، والعقول القويمة مجمعة على أن مجرد الخبر من الله تعالى حجة، وهو في ذاته في غنى تام عن ما يبرهنه، أو يؤكده، فإذا صدر القسم من الحق جل جلاله؛ كان- لا محالة- على خلاف الأصل؛ لأن الأصل أن يجري كلامه تعالى بلا تأكيد؛ حيث ينبغي أن لا يرتاب فيه العقلاء، ولا تحوم حوله الشكوك. ومن هذه الحيثية كان الحذف مقصودا متعينا في كل قسم بني عليه؛ ومن ثَمَّ فقد التمس علماؤنا حيثية القسم في كونه يأتي في معرض الغضب كما قد تقرر آنفا.

خصائص (الواو) الدلالية، وأبعادها التفسيرية:

هذ، وقد تبين مما سبق: أنه لما حذف فعل القسم؛ حذف الحرف الذي يتعدى به (الباء)، وجاء مع المقسم به حرف (الواو)، وهي تمهد للطبيعة الأسلوبية الخاصة بالقسم، وتوحي بملامح القضية التي يعالجها.

ومن ثَمَّ فقد جاءت مستحكمة في سياقها، معجزة بيانية بين عناصر نظمها؛ إذ أسهم التعبير بها في إثبات أبلغ المعاني، وأظهرها وجودا، وأكثرها جمعا، مع توجيه العقول إلى الربط بين المقسم به والمقسم عليه، والجمع بينهما برباط القياس، وتحقق المنافع، وترتب الآثار، معلنة ظهور أثر المقسم به، وتحققه في المقسم عليه؛ حيث إنها تدل على معنى: الجمع، والكثرة الحاضرة في الوجود، كما تدل على ظهور الكلمة في الوجود في أعلى طبقاتها، وأعظم رتبها.

وفي هذه المناسبة قال الإمام ابن البناء المراكشي: " (الواو) تدل على الظهور، والارتفاع، والارتقاء، فهي جامعة؛ لأنها من غلظ الصوت، وارتفاعه بالشفة معا إلى أبعد رتبة في الظهور " [1]. فهي تدل على ظهور معنى الكلمة في الوجود في أعلى طبقة، وأعظم رتبة، كما تدل على معنى الجمع والكثرة الحاضرة في الوجود [2].

---

[1] عنوان الدليل، لابن البناء المراكشي: صـ 32.

[2] ينظر عنوان الدليل: صـ 88.

قلت: ومن ثَمَّ فهي تمهد لاستحضار العلاقة بين مدخوليها، وتشحذ الأذهان بحثا عن أوجه نظمهما معا في سبك واحد، وتدعو إلى الربط بين الصور المادية والمعاني المعنوية في رباط واحد، ونظم متحد، وسلك بالفرائد قد نظم.

كما أنها تتسق مع الطبيعة الأسلوبية للقسم؛ إذ قد تبين أن من مطاوي مادة (ق س م): الظهور كالشمس، والعلو كحال الوجه، والإحكام كشأن الميزان، والتعظيم كسائر الأمور التي ارتبطت بها دلالة واستعمالا.. إلخ؛ ومن ثَمَّ فلا أنسب منها دلالة على حال سياقها، ولا أبلغ منها تناغما مع مستدعيات مقامها.

ويسهم في تقرير هذا مخرجها، وطبيعتها النطقية، وخصائصها الدلالية؛ إذ إنها " تخرج من الشفتين كما ظن القدماء، لاسيما سيبويه [1]، لكن الحقيقة: أنها تخرج من أقصى اللسان؛ حين يقترب من أقصى الحنك، غير أن الشفتين حين النطق بها تستديران، أو بعبارة أدق يكمل استدارتهما.. ولعل وضوح استدارة الشفتين مع (الواو) هو الذي جعل القدماء ينسبون مخرجها إلى الشفتين " [2]. **وصوتها:** "صامت في نحو: (يوم، ووَعَدَ)، مجهور، رخو، مستفل، منفتح، مصمت، واضح " [3].

ومن ثَمَّ " فإن الوضع النطقي لصوت (الواو)، من استدارة الشفتين عند النطق به، يحاكي معاني: الضم، والجمع، والإحاطة، والاشتمال، والاحتواء. كما أن مد الشفتين للأمام عند النطق بها، يوحي ببروز المعنى، وظهوره علانية، بالإضافة إلى التعبير عن التوجه إلى الأمام. وارتفاع مؤخر اللسان معها نحو الحنك الأعلى مضيقا الممر ضيقا يجعل الهواء يحتك به، وبما يقابله من سقف الحنك، يضفي على صوت (الواو) الصامتة فعالية وقوة، تصور ما يماثلها من أحداث، إضافة إلى وضوح صوتها، وجهارته، الذي يضفي على المعنى جهارة، ووضوحا " [4].

قلت: وقد أفدنا من خصائص (الواو) الدلالية، لاسيما معاني: الضم، والجمع، والإحاطة، والاشتمال، والاحتواء- أن من شأنها الإسهام في بيان وظيفتها، وتسليحنا بآليات ترجمة رسالتها؛ حيث إنها تمد بإمكانات دراسة عناصر أسلوب القسم الموجودة في النظم، منوهة بأن ثُمَّةَ رابطا بين المقسم به والمقسم عليه، وقد جاءت (الواو)؛ لتبلغ تلك الرسالة، وتعلن أنه على كل متدبر لأسلوب القسم أن يجمع بينهما، ويحاول الوقوف على ما حواه كل منهما من معان ودلالات، وما اشتملا عليه من أسرار وإيحاءات، وما لوحا به من أبعاد وإشارات، بذلك يَتَأَتَّى فهم وظيفتهما؛ فهي ترتسم السبيل الناجع في ترجمة رسالة مدخوليها، ومن ثَمَّ يَتَأَتَّى فهم وظيفة أسلوبها.

هذا مع انطوائها على لطيفة تفسيرية، تنبع من طبيعتها النطقية؛ حيث إن امتداد الشفتين للأمام عند النطق بها قد أوحى بمعاني البروز والظهور وما يستتبع ذلك من الإيحاء بمعاني الفعالية والقوة. كما أنها تشير بطبيعتها التقدمية إلى ضرورة التوجه نحو الأمام، قائدة إلى ما يتلوها، موجهة لما عقد في سلكها من شئون عظام، وقضايا شأنها الإحكام، فضلا عن كونها من الظهور والتجلي بمكان؛ إذ لا يشار إلا إلى ظاهر موجود، ولا يوجه إلا إلى بارز معلوم.

وكل ذلك قد أثمر أثر تفسيريا بديعا؛ إذ يشير إلى ظهور المعاني التي نظمها أسلوب القسم القرآني؛ لكون (الواو) أول أركانه، وعنوان نظمه، ومفتاح فهمه، وإذا استقر في العقول أن الشيء يظهر من عنوانه، ويعلم بفواتحه، ويمهَّد له ببطاقته، فكذلك الحال هنا، فقد صدر الأسلوب بما يدل على الظهور والتجلي والوضوح والفعالية؛ ومن ثَمَّ فقد مهدت (الواو) لما بعدها من لبنات تتسم بالوضوح الذي يتنافر مع النكران، وقضايا بأدنى تأمل لها تنال القبول، وتتلقى بالإذعان. **وفي هذه المناسبة قالت د/ عائشة عبد الرحمن:** " كان وقوفي أمام هذه الظاهرة الأسلوبية في البيان القرآني (تعني: إيثار الواو في أسلوب القسم) [5]؛ لعلي

---

[1] **حيث قال:** " مما بين الشفتين: مخرج (الباء)، و(الميم)، و(الواو) ". الكتاب: 433/4.

[2] الأصوات اللغوية، لـ أ.د/ إبراهيم أنيس: صـ 41 بتصرف. وينظر علم الصوتيات، لـ أ.د/ عبد الله ربيع، وأ.د/ عبد العزيز علام: صـ 270.

[3] عن علم التجويد القرآني في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، لـ أ.د/ عبد العزيز أحمد علام: صـ 158 بتصرف يسير.

[4] النظام المقطعي في قراءات سورة النساء، لـ د/ نادية عيد: صـ 161 وما بعدها بتصرف.

[5] الجملة المعترضة تصرُّف من الباحثة.

أجتلي من سرها البياني ما أضيفه إلى فكرة الإعظام التي سيطرت وحدها على جمهرة مَنْ قرأت لهم من المفسرين والبلاغيين. والذي اطمأننت إليه بعد طول التدبر لسياقها في الآيات المستهلة بـ (الواو)، هو أن هذه (الواو) قد خرجت عن أصل معناها اللغوي الأول في القسم للتعظيم، إلى معنى بلاغي، هو اللفتُ بإثارة بالغة إلى حِسَّيات مُدرَكة لا تحتمل أن تكون موضع جدل ومماراة؛ توطئة إيضاحية لبيانِ معنوياتٍ مُمارَى فيها، أو تقرير غيبياتٍ ليست من الحسيات والمدركات. فالبيان القرآني في قسمه يَجلو معاني من الهدى والحق أو الضلال والباطل، بماديات من النور والظلمة في مختلف درجاتهما. وهذا البيان للمعنوي بالحسي، هو مدار استعمال البيان القرآني للظلمات والنور بمعنى الضلال والهدى " [1]. كما أكدت أنه هو الذي يمكن أن نعرضه على أكثر الآيات المستهلة بواو القسم، فتقبله دون تكلف في التأويل أو اعتساف الملحظ.. مقررة أنها تلمح السر البياني فيما تلفت إليه (الواو) من تقابل واضح محسوس بين الماديات المتسمة بالوضوح الحسي المدرك، ومعنويات لا تدرك بالحس؛ وعليه فـ (الواو) تكون بمثابة توطئة إيضاحية لها [2]. ولا عجب في ذلك؛ لكونه من مقتضيات خصائصها الدلالية، وإيحاءاتها الصوتية، التي يتصدرها أبعاد الجمع والضم، ويعلوها ملامح الظهور والتجلي، ويكسوها لباس التعظيم والإجلال.

قلت: ومما سبق يتأكد أن عصارة (الواو) ترتسم فيما يلي:

1 – أنها تمهد لطبيعة الأسلوب الذي تتصدره، من كونه مفرق الأجزاء شكلا، متحدا من حيث الأهداف معنى، كما تنطق بحيثياتٍ تُمَكِّنُ من فهم رسالته، وذلك بضم متفرقاته، وجمع أجزائه؛ إذ لا يفهم معنى الجمع والضم ولا يَتَأَتَّى إلا لأمر متفرق البنيان، متعدد الأركان.

2 – أنها توضح أن ما تدخل عليه من أحداث، وما تعالجه من قضايا، لهو من الظهور والتحقق والبروز بمكان، ومن الإدراك الحسي والمعنوي بمنزل لا يرام، لاسيما وأنها تشير بطريقة خروجها، وطبيعة الشفتين وبروزها إلى الأمام حين النطق بها، تشير إلى ما يستتبعها إشارة مادية واضحة.

3 – التنويه بمقام مدخولها؛ إذ لا تنفك دلالتها عن معنى التعظيم والظهور، فكذلك أسلوب القسم الذي قرر له من الظهور والعلو والإحكام ما يعجز عنه سائر أفانين الكلام. وعليه فلما كان مرادها التعظيم؛ فهي تصور أن ما تدخل عليه معظم، ولا عجب؛ فالدهر آية عظيمة، كذا أن القضية الخبرية (أي: خسر الإنسان) لإمكانية تداركها؛ تعد شأنا عظيما؛ إذ بمقتضى الخبر يتم استنقاذ الإنسان، وتتحقق نجاته، ويتمكن من خلافته في ظرفه بأمر ربه سبحانه وتعالى.

4 – أنها تشير بخصائصها الدلالية، وطبيعتها الإيحائية إلى ضرورة الجمع بين مدخوليها (أعني: المقسم به، والمقسم عليه)، وفهمهما معا.

5 – أنها تقرر وشيج العلاقة بين المقسم والمقسم عليه، وتشحذ الأذهان بحثا عنها، وضرورة استحضارها، وهي بذلك تتمم طريقة دراسة أسلوبها، ملوحة أن معنى الثاني يكمن في معنى الأول، وأن ثمة تقابلا لا محالة بين الركنين.

5 – أنها– بما اتسمت به من خصائص الظهور، والبروز، واستصحبت القوة والفعالية– تُنَوِّهُ بجليل القضية التي يعالجها أسلوبها، وعظيم الأحداث الذي ينتظمها في مطاويه، وتمهد لإقامة الأدلة عليها، وتوطئ لتقديم برهان صحتها. **هذا بالنسبة إلى المفردة الأولى.**

المطلب الثاني: المفردة الثانية: ﴿الْعَصْرِ﴾ حقيقتها، وأسرارها:

أما المفردة الثانية: فيفهم معناها في ضوء دلالتها اللغوية، واستعمالاتها العربية، وأوجهها التفسيرية.. إلخ، مما هو من مقتضيات علم التفسير المنوط بالكشف عن مراد الله تعالى من كلامه قدر الطاقة البشرية. فالله سبحانه وتعالى خاطب العرب بالقرآن،

---

[1] الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، لـ د/ عائشة عبد الرحمن: صـ 248 بتصرف.

[2] ينظر الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: صـ 249.

الأمر الذي يقضي بفهمهم التام لكل ما ورد فيه من قضايا وأحكام، صاغتها كلمات لغوية، ونظمتها حروف بنائية، وفق استعمالات عربية. وهاكم التأصيل اللغوي والاستعمال العربي مشفوعا بالتعليق، والتوظيف.

أولا: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية:

قال الخليل: " (عصر): العَصْرُ: الدّهر. والعصران: الليل، والنهار. والعَصر: العشيّ، به سمّيت صلاة العصر؛ لأنّها تعصر[1]. والعصران: الغداة، والعشيّ. والعصارة: ما تحلب من شيء تعصره. والعصير: ما بقي من الرَّطب في بطون الأرض، ويبس ما سواه. وكلّ شيء عُصِر ماؤه؛ فهو عصير. والاعتصار: أن تخرج من إنسان مالا بغرم أو بوجه من الوجوه [2]. والاعتصار: أن يغصَّ الإنسان بطعام؛ فيعتصر بالماء، وهو شربه إياه قليلا قليلا. والجارية إذا حرُمت عليها الصلاة، ورأت في نفسها زيادة الشباب؛ فقد أَعْصَرَتْ، وهي مُعْصِر: بلغت عصر شبابها، وإدراكها. والمعْصِرات: سحابات تُمْطِر. وأعصر القوم: أُمْطِرُوا. قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف:49]. قيل: ﴿يَعْصِرُونَ﴾: يستغلّون أَرَضِيهم؛ لأن الله يُغنيهم، فتجيء عصارة أَرَضيهم، أي: غلّتها؛ لأنك إذا زرعتَ؛ اعتصرتَ من زرعك ما رزقك الله [3]. والإعصار: الريح التي تثير السَّحاب. أعصرتِ الرياح؛ فهي مُعْصِرات، أي: مثيرات للسحاب. والإعصار: الغبار الذي يستدير، ويسطع. والعَصَرُ: الملجأ، والعُصْرةُ والمتَعَصَّرُ والمعْتَصَرُ، أراد به: كريم البلل والنَّدَى، يقال: أَكْرِمْ به من مُعْتَصَر، أي: أنك تعصر خيره تنظر ما عنده، كما يُعْصَر الشراب. واعتصر، أي: لجأ. وقال بعضهم: يعني بالعَصَر جمع الإعصار، أي: الغبار. والعُصْرَةُ: الدِّنْيَةُ في قولك: هؤلاءِ مواليا عُصْرَةً، أي: دِنْيَةً، دون مَنْ سواهم [4]. والمعْصِرَةُ: موضع يُعْصَرُ فيه العنب. والمِعْصار: الذي يُجْعَلُ فيه شيء يُعْصَر؛ حتى يُتَحلَّب ماؤه [5]. والعَصْرُ: العطية، عَصَرَهُ عَصْرا. والعرب تقول: إنّه لكريم العُصارة. وكريم المعتَصَر، أي: كريم عند المسألة. وكلّ شيء منعته؛ فقد اعتصرته. ومنه الحديث: "يعتصر الوالد على ولده في ماله" [6]، أي: يحبسه عنه، ويمنعه إياه. وعَصرت الشيء؛ حتى تحَلَّب. وبعير معصور: قد عصره السّفر عصرا " [7].

وقال ابن فارس مؤصلا: " (عَصَرَ): (الْعَيْنُ)، وَ(الصَّادُ)، وَ(الرَّاءُ): أُصُولٌ ثَلَاثَةٌ صَحِيحَةٌ. فَالْأَوَّلُ: دَهْرٌ وَحِينٌ، وَالثَّانِي: ضَغْطُ شَيْءٍ حَتَّى يَتَحَلَّبَ، وَالثَّالِثُ: تَعَلُّقٌ بِشَيْءٍ، وَامْتِسَاكٌ بِهِ. **فَالْأَوَّلُ**: الْعَصْرُ، وَهُوَ الدَّهْرُ. قَالَ اللَّهُ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: 1]. وَبِهِ سُمِّيَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ؛ لِأَنَّهَا تُعْصَرُ، أَيْ: تُؤَخَّرُ عَنِ الظُّهْرِ. وَالْغَدَاةُ وَالْعَشِيُّ يُسَمَّيَانِ الْعَصْرَيْنِ. وَيُقَالُ: عَصَّرُوا، وَاحْتَبَسُوا إِلَى الْعَصْرِ. فَأَمَّا الْجَارِيَةُ الْمُعْصِرُ فَقَدْ قَاسَهُ نَاسٌ هَذَا الْقِيَاسَ، وَلَيْسَ الَّذِي قَالُوهُ فِيهِ بِبَعِيدٍ. قَالَ قَوْمٌ: سُمِّيَتْ مُعْصِرًا؛ لِأَنَّهَا تَغَيَّرَتْ عَنْ عَصْرِهَا. **وَالْأَصْلُ الثَّانِي**: الْعُصَارَةُ: مَا تَحَلَّبَ مِنْ شَيْءٍ تَعْصِرُهُ. قَالَ: عُصَارَةُ الْخُبْزِ الَّذِي تَحَلَّبَا وَهُوَ الْعَصِيرُ. وَالْعَرَبُ تَجْعَلُ

---

[1] **قلت:** والمعنى: تؤخر.

[2] **قال ابن فارس:** " وَمِنَ الْبَابِ: الْعَصْرُ، وَالِاعْتِصَارُ. قَالَ الْخَلِيلُ: الِاعْتِصَارُ: أَنْ يَخْرُجَ مِنْ إِنْسَانٍ مَالٌ بِغُرْمٍ أَوْ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ. قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: يُقَالُ: بَنُو فُلَانٍ يَعْتَصِرُونَ الْعَطَاءَ. قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: الْمُعْتَصِرُ: الَّذِي يَأْخُذُ مِنَ الشَّيْءِ يُصِيبُ مِنْهُ " . مقاييس (ع ص ر): 344/4.

[3] **قال ابن فارس معللا:** " وَيُقَالُ لِلْغَلَّةِ: عُصَارَةٌ. وَفُسِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49]، قَالَ: يَسْتَغِلُّونَ بِأَرْضِيهِمْ. وَهَذَا مِنَ الْقِيَاسِ؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ كَأَنَّهُ اعْتُصِرَ كَمَا يُعْتَصَرُ الْعِنَبُ وَغَيْرُهُ " . مقاييس اللغة (ع ص ر): 344/4.

[4] **قلت:** وفيه من التلويح بخصائص الظرف المحيط، واتسامه بالدونية ما لا يخفى.

[5] **قلت:** وبمقتضى هذا يعلم أن (العصر) ظرف محيط كالآلة، ووظيفته حصر مظروفه، وعصره، والمظروف– لا محالة– متلبس بظرفه، وآله الحتمي: تحوله إلى عصير.

[6] **قلت:** لم أقف عليه بهذا اللفظ، بل وجدت عند عبد الرزاق ما نصه: عَنْ أَبِي قِلَابَةَ قَالَ: "كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رضي الله تعالى عنه يَعْتَصِرُ الرَّجُلُ مِنْ وَلَدِهِ مَا أَعْطَاهُ مِنْ مَالِهِ؛ مَا لَمْ يَمُتْ، أَوْ يَسْتَهْلِكْهُ، أَوْ يَقَعْ فِيهِ دَيْنٌ". أخرجه عبد الرزاق: كتاب الصدق، باب ما ينال الرجل من مال ابنه وما يجبر عليه من النفقة، برقم (16622). مصنف عبد الرزاق الصنعاني: 129/9.

[7] العين (ع ص ر): 292/1– 297 بتصرف.

الْعُصَارَةَ وَالْمُعْتَصَرَ مَثَلًا لِلْخَيْرِ وَالْعَطَاءِ، إِنَّهُ لِكَرِيمُ الْعُصَارَةِ وَكَرِيمُ الْمُعْتَصِرِ. وَالْمِعْصَارُ: شَيْءٌ كَالْمِخْلَاةِ يُجْعَلُ فِيهِ الْعِنَبُ وَيُعْصَرُ. وَمِنَ الْبَابِ: الْمُعْصِرَاتُ: سَحَائِبٌ تَجِيءُ بِمَطَرٍ. وَأُعْصِرَ الْقَوْمُ؛ إِذَا أَتَاهُمُ الْمَطَرُ. فَأَمَّا الرِّيَاحُ وَتَسْمِيَتُهُمْ إِيَّاهَا الْمُعْصِرَاتِ، فَلَيْسَ يَبْعُدُ أَنْ يُحْمَلَ عَلَى هَذَا الْبَابِ مِنْ جِهَةِ الْمُجَاوَرَةِ؛ لِأَنَّهَا لَمَّا أَثَارَتِ السَّحَابَ الْمُعْصِرَاتِ؛ سُمِّيَتْ مُعْصِرَاتٍ وَإِعْصَارًا. وَيُقَالُ: مَرَّ فُلَانٌ وَلِثِيَابِهِ عَصَرَةٌ، أَيْ: فَوْحُ طِيبٍ وَهَيْجُهُ. وَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنَ الْإِعْصَارِ. **وَالْأَصْلُ الثَّالِثُ**: الْعَصَرُ: الْمَلْجَأُ، يُقَالُ اعْتَصَرَ بِالْمَكَانِ؛ إِذَا الْتَجَأَ إِلَيْهِ. وَيُقَالُ: لَيْسَ لَكَ مِنْ هَذَا الْأَمْرِ عُصْرَةٌ، عَلَى فُعْلَةٍ، وَعَصَرٌ عَلَى تَقْدِيرِ فَعَلٍ، أَيْ: مَلْجَأٌ. وَالْمَعَاصِرَ: الْعَمَائِمُ. وَقَالُوا: هِيَ ثِيَابٌ سُودٌ. وَالصَّحِيحُ مِنْ ذَلِكَ: أَنَّ الْمَعَاصِرَ الدُّرُوعُ، مَأْخُوذٌ مِنَ الْعَصْرِ؛ لِأَنَّهُ يُعْصَرُ بِهَا. وَاللَّهُ أَعْلَمُ " [1].

وقال الإمام الراغب: " (عصر): العَصْرُ: مصدرُ عَصَرْتُ، والمِعْصُورُ: الشيءُ العَصِيرُ، والعُصَارَةُ: نفاية ما يُعْصَرُ. وقال: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49]، أي: يستنبطون منه الخير، وقرئ: (يُعْصَرُونَ) [2]، أي: يمطرون، واعْتَصَرْتُ من كذا: أخذت ما يجري مجرى العُصَارَةِ. وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنا مِنَ الْمُعْصِراتِ ماءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: 14]، أي: السحائب التي تَعْتَصِرُ بالمطر، أي: تصبّ، وقيل: التي تأتي بالإِعْصَارِ، والإِعْصَارُ: ريحٌ تثير الغبار. والاعْتِصَارُ: أن يغصّ فَيُعْتَصَرَ بالماء، ومنه: العَصْرُ. والعَصَرُ: الملجأُ، والعَصْرُ والعِصْرُ: الدّهرُ، والجميع العُصُورُ. والعَصْرُ: العشيُّ، ومنه: صلاة العَصْرِ، وإذا قيل: العَصْرَانِ؛ فقيل: الغداة، والعشيّ، وقيل: اللّيل، والنهار، وذلك كالقمرين للشمس والقمر. والمِعْصِرُ: المرأةُ التي حاضت، ودخلت في عَصْرِ شبابِهَا " [3].

التعليق:

قلت: ومما سبق يتمهد: أن مادة (ع ص ر) قد انطوت على دلالات كثيرة، ومعان وفيرة، منها: الدهر والحين، الليل والنهار، الغداة والعشي، وكل ما يؤخَّر عن ما قبله، ما تحلب من شيء تعصره [4]، ما بقي من الرطب في بطون الأرض ويبس ما سواه [5]، كل شيء عصر ماؤه وخرج، خروج المال من الإنسان بغرم أو بوجه من الوجوه، غص الإنسان بطعام فيشرب الماء شيئا فشيئا، زيادة الشباب، وبلوغ سن الشباب والإدراك (التكليف)، المرأة التي حاضت ودخلت عصر شبابها، السحابات الممطرة [6]، غلة الأرض، الريح التي تثير السحاب، الغبار الذي يستدير ويسطع لضرورة الحياة، الملجأ، الالتجاء، الكرم، العطاء، انتظار الخير، الدنية، موضع يعصر فيه العنب، آله يجعل فيها شيء يعصر؛ حتى يتحلب ماؤه، العطية، المنع، الحبس، التغير، مثل للخير

---

[1] مقاييس اللغة (ع ص ر): 340/4- 345.

[2] **قال أبو الفتح**: " قراءة عيسى والأعرج وجعفر بن محمد: (وفيه يُعْصَرُون): بياء مضمومة، وصاد مفتوحة، روينا عن قطرب أن معنى: (يُعْصَرُون)، أي: يُمْطَرُون، فإن شئت أخذته من العُصْرَة والعَصَر للمَنْجَاةِ، وإن شئت أخذته من عَصَرَت السحاب ماءها عليهم. وعليه قراءة الجماعة: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: 49]، فهذا من النجاة. وروينا عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أي: يَعْصِرون من الكرم والأدهان، فهذا تفسير النجاة: كيف تقع بهم وإليهم؟ قال أبو زبيد: (صاديا يستغيث غير مُغَاث.. ولقد كان عُصْرَة الْمَنْجُود)، أي: نجاة المكروب". المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لابن جني: 344/1 وما بعدها بتصرف. **وفي تخريج البيت** ينظر: جمهرة أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي: صـ 583. وأمالي اليزيدي: صـ 8. وأمالي القالي: 26/1. **وقال ابن قتيبة**: " العصرة: الملجأ، والمنجود: المكروب ". المعاني الكبير في أبيات المعاني، لابن قتيبة الدينوري: 1206/3. **وقال الأخفش الصغير شارحا**: " (صاديا): عطشان. يستغيث فلا يغاث. (عصرة) وعصرٌ واحد، وهو الحرز، أي: كان حرزا، وغياثا. و(المنجود): المكروب الذي قد عرق من الكرب ". الاختيارين، لعلي بن سليمان بن الفضل، أبي المحاسن: صـ 521. **وقيل استشهادا بالبيت**: " الاعتصار: الملجأ والحرز، وهو العصر والعصرة. وقوله: (ولقد كان عصرة المنجود)، أي: فأنت ملجأي، وحرزي من الناس، فإذا أتيت من قبلك فإلى مَنْ ألجأ؟ ". فصل المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي: صـ 266 بتصرف يسير.

[3] المفردات (ع ص ر): صـ 569 بتصرف.

[4] **قلت**: وهذا ينتج عنه أمران نفاية المعصور، ومادةٌ تمثل خلاصة المعصور منه.

[5] **قلت**: فهناك شيء رطب وآخر يابس، وفي هذا ما يحاكي نفاية المعصور والعصير.

[6] **قلت**: فهذا المدلول وما بعده يشير إلى رزق الله تعالى ممثلا في أسبابه تارة، ومسبباته تارة أخرى.

والنوال، المطر وإتيانه، سحائب تجيء بالمطر، وتأتي بالإعصار (وهو ريح تثير الغبار)، فوح طيب وهيجه، العمائم، نوع من الثياب، الدروع، الشيء العصير، نفاية ما يعصر، استنباط الخير.. إلخ.

ثانيا: الدلالة اللغوية عند السادة المفسرين:

هذا، وقد تجلت الدلالة اللغوية عند السادة المفسرين في أضيق نطاق، ممثلة فيما هو أكثرها استعمالا، وأبرزها شيوعا، وهاك طرفا معنيا بتأصيل معنى العصر في ضوء تراثنا التفسيري النفيس مذيلا بالتعليق عليه.

قال الإمام الطبري مأثورا: اختلف أهل التأويل في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ﴾؛ فقال بعضهم: هو قسم أقسم ربنا تعالى ذكره بالدهر، فالعصر: هو الدهر. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: العصر: ساعة من ساعات النهار. وعن الحسن: هو العشيّ. ثم قال مرجحا: والصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن ربنا أقسم بالعصر وهو اسم للدهر، وهو العشيّ، والليل، والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكلّ ما لزِمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به جلّ ثناؤه " [1].

وقال الإمام الماتريدي:" اختلفوا في تأويل قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾: فمنهم مَنْ قال: هو الدهر والزمان. ومنهم مَنْ قال: هو آخر النهار، فذلك وقت يشتمل على طرفي النهار، وهو آخر النهار، وأول الليل؛ فكأنه أراد به: الليل، والنهار. تقول العرب: لا أكلمك العصران، يريدون: الليل، والنهار، وفي مرور الليل والنهار مرور الدهور والأزمنة؛ لأنهما يأتيان على الدهور والأزمنة وما فيهما؛ فكان في ذكر الليل والنهار ذكر كل شيء " [2].

وقال الإمام الواحدي مبينا حيثية القسم به: " أقسم الله تعالى بالدهر؛ لأن فيه عبرة للناظرين من جهة مرور الليل والنهار على تقدير الأدوار، وقال مقاتل: أقسم الله تعالى بصلاة العصر، وهي الصلاة الوسطى. وقال بعضهم: معناه: ورب العصر [3] " [4].

وقال الزمخشري: " أقسم بصلاة العصر؛ لفضلها، ولأنّ التكليف في أدائها أشق؛ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم. أو أقسم بالعشي كما أقسم بالضحى؛ لما فيهما جميعا من دلائل القدرة. أو أقسم بالزمان؛ لما في مروره من أصناف العجائب " [5].

وقال الإمام ابن عطية مأثورا: " " قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿الْعَصْرِ﴾: الدهر، يقال فيه: عصر وعصر: بضم (العين)، و(الصاد). وقال قتادة: ﴿الْعَصْرِ﴾: العشي، وقال أبي بن كعب: آخر النهار، وقال بعض العلماء: ﴿الْعَصْرِ﴾: اليوم، ﴿وَالْعَصْرِ﴾: الليلة. وقال بعض العلماء: ﴿الْعَصْرِ﴾: بكرة، ﴿والْعَصْرِ﴾: عشية وهما الأبردان، وقال مقاتل: ﴿الْعَصْرِ﴾ هي الصلاة الوسطى أقسم بها " [6].

وقال ابن العربي: " بناء (ع ص ر) ينطلق على كثير من المعاني، فأما ما يتعلق بالزمان، ففيه أربعة أقوال: الأول: العصر الدهر. الثاني: الليل والنهار. الثالث: العصر الغداة والعشي. الرابع: أن العصر ساعة من ساعات النهار " [7].

---

[1] تفسير الطبري: 24 / 589 بتصرف.

[2] تأويلات أهل السنة: 611/10 بتصرف.

[3] **قلت:** ومبناه: أن الكلام على تقدير مضاف محذوف، وهذا مسلك متبع عند بعض المفسرين والعلماء؛ تخلصا من الإقسام بغير الله تعالى لاسيما مع ورود النهي عن ذلك، وفيه مقال؛ إذ لا يستقيم التقدير في كل المواضع، كما أنه لا يجوز أن يقاس الله تعالى على خلقه، فإذا ما ورد النهي للبشر عن القسم بغيره تعالى، فلا يتعدى هذا إلى الخالق سبحانه وتعالى بحال من الأحوال؛ فله جَلَّ جلاله أن يقسم بما شاء على ما شاء؛ مما يدفع التقدير، خاصة وأنه من المقرر أن الحذف خلاف الأصل، وأن إجراء الكلام على ظاهره متعين؛ ما لم تدعو ضرورة إلى خلافه، وأن ما لا يحتاج إلى التقدير أولى مما يحتاج إليه.

[4] التفسير الوسيط: 551/4 بتصرف.

[5] الكشاف: 793/4 وما بعدها بتصرف.

[6] المحرر الوجيز: 520/5 بتصرف.

[7] أحكام القرآن، لابن العربي: 447/4.

وقال الإمام الرازي شارحا ومعللا: " اعلم أنهم ذكروا في تفسير العصر أقوالا. **الأول:** أنه الدهر؛ لأنه مشتمل على الأعاجيب؛ لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم؛ فإنه مجزأ مقسم بالسنة والشهر واليوم والساعة، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة، وكونه ماضيا ومستقبلا، فكيف يكون معدوما؟! ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود؛ لأن الحاضر غير قابل للقسمة، والماضي والمستقبل معدومان، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود؟! **القول الثاني:** المراد بالعصر أحد طرفي النهار. **القول الثالث:** أراد صلاة العصر. **القول الرابع:** أنه قسم بزمان الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فقوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، أي: والعصر الذي أنت فيه؛ فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله: ﴿وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 2] وبعمره في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: 72]، فكأنه قال: وعصرك، وبلدك، وعمرك، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم حال الظرف؛ فقس حال المظروف، ثم وجَّه القسم، كأنه سبحانه وتعالى يقول: أنت يا محمد، حضرتهم ودعوتهم، وهم أعرضوا عنك وما التفتوا إليك؛ فما أعظم خسرانهم، وما أجل خذلانهم! " [1]. **وقال الحافظ ابن كثير:** " العصر: الزمان الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر. وقيل: هو العشي، والمشهور الأول " [2].

وقال الإمام البقاعي مبينا وجه نظمها: " لما كانت لذة هذه الدنيا الظاهرة التنعم بما فيها من المتاع، وكان الإنسان مسئولا بما شهد به ختم التكاثر عن ذلك النعيم متوعدا برؤية الجحيم، فكان ساكن هذه الدار على غاية الخطر؛ فكان نعيمه في غاية الكدر- قال دالا على ذلك بأن أكثر الناس هالك، مؤكدا بالقسم والأداة لما للأغلب من التكذيب لذلك إما بالمقال أو بالحال: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، أي: **الزمان** الذي خلق فيه أصله آدم عليه الصلاة والسلام، وهو في عصر يوم الجمعة، أو **الصلاة** الوسطى، أو **وقتها** الذي هو زمان صاحب هذا الشرع الذي مقداره فيما مضى من الزمان بمقدار وقت العصر من النهار أو بعضه، أو **زمان** كل أحد الذي هو الخلاصة بالنسبة إليه؛ تنبيها له على نفاسته؛ إشارة إلى اغتنام إنفاقه في الخير؛ إشفاقا من الحشر، أو **وقت** الأصيل؛ لأنه أفضله بما يحويه من الفراغ من الأشغال، واستقبال الراحة والحصول على فائدة ما أنفق فيه ذلك النهار، وبما دل عليه من طول الساعة، وربح مَنْ كان له فيها بضاعة باختتام الأعمال، وتقوض النهار، والدال على البعث، أو **جميع** الدهر الذي أوجد فيه سبحانه وتعالى المخلوقات، وقدر فيه المقدورات بما ظهر فيه من العجائب الدالة على ما لله تعالى من العز والعظمة، الداعي إلى صرف الهمة إليه، وقصرها عليه " [3]. **وقال الإيجي مقدرا:** " ﴿وَالْعَصْرِ﴾، أي: الدهر، أو بصلاة العصر، أو بوقته " [4].

وقال العلامة أبو السعود: " أقسم سبحانه بصلاة العصر؛ لفضلها الباهر، أو بالعشي الذي هو ما بين الزوال والغروب كما أقسم بالضحى، أو بعصر النبوة؛ لظهور فضله على سائر الأعصار، أو بالدهر؛ لانطوائه على تعاجيب الأمور القارة والمارة " [5]. **وتبعه الإمام الألوسي مضيفا:** " قيل: هو زمان حياته صلّى الله عليه وسلم وما بعده إلى يوم القيامة، ومقداره فيما مضى من الزمان مقدار وقت العصر من النهار، ويؤذن بذلك ما رواه البخاري عن سالم بن عبد الله عن أبيه أنه سمع النبي صلّى الله عليه وسلم يقول: " إنما بقاؤكم فيمن سلف قبلكم من الأمم كما بين صلاة العصر إلى غروب الشمس" [6]، وشرفه لكونه زمان

---

[1] التفسير الكبير: 277/32– 279 بتصرف.

[2] تفسير ابن كثير: 480/8 بتصرف.

[3] نظم الدرر: 236/22 وما بعدها بتصرف.

[4] تفسير الإيجي: 527/4.

[5] إرشاد العقل السليم: 197/9.

[6] **هذا جزء من حديث صحيح:** أخرجه البخاري: كتاب مواقيت الصلاة، باب مَنْ أدرك ركعة من العصر قبل الغروب، برقم (557). صحيح البخاري: 116/1.

النبي صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم وأمته التي هي خير أمة أخرجت للناس، ولا يضره تأخيره كما لا يضر السنان تأخره عن أطراف مرانه، والنور تأخره عن أطراف أغصانه " [1].

التعليق:

قلت: تجلى مما سلف الأوجه التفسيرية الواردة في المفردة القرآنية، فاتفقت كلمة السادة المفسرين على أن القسم بـ(العصر) قد انطوى على المعاني التالية: الدهر، وساعة من ساعات النهار، وآخره، والعشي، وصلاة العصر، والزمان مطلقا أو مقيدا، وعصر النبوة، ووقت من الأوقات، والليل والنهار. وحري بالذكر: أنهم قد بينوا حيثية القسم به على كل معنى ذكروه مستدلين به على واجب الوجود سبحانه، واحد الذات والصفات والأفعال، وكذا على سائر العقائد الإلهية لاسيما البعث والجزاء، ومن قبل ذلك إثبات صدق الرسالة المحمدية، كما سيتقرر في السطور التالية.

التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالات اللغوية، والاستعمالات العربية، والأوجه التفسيرية:

قلت: مبدأ التوسع في المعنى قد انتهجه كثير من السادة المفسرين، واعتمدوه سبيلا متبعا في توجيه معنى المفردة القرآنية، سواء أكان من حيث الدلالة اللغوية، أم الدلالة الصرفية، أم الدلالة النحوية [2]. كما بدا هذا المبدأ عند الإمام الطبري هنا؛ حيث قال معلقا على المأثور في معنى العصر: " **والصواب من القول في ذلك:** أن يقال: إن ربنا تبارك وتعالى أقسم بالعصر، وهو اسم للدهر، وهو: العشيّ، والليل، والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى؛ فكلّ ما لزِمه هذا الاسم داخل فيما أقسم به جلّ ثناؤه " [3].

وهذا الصنيع قد اعتبره الإمام محمد عبده هو صدارة المرتبة العليا في التفسير؛ فقال: " أما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور: أحدها: فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة، غير مكتف بقول فلان وفهم فلان؛ فإن كثيرا من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد. فيجب على مَنْ يريد الفهم الصحيح، أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة؛ ليفرق بينها وبين ما ورد في الكتاب. فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر نزوله " [4].

هذا، وبالنظر فيما انطوت عليه مادة (ع ص ر) من دلالات غزيرة، وما لبسته من أكسية معان متعددة، وتمثلته في أوجه تفسيرية متنوعة؛ يتأكد أنها قد نظمت في مطاويها من بليغ الدلالات، واستصحبت من المعاني الوافرات ما يحكم بتمكنها، ويشيد بسمو نظمها، كما يتقرر أنه يمكن تصنيف أدوار مكنوناتها إلى وظائف متشعبة، يجمعها لواء واحد، تحت مظلة محددة، تنشد مرمًى معينا، يتظاهر كل ذلك في الإنباء عن عظيم تمكنها نظما، وبديع تناغمها حالا، واتساقها مقاما، مسهما بإحكام بياني في الكشف عن أثرها التفسيري في النظم القرآني. **وهذا إجمال يَتَأَتَّى تفصيله فيما يلي:**

الكشف عن كنه مسمى المفردة:

أسهم بعض تا الدلالات في الإنباء عن كنه مسمى المفردة؛ فأكد أنه ظرف زماني، وبعد مكاني، وحدث زمكاني؛ إذ لا سبيل لإفراد الزمان عن المكان؛ حيث لا يتصور أحدهما دون الآخر، لذا؛ اصطلح عليهما كبعد واحد، هو الزمكان، وهذا البعد أظهر ما يدل عليه ويمثله مدلولا: الليل والنهار؛ إذ في مروريهما بلا شك مرور الدهور والأزمنة؛ لأنهما يأتيان عليهما وما فيهما؛ فكان في ذكرهما ذكر لكل شيء.

---

[1] روح المعاني: 458/15 بتصرف يسير.

[2] **قلت:** وهذا المنحى قد اعتمدته منهجا مؤصلا وسبيلا مقررا في دراسة المفردة القرآنية. ينظر المفردة القرآنية: صـ 124 وما بعدها إلى آخر الرسالة.

[3] تفسير الطبري: 589/24 بتصرف يسير.

[4] تفسير المنار: 19/1 وما بعدها بتصرف.

كما أن هذا الظرف تعتريه الخطوب، وتحيط به الملابسات، وتدفعه الأحداث، وتتوارد عليه الأفعال. فالعصر عبارة عن دهر وحين كليا كان أو جزئيا، وهذا إن كان يفهم على أنه بعد زمني، فيقابله مدلول حسي، وهو: موضع يعصر فيه ما بداخله؛ فيفهم منه الحيثية المكانية. كما أن استعمالات: الليل والنهار، والغداة والعشي، والأصيل، وأي جزء من أجزاء اليوم والليلة، توظف جميعها في ارتسام بعد الزمان والمكان؛ إذ إن الزمان الليلي لا بد له من مكان يحيط به ويغشاه، وكذلك النهار، وسائر الأزمنة، فلا يحدث النهار إلا على مكان من الأرض مواجهٍ للشمس، وإذا ما بعد هذا الجزء المكاني، وأخذ في الانحراف عنها؛ عاد إلى الحيز الظلامي العدمي مرة أخرى. فتعلق الزمان والمكان واعتبارهما بعدا واحدا مما لا مراء فيه، وهو وإن كان من مكتشفات العلم الحديث، إلا أنه في واقع الحال وحقيقة الأمر سبق قرآني، وإعجاز بياني يقود لصحة الحقائق العلمية، ويدعمها، ويستدل به عليها وليس العكس كما قد يتوهم.

ومن ثَمَّ فيتم الإعراب عن تمام حقيقته؛ فهو ظرف مكاني بجانب كونه زمانيا؛ لكونه موضعا يعصر فيه ما بداخله، ولم يزل الظرف بما حواه من مظروفات؛ حتى تتحلب، ويستخلص منها أنقى ما فيها.

إظهار خصائص العصر، والتصريح بأهم مظاهره، وكشف اللثام عن أبرز أحواله:

أسهم بعض مدلولات المفردة في بيان طرف من خصائص مسماها، معربا عن كونه ظرفا وملجأ وحرزا محيطا بما في داخله إحاطة تامة، أسهم في هذا مدلولات: الحبس، والمنع، والملجأ، والحرز. وصَوَّرَه بطلاقة واقتدار مدلول: الآلة التي يجعل فيها شيء يعصر؛ حتى يتحلب ماؤه، مع لفت الأنظار إلى أن الجاعل هو الله تعالى، مما يلوح بوجه الامتنان، وجهة الإنعام تارة، كما يشعر بعدم إمكانية النجاة من هذا الجعل، وانتفاء آلية الإفلات من هذا الظرف تارة أخرى.

وهذا عين ما تظاهرت عليه بعض الدلالات والاستعمالات العربية في المفردة القرآنية؛ إذ أومأت إلى معنى الإحاطة والشمول مقررة انعدام إمكانية النجاة، مبعدة احتمالية الإفلات. لاسيما الآلة التي يعصر فيها، وكذا استعمالات: العمائم، ونوع من الثياب، والدروع. كما أن وظيفته عصر مظروفاته، مع الإيذان بأن تلك المظروفات متلبسة بحدثه، فمآلها المحتوم: الاستخلاص كحال العصير. **وعليه فأولى خصائص هذا العصر، وأبرز وظائفه ما يلي:**

1 – الإحاطة التامة والكاملة بما انطوى عليه من جنس الإنسان، وسائر المربوبات؛ فالإنسان حبيس المكان ويمثله ما بين الأرض والسماء ، وحبيس الزمان ويمثله الليل والنهار. فهو محبوس مقيد في ظرف زمكانه.

2 – أنه– بما فيه من أحداث– مظهر لتوفير سبل البقاء، والإمداد بمقومات الوجود، لذا؛ كان ملجأ وحرزا.

3 – أن شأنه التغير، والتقلب، وعدم الاستمرار على حال، لذا؛ ارتبطت بعض صور مادة (ع ص ر) بوصف المرأة الحائض؛ لتغيرها عن عصرها، كما أنها قد اعتراها نمط من الزيادة في العُمُر، وبذلك دخلت عصر شبابها، وبلغت سن الإدراك. وعليه فقد تقرر الانتقال بالإنسان وسائر المظروفات من حال إلى حال، وتغيرهم وتقلبهم في سائر الأطوار.

4 – أنه كما تضمن الإيحاء بتغيره، وعدم استقراره على حال، فقد لفت الأنظار إلى أن هذا التغير فيه معنى التداول، أي: الانتقال بالإنسان وبسائر المظروفات من حال حسن إلى حال سيء، والعكس، كما هو حال الأيام، قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ..﴾ [آل عمران: 140]. يسهم في تقرير هذا المعنى، وارتسام ذلك البعد جميع المدلولات المتواردة المتعاقبة، لاسيما مدلولات: الليل والنهار، الغداة والعشي، زيادة الشباب، بلوغ سن الإدراك (التكليف)، المرأة التي حاضت ودخلت في عصر شبابها، كل شيء عصر ماؤه وخرج، خروج المال من الإنسان بغرم أو بوجه من الوجوه، غص الإنسان بطعام فيشرب الماء شيئا فشيئا، الالتجاء، الكرم، العطاء، انتظار الخير، الدنية، التغير، مثل للخير والنوال، فوح طيب وهيجه، الشيء العصير، نفاية ما يعصر، استنباط الخير.. إلخ؛ حيث إن بعض هذه الاستعمالات قد روعي فيها معنى الحسن من وجه، وبعضها قد شابه معنى التكدير من وجه آخر؛ مما يقرر حقيقة تغير الدهر، وتنوع صروفه، وتبدل أحواله، وعدم

استقراره، ويؤكد تقلبه في الشئون المختلفة، ضمن الأحداث المتناقضة، والخطوب المتعاقبة، والنوازل المتواردة، وتعاورها[1] على المظروفات المتعددة.

5 – أن الظرف الزمني ذو بعد دائري؛ فهو يحيط بمظروفاته على سبيل الإحاطة والشمول، كما أن التعبير القرآني بمداولة الأيام يقرر معنى الدائرية [2]، وهذا ما أفهمته مكتشفات العمل الحديث؛ إذ قررت أن شكل الحياة، وهندسة الكون، كلها أشكال دائرية، ومسارات حلزونية. فالأحداث تدور وفق مدار دائري، وإطار متصل حلزوني، وهذا سبق قرآني يشهد لصحة مكتشفات العلم الكوني.

6 – أنه مشعر بمروه المستمر مع الإيحاء بعدم التوقف، ومن ثَمَّ يتقرر دفع جنس الإنسان إلى الأمام بلا توقف، ولا إمكانية للرجوع إلى الخلف، مما يوحي بأن ما ينصرم من عمر الإنسان لا يعود ثانية أبدا إلى أن يرث الأرضَ المللكُ الديانُ جَلَّ وتعالى عن الأنام. لذا اتصلت تسمية العصر بكل ما تأخر، أي: أعقب ما قبله، كما هو الحال في صلاة العصر. وعليه فإن انتقاص الظرف وخسره كناية عن انتقاص مظروفه وخسره لا محالة؛ لما هو مقرر ومشاهد من أن أجزاء العصر المنصرم لا يَتَأَتَّى بحال الرجوع إليها، وليس ثَمَّ طريق لاجتلابها، وهنا نتساءل: هل انفكت الأمم السابقة (المظروفات) عن ظرفها؟ وهل يتسنى إرجاعها؟ قلت: كل ذلك ضرب من المستحيلات؛ مما يقرر حقيقة، مفادها: أن خسر العصر (الظرف) مستلزم خسر مطاويه من سائر المظروفات.

7 – أن أحداثه بمثابة حدث العصر للإنسان؛ فيبتلى فيه، ويختبر، ويفتن؛ لإخراج أنقى ما فيه، وأنفع ما حواه، وأخلص عصارته؛ ومن ثَمَّ فهو يعمل على تخليصه من أسوأ بقاياه، وأردأ نفاياته. وأدق ما يمثل هذا المعنى هو مدلول: (الآلة التي يوضع فيها الشيء؛ حتى يتحلب)؛ إذ إن تلك الآلة تدفع إلى الأمام، وتعمل على إخراج أنقى ما في مظروفها، وتخلصه من شوائبه، والذي يقابله الإنسان داخل الزمكان، وأبرز ما يشهد له تتمة القسم، أي: أسلوب الاستثناء، وما في حيزه (الإيمان، والعمل الصالح..)؛ فهو أنقى ما في المرء، وأخلص ما فيه، وأثمن جوهره، وأغلاه، لذا؛ كان مستثنى من جنس الإنسان الثابت له الخسران.

8 – أنه قد أشار بنمط مدلولاته إلى أفضل أجزائه، وأكرم ما فيه من أحداث، ولفت الأنظار إلى أنقى مطاويه من ضروب الخيرات، المؤدية إلى فنون السعادات، لاسيما عصر النبوة، وكأن الزمان قد اعتصر؛ لإخراج لب الرسالات، وتهيأ لأفضل الأوقات، ودار لأجل بلوغ أهم وأنفس مراحل الحياة، ألا وهي إدراك عصر النبوة، والرسالة المحمدية، وأبرز تشريعاتها ممثلة في الصلاة، لاسيما صلاة العصر.

9 – أنه قد صرح ضمنا بأنه كما لا يبقى على حال، فهو– أيضا– إلى زوال، ومصيره المحتوم الفناء، ولا سبيل له إلى البقاء، وإذا كان هذا حاله، فهو بلا ريب حال مظروفاته، فهو مخرج لها بعد عصرها، وابتلائها؛ ومن ثُمَّةْ يكون قد مَهَّدَ للبعث بعد الموت، وعمل على تقريره كأصل من أصول الدين، وركيزة من ركائز الإيمان برب العالمين سبحانه وتعالى.

هذا، وقد كان لتلك الخصائص أثر تفسيري بعيد المدى؛ إذ لفتت الأنظار إلى حقيقة زوال ظرفهم المترتب عليه استلزاما زوالهم، مع الإعراب عن غاية وجودهم فيه، ممثلة في اختبارهم وابتلائهم، وبهذا تتحدد وظيفة الإنسان في الزمكان، ويؤهله لاجتياز ما

---

[1] **قال ابن فارس مؤصلا:** "(عَوَرَ): (الْعَيْنُ)، وَ(الْوَاوُ)، وَ(الرَّاءُ): أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا يَدُلُّ عَلَى تَدَاوُلِ الشَّيْءِ، وَالْآخَرُ يَدُلُّ عَلَى مَرَضٍ فِي إِحْدَى عَيْنَيِ الْإِنْسَانِ، وَكُلِّ ذِي عَيْنَيْنِ. وَمَعْنَاهُ: الْخُلُوُّ مِنَ النَّظَرِ. ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ، وَيُشْتَقُّ مِنْهُ. فَالْأَوَّلُ: قَوْلُهُمْ: تَعَاوَرَ الْقَوْمُ فُلَانًا، وَاعْتَوَرُوهُ ضَرْبًا؛ إِذَا تَعَاوَنُوا، فَكُلَّمَا كَفَّ وَاحِدٌ؛ ضَرَبَ آخَرُ. وَالْأَصْلُ الْآخَرُ: الْعَوَرُ فِي الْعَيْنِ". مقاييس اللغة (عور): 184/4 وما بعدها بتصرف.

[2] **قلت:** وهذا ما أفهمه قوله سبحانه وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: 41]، أي: من أطراف كرتها؛ لأنه من المعلوم أن الأرض كروية، والأطراف متصلة بها جزء منها، وفيه إشارة بانقضائها وفق مسار دائري حلزوني، وبهذا يتناغم مع التعبير بمداولة الأيام، ويستجيب لمقتضاه بما لا غاية وراءه!.

يعرض عليه من فتن وابتلاءات، ويقصر نظره على ما يجب عليه، ويجنبه الطمع فيما يزول ويفنى، ويوجه رغبته فيما ينتظره من دار أبدية، ونِعَمٍ سرمدية.

الإيذان بأبرز مقوماته:

لما كان العصر ظرفا للإنسان؛ كان من البدهي أن يكون معدا لاستقباله، مهيئا لوجوده، محفوفا بمقومات بقائه، وقد تقرر ذلك بما لا غاية وراءه في إطار مطاوي مادة (ع ص ر)، لاسيما مدلولات: الليل والنهار وما يتخللهما من أجزاء زمانية مختلفة، وما في تعاقبهما من نعم عظام، وآيات عجاب، تعجز العقول عن حدها حصرًا، وتتراجع في سبيل إدراكها كنهًا، وتقعد العبارات عن التعبير عنها كَلِمًا، وتحف المداد في سبيل نقشها رسمًا؛ لما يترتب على ذلك من الحكم المتنوعة، والآيات المتعددة، والبراهين الدامغة الدالة على تدبير رباني مطلق، وكمال إلهي محقق.

كما آذنت بعض دلالات المفردة واستعمالاتها بأهم ما يحدث في مسماها، وأسمى مقوماته لبقاء البشرية، لاسيما في ضوء الاستعمالات التالية: الريح التي تثير السحاب، السحابات الممطرة؛ لكونها تجيء بالمطر، وتأتي بالإعصار (وهو ريح تثير الغبار)، المطر وإتيانه، غلة الأرض؛ ومن ثم فقد حُفَّ الظرف بأسمى مقومات مظروفه، أعني: الإنسان (بل وسائر المربوبات)، فأحاطه بجميع مظاهر العناية، وضمنه أسباب بقائه، وضَمِنَ مسبباتها المترتبة عليها، وقَنَّنَ علاقة السببية في الأشياء كلها، فحقق مقوماته في هذا الظرف المجعول له.

وحتى نقف على تلك الحقيقة ونستشعرها؛ ننظر ونعايش مثلا واقعيا يمثل أحد أبرز تلك المقومات، وليكن رزق الإنسان؛ فسنجد أن خالقه سبحانه قد أمده برزقه مصورا في أبرز أسبابه العظيمة، ولائحا في بدائع خلقه سبحانه القويمة، ولا شك أن تلك الأسباب، وتينك المقومات لهي من فعل خالق الكون، واجب الوجود، واحد الذات والصفات والأفعال، بما لا سبيل لإنكاره، ولا مناص من تصديقه وإقراره، كما أنها قد جاءت منبئة عن رحمة إلهية، ورعاية ربانية، وفق تدبير حكيم، وإبداع خبير، ليس إلا لله تعالى: خلقا، وملكا، وتصرفا.

فننظر في الأسباب المعدة للحصول على ذلك الرزق؛ فنجد أن دورة الحياة أوضح ما يمثلها الماء (المطر)، وهو يأتي من خلال: الرياح، والسحابات الممطرة، ولكن الماء وحده ليس كافيا لإيجاد الرزق، فلابد من وجود تربة ارتبط سبب إنباتها بوجود ذلك الماء، وليس هذا فحسب بل لابد من الشمس؛ لتمد هذا النبات بالطاقة، وحتى تقوم الشمس بعملها؛ لابد من أن تتحرك الأرض لتواجه بأحد جزئيها شعاع الشمس؛ حتى يتمكن النبات من قيامه بما هو معروف بعملية البناء الضوئي، إلا أن هذا– أيضا– ليس كافيا؛ إذ لابد من وجود ظاهرة النهار الحياتية، وحتى تتم؛ لابد من تحقق أمرين: **الأول**: أن تواجه الأرض الشمس، **والثاني**: أن يتوفر على سطح الأرض الغبارات والهباءات وقطرات الماء؛ فهي من الأسباب المحققة لظاهرة النهار على كوكبنا؛ لكونها تسبب انعكاسات الضوء، وتشتته، وترده إلى الشمس؛ فتجليها[1]، كما صرحت به آيات الذكر الحكيم: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس: 3] [2]، وما يستتبع ذلك من التمكن في حركة الحياة؛ لارتباطها بتلك الظاهرة، وترتبها عليها لا محالة، مما من شأنه حفظ تلك الحركات، ثم لابد من وجود الإنسان نفسه الذي يقوم بالزرع والحصاد، ثم بعد كل ذلك تنتج الأرض

---

[1] **قلت**: ومن ثَمَّ كان مدلول: (الغبار الذي يستدير ويسطع)، له بعده وإيحاؤه؛ إذ لولا وجود الغبار والهباءات في الكون؛ ما حصل على سطح كوكبنا ظاهرة النهار الحياتية؛ فهو أحد أهم أسباب حدوثها، ومما لا شك فيه أن تلك الظاهرة ضرورة حياتية، وأحد أهم سبل بقاء البشرية على الكرة الأرضية، كما سيتجلى تفصيله في المبحث الخامس والأخير– إن شاء الله تعالى–.

[2] **قلت**: فالإسناد في الآية على سبيل الحقيقة لا على سبيل المجاز كما ذكر جُلُّ السادة المفسرين إن لم يكن إجماعا منهم، وعليه فإن تلك الحقيقة التي لم يعرفها البشر إلا في القرن العشرين، قد سبق في تقريرها القرآنُ الكريمُ، المنزل من العزيز الحكيم! وهو يدعم مكتشفات البشر العلمية، ويشهد بصدقها؛ ومن ثُمَّةَ كان هذا في واقع الحال سبقا قرآنيا بيانيا، لا اكتشافا علميا ابتدائيا كما قد يتوهم. وعليه يدل قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: 53].

غلتها؛ فيحصل الإنسان على قوته، وقت دوابه، الذي يمثل المقوم الأساس للإنسان، وإنما حدث كل ذلك وفق اتزان حكيم، وميزان مستقيم، وتدبير بديع، لا يسع البشر القيام بحق حفظه، فضلا عن ادعاء القدرة على إنشائه، والجسارة بزعم إبداعه.

وعليه فقد مثلت مطاوي مادة (ع ص ر) مرحلة الحياة بكاملها، ونَوَّهَتْ بعناصرها: ظرفا ومظروفا، وارتسمت دروتها، وكشفت عن مراحلها، وأبرز أحداثها ضمن أسبابها ومسبباتها؛ فبينت أن ثَمَّ ظرفا زمانيا ومكانيا قد قُدِّرَ للمربوبات، وقد حُفَّ بمظاهر العناية الفائقة، ووجوه الحكمة الرائقة، فجمعت المفردة المذكورة (العصر) في مطاويها أسمى الظواهر الحياتية الممكنة لبقاء البشرية، مع بيان ارتباط تلك الظواهر بأسباب حدوثها، ومسبباتها، وقد تظاهرت جميعها؛ لتوفير أقوات البشر، بل وأقوات دوابهم التي يعتمدون عليها في مآكلهم، ومشاربهم، ومحلهم؛ فتقرر في ضوئها وجود نظام حياتي متكامل وجودا واستبقاء، بما يعجز عنه البشر متظاهرين؛ فيكشف عن رحمة وتدبير رب العالمين.

الإفصاح عن سر القسم بالعصر:

هذا، وقد تجلى أن العصر له معان عديدة، وله على كل معنى حيثية أكيدة، من شأنها الإعراب عن سر القسم به؛ **فعلى أن المراد به الدهر والزمان**، فالسر أنه عبرة للناظرين في تعاقب الليل والنهار المنبئ عن تقدير الأدوار، ولما في مروره من أصناف العجائب، وضروب المغايرات، وأنماط الملابسات الدالة على كمالاته تعالى، الداعية إلى الإقبال بالكلية عليه، وصرف الهمم إليه تعالى، وقصرها عليه سبحانه، فضلا عن كونه ظرفا لحركات بين آدم من خير وشر، منوها بتغاير أحواله تبعا لأعماله، وتنوع مصيره طبقا لاختياراته.

هذا، وثَمَّ سبب آخر يفصح عن حيثية القسم بالعصر باعتباره الدهر، وهو تصحيح التصور الإيماني بشأن بعض الفهوم المغلوطة، والمعتقدات المطروحة. **وبيانه**: أن هناك اتجاها من المشركين بإضافة الخسران إلى نوائب الدهر والأيام؛ فكان في القسم بالعصر أبلغ رد، وأحكم بيان، كما أن فيه تعريضا بنفي ما يضاف إليه من الخسران.

قال الإمام البيضاوي معللا: " أقسم سبحانه بالدهر؛ لاشتماله على الأعاجيب، والتعريض بنفي ما يضاف إليه من الخسران " [1]. **وقال الإمام الشوكاني**: " أقسم سبحانه بالعصر؛ لما فيه من العبر، من جهة مرور الليل والنهار، على تقدير الأدوار، وتعاقب الظلام والضياء؛ فإن في ذلك دلالة بينة على الصانع عز وجل، وعلى توحيده " [2].

وقال الإمام الألوسي: " أقسم سبحانه به كما أقسم بالضحى؛ لما فيهما من دلائل القدرة. وقال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: هو الدهر أقسم عز وجل به؛ لاشتماله على أصناف العجائب، ولذا؛ قيل له: أبو العجب؛ وكأنه تعالى يذكر بالقسم به ما فيه من النعم، وأضدادها؛ لتنبيه الإنسان المستعد للخسران والسعادة، ويعرِّض عز وجل؛ لما في الإقسام به من التعظيم بنفي أن يكون له خسران، أو دخل فيه، كما يزعمه مَنْ يضيف الحوادث إليه، وفي إضافة الخسران بعد ذلك للإنسان، إشعار بأنه صفة له لا للزمان " [3].

قلت: وقد أثمر الحكم المذكور التعريض بالمشركين: فعلا، ومعتقدا؛ حيث كانوا يضيفون الخسران إلى الدهر ونوائب الأيام؛ فعُنِيَ جواب القسم بالكشف عن حقيقة الحال، مبينا أن الخسر إنما هو حكم على الإنسان بمقتضى أنه إنسان، أما العصر فهو في ذاته نعمة إلهية عظيمة من المنان، لا عيب في ذاتها ولا خسران، إنما العيب والخسران في بعض مظروفاتها، ممثلا في بني الإنسان، وهو منفي عنه؛ متى استقام؛ فاعتبر بتلك النعمة، وعلى مقتضاها استقام.

---

[1] أنوار التنزيل: 336/5 بتصرف يسير.

[2] فتح القدير: 600/5.

[3] روح المعاني: 457/15 وما بعدها بتصرف.

وفي هذا الصدد قال الإمام الرازي: " إنهم كانوا يضيفون الخسران إلى نوائب الدهر؛ فكأنه تعالى أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان. ولأنه تعالى ذكر العصر الذي بمضيه ينتقص عمرك، فإذا لم يكن في مقابلته كسب؛ صار ذلك النقصان عن الخسران " [1].

وعلى أن المراد به: عصر النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، أو هو زمان حياته عليه الصلاة والسلام وما بعده إلى يوم القيامة؛ فلكونه يعد نمطا من استيفاء التنويه بظروفه: زمانا، ومكانا، المستتبع بالضرورة تعظيمه، وتشريفه عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام.. إلخ. وفيه من الحث على اتباعه عليه الصلاة والسلام، والإشادة برسالته، والتنويه بمنهجه ما لا يخفى. كما أن فيه من التسلية له صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ولِمَنْ معه من المتبعين رضي الله تعالى عنهم أجمعين، بكونهم خلاصة بني الإنسان، وبكون زمانهم خلاصة الأزمان، وبكون شريعتهم خلاصة الأديان بما لا غاية وراءه!.

قال الإمام الألوسي: " قيل: المراد به عصر النبوة؛ وكأنه عنى به وقت حياته عليه الصلاة والسلام؛ كأنه أشرف الأعصار؛ لتشريف النبيّ صلّى الله تعالى عليه وآله وسلم " [2].

وعلى كون المراد به صلاة العصر؛ فلما لها من فضل في الأداء، ومشقة في التكليف؛ لكون وقتها مظنة تهافت الناس في أشغالهم، وتحصيل معاشهم. **وهذا ما ألمح إليه الإمام البقاعي قائلا:** " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ [العصر: 2]، أي: هذا النوع الذي هو أشرف الأنواع؛ لكونه في أحسن تقويم، كما أن العصر خلاصة الزمان، والعصر يكون لاستخراج خلاصات الأشياء " [3].

وقال– أيضا– في سر تسمية صلاة العصر: " تسميتها بالعصر مدحة ووصفا من حيث إن العصر خلاصة الزمان كما أن عصارات الأشياء خلاصاتها، فعصر اليوم هو خلاصته؛ لسلامته من وهج الهاجرة، وغسق الليل، ولتوسط الأحوال والأبدان والأنفس بين حاجتي الغداء والعشاء التي هي مشغلتهم بحاجة الغذاء " [4].

هذا فضلا عن كونها تحمل الإشارة التمهيدية إلى قرب انتهاء دار الفناء؛ إذ إن وقتها الذي هو زمان النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ومقداره فيما مضى من الزمان بمقدار وقت العصر من النهار أو بعضه [5].

قلت: وفيه إلماح إلى قرب الساعة، وتحقق البعث لا محالة. وعليه يدل قول النبي عليه الصلاة والسلام: " بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ، أَوْ: كَهَاتَيْنِ، وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى " [6].

وفيه– فضلا عن ذلك– من أنماط الوعيد، وضروب التهديد على الإعراض والتكذيب ما لا يحيط به الوصف عبارة وكلما، ولا يكتنهه القلم خطا ورسما!.

وعلى أن المراد به: العشي، وما في معناه؛ فلما فيه من دلائل القدرة الدالة على كمال العظمة. **وعلى أن المراد به:** زمان كل أحد؛ فلما أنه هو الخلاصة بالنسبة إليه، وفيه من التنبيه على نفاسته، وعراقته؛ ما يدعو إلى اغتنامه في إنفاق الخير؛ إشفاقا من الحشر، وما يستتبعه. **وعلى كون المراد به:** وقت الأصيل؛ فلما له من فضيلة بما يحويه، وبما دلَّ عليه. **وهذا ما صرح به الإمام**

---

[1] التفسير الكبير: 277/32 بتصرف.

[2] روح المعاني: 458/15.

[3] نظم الدرر: 237/22.

[4] نظم الدرر: 365/3 بتصرف.

[5] ينظر نظم الدرر: 236/22.

[6] **صحيح متفق عليه:** أخرجه البخاري– واللفظ له–: كتاب الطلاق، باب اللعان، برقم (5301)، من حديث سهل بن سعد رضي الله تعالى عنه. صحيح البخاري: 53/7. وكتاب الرقاق، باب قول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: "بعثت أنا والساعة كهاتين"، برقم (6503): 150/8. ومسلم– بلفظ مقارب–: كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (867)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما. صحيح مسلم: 592/2. وكتاب الفتن وأشراط الساعة، باب قرب الساعة، برقم (2950)، من حديث سهل رضي الله تعالى عنه: 2268/4.

البقاعي؛ حيث قال في معاني (العصر): " وقت الأصيل؛ لأنه أفضله بما يحويه من الفراغ من الأشغال، واستقبال الراحة، والحصول على فائدة ما أنفق فيه ذلك النهار، وبما دل عليه من طول الساعة، وربح مَنْ كان له فيها بضاعة؛ باختتام الأعمال، وتقوض النهار، **والدال على البعث** " [1].

وعلى ذلك فقد نَوَّهَ القسم بالعصر بجليل القضايا العقدية، لاسيما إثباته لوجوده تعالى، والاستدلال على وحدانيته سبحانه، وتقرير صدق رسالة نبيه عليه الصلاة والسلام، والتأكيد على البعث للأنام، بمخاطبة العقول بالأدلة العقلية تارة، ومخاطبة النفوس بالامتنان، واستجاشة الفطر بالتذكير تارة أخرى.. وهذا إجمال يُعْنَى المبحث الأخير ثَمَّ بتفصيله، والإطناب في عرض قضاياه.

التنويه بحقيقة فعل العصر بالإنسان:

هذا، وبعض ذي المعاني قد نَوَّهَ بحقيقة فعل هذا الظرف بالإنسان الذي هو مظروفه، موضحة هذه الحقيقة في صورة الشيء الذي يعصر، فينتج عنه أمران. الأول: النفاية المتبقية عنه. والثاني: العصارة الخارجة منه. فهكذا حال الإنسان فيما يفعله الدهر بنوازله، وهذا ما يعتريه من فتن وامتحانات على نحو ما قد نطقت به آيات القرآن.

ففي حدث العصر دليل واضح الدلالة على أن الدنيا دار ابتلاء، ومقر امتحان، ومقام شدائد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 4]، وقال سبحانه: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: 35]. وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: 2]. وأفضل ما يحاكي كل ذلك هو حدث العصر. لذا كان من أصول مادة (ع ص ر): ضغط شيء حتى يتحلب، فهذا المدلول أفضل ما يصور معنى الكبد، والفتن والابتلاء والاختبار، ومن المعلوم: أنه بذلك يصفو المرء من كوادره، ويخلص من شوائبه، وفي ذلك من التسلي للنبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم إزاء تكذيبه، ومَنْ معه من المؤمنين إزاء تعذيبهم، ما يعجز عن حده الكَلِمُ، ويتراجع عن رسمه المدادُ والقَلَمُ.

الإيغال في ارتسام علاقة المظروف بظرفه:

وبعضها أوغل في شرح علاقة المظروف بظرفه؛ فبين أن عليه أن يتخذه ملجأ للنجاة، وطوقا للوصول، وسبيلا مخلصا من الغرق، وبذلك يتم التمهيد لتتمات القسم، وهو الاستثناء وما في حيزه؛ لكونه شمل قضايا من شأنها ارتسام ما يجب أن يفعله المرء داخل ظرفه، مصورا كيف يكون له ملجأ، وكيف يكون هو طوق نجاته؟ وكيف يخلصه من الغرق؟ فكل هذه الأسئلة وما هو من بابها، قد أجاب عنها أسلوب الاستثناء وما في نظمه من قضايا الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق، وبالصبر، فهي السبيل لجعل الظرف ملجأ ونجاة، وفرارا وخلاصا. كما أسهمت بعض مدلولات المفردة في توجيه العقول نحو انتظار العطاء، وترقب النوال، واستنباط الخير من ظرف وجودهم، والاستدلال به على خالقهم، ومدبر أمورهم، وترقب جوده، وعطائه استمدادا من واقع حياتهم المعدة بإحكام وإتقان ينبئ عن كامل الرعاية، وتمام العناية بجنس الإنسان.

وهذا ما تجلى عند الإمام البقاعي قائلا في أحد تأويلات (العصر): " إنه زمان كل أحد، الذي هو الخلاصة بالنسبة إليه؛ تنبيها له على نفاسته؛ إشارة إلى اغتنام إنفاقه في الخير؛ إشفاقا من الحشر، أو جميع الدهر الذي أوجد فيه سبحانه وتعالى المخلوقات، وقدر فيه المقدورات بما ظهر فيه من العجائب الدالة على ما لله تعالى من العز والعظمة، الداعي إلى صرف الهمة إليه، وقصرها عليه " [2].

كما أن مدلول: الملجأ– أيضا– قد أثمر أثرا تفسيريا بعيد المدى؛ إذ أوحى بما يكون عليه الإنسان في المجمل من أحوال، مرتسما حاله من الاستغراق بشهوات الدنيا، مصورا انكبابه على لذاتها، مسطرا انقطاعه عما عداها، وكأنها هي داره الأولى والأخيرة، لافتا نظره للظرف الذي ركن إليه، وتوجهت رغبته في الانهماك فيه، وتعلقت نفسه بلذاته الفانية، ببيان أن حال الظرف المحيط به يدور في فلك: التغير، والانقلاب، والنقص، بل والزوال، معلنا أنه ما هو إلا أداة من شأنها عصر ما فيه، ومحل نقص لما

---

[1] نظم الدرر: 236/22.

[2] نظم الدرر: 236/22 وما بعدها بتصرف.

بداخله، ومقام زوال؛ فكيف تعلقت به الرغبات! وكيف ركنت له النفوس! وكيف انقطعت عليه الحركات! وقطعت لأجله المسافات!.

هذا، وباجتماع مدلولات: (الملجأ، العطية، الالتجاء، الكرم، العطاء، انتظار الخير، الدنية، مثل للخير والنوال..) إلخ، يرتسم بالغ تعلقهم بهذا الظرف، ويعلن عن كامل رضاهم بالحياة الدنيا واطمئنانهم بها. وعليه يدل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: 7، 8].

ومدلول: (ما بقي من الرطب في بطون الأرض ويبس ما سواه)، يضفي على النظم قوة وفعالية؛ إذ يوحي بمصير الإنسان بعد أن يعتصره الدهر والزمان؛ فيحوله في آخر حياته إلى شيء له شقان. الأول: نفايته وما يتبقى من عصره، والثاني: خلاصته وأنفس ما يخرج من جوهره، فأكد هذا المدلول على أن هناك شيئا رطبا وآخر يابسا، وهذا ما يوازي نفاية المعصور وخلاصة العصير، مصورا في ظله حقيقة المرء بعد الموت، من تحلل أجزائه مع استخلاص روحه، ومن ثَمَّ ترتب البعث والجزاء عليه لا محالة.

أوجه تمكن المفردة في نظمها، وسر تعينها دون سواها:

ومما سلف يظهر أوجه تمكن المفردة القرآنية في نظمها، ويتبين سر تعينها في مقامها، وتتجلى حيثيات إعجازها؛ حيث قد كشفت عن حقيقتها، وأظهرت خصائصها، وصرحت بمظاهرها، ونَوَّهَتْ بحقيقة فعلها بمظروفها، وأوغلت في ارتسام علاقته بها؛ إذ علم منها أننا أمام ظاهرة شأنها التغيير، وموقف الناس إزاءها انتظار الخير، وترقب العطاء، ومظاهرها هي تلك الحوادث الجارية في زمنها، ومكانها؛ إذ لا يتصور زمان بلا مكان، ولا العكس، فكل منهما بعد واحد يجمعه مصطلح الزمكان.

كما نظمت في مكنوناتها نمطا من المشقة يفهم في ضوء معاني: المنع، الإعصار، الدنية، التغيير، التأخر، الحبس (مما يوحي بأن المظروف محبوس بداخله)، ما يعصر به، والسفر لاسيما إذا ما كان المتسم بتلك المادة البعير المعصور مع ما عرف عنه من الصبر وقوة التحمل. وكذا تشير إلى تصرف معين يسند إلى الإنسان، من أعمال كالغص بالطعام، وشرب الماء، وإخراج مال بغرم.. وغير ذلك مما هو من قبيل المكدرات الدنيوية، ومن صنوف المنغصات الحياتية.

ومن عناوين تمكنها نظما، وقوة إعجازها بيانا: أنه لما كانت السورة الكريمة تُعْنَى بالاستدلال على جُلِّ القضايا العقدية، كان لابد من التلويح بخصائص المخاطبين، وبما يناسب أحوالهم؛ فكان من مدلولاتها: بلوغ عصر الشباب والإدراك؛ مما يقيم الحجة عليهم، ويدحض أعذارهم.

ويتجلى أوثق وجوه تمكنها في نظمها في ضوء استحضار علاقتها بالمقسم عليه؛ فقد يتساءل أحد لماذا أقسم الله جل جلاله بالعصر دون غيره من الظروف المتعددة، كالفجر، والضحى، والليل، والنهار.. وغيرها؟ وجوابه يتقرر تفصيلا عند الحديث عن المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه، في المبحث الثالث.

الجانب التصويري في عمارة البناء القرآني:

ومما سبق يتقرر: أن المقسم به إما أن يكون اسما، ويراد به: الدهر والحين، أو يكون مصدرا فهو ذلك الحدث المجرد، وقد أضفت تلك التسمية (أعني: تسمية الدهر بالعصر باعتباره اسما أو حدثا) بمعان بعيدة، وإيحاءات شديدة، فكأنها تخاطب الإنسان معتمدة مبدأ التصوير الحدثي قائلة له: أنت معصور لا محالة، كما أن ظرفك نفسه قد عصر إلى أن بلغك، وانقضى منه ما قبلك [1]، ومن المعلوم: أنه بعد العصر يحدث أمران: **الأول**: الجانب المجني من حدث العصر. **الثاني**: النفايات المتبقية منه. وهكذا شأن الإنسان؛ فما يعصر منه بمثابة أعماله الحسنة، وما يبقى كنفايات بمثابة الأعمال السيئة، وتعلقها بآلة العصر يصور تعلق الإنسان بهذا الدهر، فهو تبع لتلك الأعمال، فلكونها سيئة علقت بالموضع الذي تعصر فيه، والإنسان عالق بالدهر الذي يعصره؛ لسوء ما قدم. وعليه فليحرص كل مخلوق على أن تكون أعماله خيرا. وبذلك صُوِّرَ المقياس الذي يرغّب في الحياة،

[1] **قلت**: وفيه إيحاء بأن الزمان كان لأجل بلوغ عصر النبوة المحمدية، وكأن الحال أن المفردة توحي بإشارة مضمونها: كن كحال ظرفك؛ فظرفك أشرف أجزاء الدهر؛ فلتكن لائقا به أفضلَ مظروفاته.

والمقياس الذي يزهد فيها، فمَنْ قدَّم خيرا؛ رغب في الخروج منها كما تخرج العصارة والخلاصة من الشيء المعصور، ومَنْ قدم شرا؛ علق بها، وخشي الخروج منها، وصار كالنفايات العالقة بعد العصر.

الإشارات الكامنة في طيات المفردة القرآنية:

هذا، ومن الإشارات الكامنة في المفردة: أن الروح شائعة في الجسم كما أن المادة المعصورة شائعة في الشيء الذي يعصر. وأن الذي يكتسب القبائح هو الجسد والجوارح، ويمثله الجزي المادي من النفايات المعصورة المخلفة. وأن الروح تعود إلى بارئها نقية مصفاة من العلائق الجسدية، كما يحدث في صورة حدث العصر باستخلاص أنقى ما فيه، وتقديم خلاصته. **قلت:** وعليه فإنه من بديع الحكمة الإلهية، وجليل العناية الربانية: أن قدر للأجساد البلي والتحلل، ثم إعادة خلقها، وإرجاع تكوينها بعد البعث؛ لتكون بذلك جديرة بما قد أعد لها جزاء أعمالها، هذا بالنسبة للمؤمنين، أما وقوع هذا بالنسبة للكافرين فحتى يَتَأَتَّى تعذيبهم على آكد وجه، وأبلغ وقع!.

ومنها: أن المفردة تحمل الإشارة إلى أن العصر باعتباره الدهر هو محبس ومعتقل لمظروفه (الإنسان)، ومظروفه محبس لنفسه ومعتقله، فالروح حبيسة البدن، والبدن حبيس العصر، فإذا انتهى العصر؛ ينتهي البدن ويزول، وتتجرد الأرواح وتعود إلى بارئها نقية مصفاة.

ومنها: أن المفردة تخبرنا ضمنا بحال هذا الإنسان وعلاقته بالدهر، فيعتبره الملجأ، ويلوذ به، ويركن إليه، ويرجو عطاءه، ويترقب فضله، وينتظر كرمه. وهذا ما أومأت إليه بعض مطاويها لاسيما: الكرم، العطاء، الملجأ المكاني المادي، والأمر المعنوي. كما أنها تحذر هذا الإنسان رغم سوء اختياره بالمعاني الحسية لاسيما مدلول: موضع يعصر فيه شيء؛ حتى يتحلب ماؤه، إذ إنه يصور حقيقة ما يفعله الدهر بمظروفه الإنسان.

ومنها: أن المادة (ع ص ر) ترتسم حال تعلق الإنسان بالدهر، في صورة تعلق النفايات المعصورة بما وضعت فيه لتعصر، كما تصور أنه رغم اعتصاره فهو متمسك بها مهما حدث له، حريص عليها مهما أصابه، فتعانقت أصول الكلمة في ارتسام حقيقتها، وإكمال وظيفتها، وترجمة رسالتها، فالأصل الأول لها: الدهر، والثاني: التعلق بشيء والامتساك به، فجمعت بأصليها كلا من: العاصر مصورة حاله (وهو الدهر مجازا)، والمعصور (وهو الإنسان) مصورة شأنه من غاية تعلقه، وامتساكه به. ولا يخرج من هذا الإطار إلا مَنِ استثناه رب العباد سبحانه، بعدما وفقه للدخول في زمرة المؤمنين العاملين المتواصين.

ومنها: أنه قد تبين أن مدلولات مادة (ع ص ر) محل نقصان، ومقام خسران، ومناط تغير، وتبدد، وزوال، لذا؛ فهي بينة صدق، ودلالة حق، على قضية جواب القسم، وتقرير دعواه بأبلغ برهان!

هذا، وبعد هذا التأصيل الذي يقرر بالغ الإحكام الشائع في ظرف الزمكان، قد يركن الإنسان إلى هذه الحياة الدَّنِية بعدما شاع فيها من مظاهر تدبيرية، ولاحت فيها أنماط العناية الربانية، ولكن الحكمة الإلهية تأبى إلا الاحتياط، وتنشد دائما إماطة اللثام عن الحقيقة بكل جوانبها.

فتسير مادة (ع ص ر) حاملة في طياتها باقي قصتها، وتتمة عناصر تاريخها؛ فتروي حكايتها على آذان المخاطبين بها، وتوغل في التعريف بما يكشف النقاب عن حقيقتها، ويحذر منها، ويبعث على عدم الركون إليها؛ فتذكر الإنسان بما أحاطه من ظروف، وما شمله من أحداث، بأن شأن المربوبات التغير، ودأبها عدم الاستقرار، وتَلفت نظره إلى أن كل الأحوال إلى زوال، وأنت أيها الإنسان كمظروف ثابت لك خصائص ظرفك لا محالة، فشأنك التغير، وديدنك التحول، وأمرك إلى زوال، ونقصان؛ ومن هنا يحدث التمهيد السياقي إلى قضية جواب القسم ببليغ إحكام، ومتانة سبك، وروعة بيان؛ فلله سبحانه دَرُّ ذلك القرآن!.

المبحث الثاني

السبيكة الثانية: فرائد المقسم عليه

جاءت السبيكة الثانية وهي جواب القسم ممثلة في قوله عز شأنه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾. وقد أكدت بعدة تأكيدات داعية في مجملها إلى التساؤل بشأنها، وهي: (إن)، واسمية الجملة، و(اللام) في خبرها، فضلا عن كونها ابتداء في عقد أسلوب القسم الذي يعد ضربا من ضروب تأكيد الكلام، وفنا من فنون تقريره.

قال الشيخ عبد الكريم الخطيب مبينا وجه النظم: " وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ هو المقسم عليه، وهو جواب القسم " [1]. وقد نظمت تلك السبيكة من خمس مفردات متلألئات، لكل منها وظيفتها السياقية، وأسرارها البيانية، ورسالتها الإلهية، وفيما يلي تفصيلها.

المطلب الأول: المفردة الأولى: ﴿إِنَّ﴾ خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية:

تقرر أن التصدير بالقسم له دلالته؛ حيث إنه- كما هو المشهور- للتأكيد، وهو يوحي بالإنكار المتعلق بإثبات قضية المقسم عليه ابتداء، وإلا ما احتاج المقام إليه؛ مما يَلفتنا إلى أن القضية المعبر عنها بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ..﴾ محل ريب وإنكار رغم تحققها في ذاتها. فيأتي القسم لتوكيدها في النفوس، واستقرارها كقاعدة ثابتة في العقول، مع الإيحاء بتحققها واقعا، وتقررها عبر الأزمان حالا ثابتا.

وفي تقرير هذا المعنى قال الإمام الماتريدي: " خرج قوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ مخرج القسم، والقسم موضوع في الشاهد؛ لتأكيد ما ظهر من الحق الخفي، أو لنفي شبهة اعترضت، أو دعوى ادعيت؛ فكذلك في الغائب. ثم الأصل بعد هذا: أنه ليس في جميع القرآن شيء مما وقع عليه القسم إلا إذا تأمله المرء، واستقصى فيه؛ وجد فيه المعنى الذي أوجبه القسم لولا القسم " [2]. **وقال الإمام البقاعي:** " أكد بالقسم والأداة لما للأغلب من التكذيب لذلك إما بالمقال أو بالحال؛ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ " [3]. **وقال الإمام ابن عاشور:** " أقسم الله تعالى بالعصر قسما يراد به تأكيد الخبر، كما هو شأن أقسام القرآن " [4].

قلت: ومن هذا المنطلق فقد جاءت جملة جواب القسم مؤكدة بـ ﴿إِنَّ﴾ استجابة لمقامها، وخضوعا لحالها، واتساقا مع طابع أسلوبها، فأوحت بكون الخبر المتلقى بها محل إنكار وشك، رغم كونه حقا مؤكدا، وصدقا مقررا؛ فآذنت ابتداء ببعد نفسي مشعرا بطبائع المخاطبين، ومسهما في تسجيل بعدهم عن الحقائق، وتكذيبهم بمقتضى الدلائل، مرتسما انهماكهم في سوء رغباتهم، مصورا انكبابهم على تحصيل المطالب الدنيوية، والسعي إلى بلوغ اللذات الدنية، موحيا بأنها بالنسبة إليهم هي الملجأ الدائم الذي لا يزول؛ ومن ثَمَّ فحملت الإشارة التمهيدية لعنوان اسمها (الإنسان) بما في مطاويه من صفات وخصائص، مؤذنة بما سيسند إليه من رذائل وقبائح؛ فكانت هي الأبلغ اتساقا مع عنوانه، والأكثر تناغما مع توطئة النفوس لتلقي الأحكام المسندة إلى موضوعه.

العلاقة بين معنى المفردة وبين طبيعتها التأليفية، وخصائص أحرفها الدلالية:

فإن قلتَ: ما السر في إفادة هذه المفردة التوكيد، والقيام بوظيفته دون سواها؟ **قلتُ:** إن هذه المفردة قد أنيطت بها وظيفة التأكيد؛ لحيثيات ترجع إلى طبيعة ترتيبها التأليفية، وخصائص أحرفها الدلالية، وطريقة نطقها البيانية.

ومن ثَمَّ قال أ.د/ حسن عباس: " التوكيد يتحكم بمعانيها كيفما استعملت. ويرجع أصل خاصية التوكيد فيها إلى أن أصول معظم معانيها واستعمالاتها تعود إلى خاصية البطون أو الصميمية، في طريقة النطق بصوتها؛ إذ إنه يخرج من صميم الذات على صفاء، ونقاء، وبشيء من الفعالية. وقد أفاد العربي من هذه الخاصية فاستعمل (النون) للتعبير عن ذاتيته الإنسانية إلى ضمائر

---

[1] التفسير القرآني للقرآن: 1669/16.

[2] تأويلات أهل السنة: 611/10 بتصرف.

[3] نظم الدرر: 236/22 بتصرف.

[4] التحرير والتنوير: 528/30.

المخاطب في (أنت، أنتم..)، وكذا في التكلم (أنا)، وذلك وفقا لتوافق حرفيها؛ إذ إن (الهمزة) انفجار صوتي، من موحياته: الظهور، والحضور. أما (الكسرة) فتشير إلى تحت، وهنا إلى الذات ضمنا. و(النون) المشددة تشير إلى الصميمية بمزيد من التوكيد؛ مما يفيد التعبير عن رسوخ ذات المتكلم، وتوكيدها في مواجهة العالم الخارجي. وبهذا يتقرر أن أصل (إنَّ) هو (إنِّي)، وليس العكس؛ لأن خاصية التوكيد في (إن) هي في الأصل مقتبسة من خاصية توكيد ذاتية المتكلم في (إني). إذن فخاصية التوكيد فيها مردها بالدرجة الأولى على ما يبدو لي كسرة (الهمزة) أولا. وذلك؛ لأن (الكسرة) تشير إلى ذات المتكلم؛ فتضفي على معنى (إنَّ) التزاما شخصيا بصدق ما يقوله المتكلم بعدها. أما خاصية التوكيد في (نونها) المشددة فمردها معاني الصميمية والذاتية فيها. وهكذا تتضافر المضامين الذاتية والشخصية في هذين الحرفين؛ لتجعل من (إنَّ) حرف توكيد بالدرجة الأولى " [1].

قلت: وخصائص حروف المفردة الدلالية مسهم في ارتسام مراحل معناها البيانية؛ إذ إن التأكيد يقتضي أن يكون ثَمَّ معنًى موجودا أولا، ثم تتدخل عليه عوامل تأكيده، وترد عليه سبل تقريره، وتخرجه من حيز البطون والصميمية إلى حيز الظهور والانكشافية. وهذا ما يقوم به حرفا المفردة، ويتسق مع خصائصهما؛ إذ إن (الهمزة) بدلالتها الصوتية تدل على قوة المعنى، وشدة الحدث، ووعائية تحققه. وهذا ما أفهمه العلامة ابن جني مؤصلا له تحت عنوان (باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني)؛ فقال: "هذا غور من العربية لا ينتصف منه، ولا يكاد يحاط به، وأكثر كلام العرب عليه وإن كان غفلًا مسهوًّا عنه، وهو على أضرب: من ذلك قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: 83]، أي: تزعجهم، وتقلقهم، فهذا في معنى تهزّهم هزًّا، و(الهمزة) أخت (الهاء)، فتقارب اللفظان؛ لتقارب المعنيين. وكأنهم خصّوا هذا المعنى بـ (الهمزة)؛ لأنها أقوى من (الهاء)، وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهزِّ؛ لأنك قد تهز ما لا بال له كالجذع، وساق الشجرة، ونحو ذلك. فقد ترى تصاقب اللفظين؛ لتصاقب المعنيين" [2].

كما أنها– أيضا– تعبر عن النتوء، والبروز، والضغط، وتدل على الجوفية، وعلى ما هو وعاء للمعنى [3]. " والدلالة على معنى الجوفية، يقصد به: إخراج ما في الباطن، أي: إظهاره، فإخراج صوت (الهمزة) يشبه عملية التقيؤ؛ فكأنك تمسك ما بداخلك، وتلقي به خارجا، وعلى هذا فإن المعاني التي حددها العلماء لصوت (الهمزة) تدور جميعا حول القوة، والشدة، والضغط على معنى المفردة اللغوية؛ مما يؤدي إلى إبراز وإظهار المعنى، وتقويته. وقرب مخرجها من جوف الإنسان يجعلها أكثر تعبيرا عما يختلج بداخله من أحاسيس تتطلب منه لفت الانتباه " [4].

وإذا ما نظرنا إلى الحرف الثاني؛ نجد معانيه المشرقة، وإيحاءاته الصافية، ونسائمه الموحية، التي تأخذ المعنى من حيز الوعاء إلى حيز الانبثاق والوجودية الظاهرية. **وفي هذا الشأن قال أ. محمود محمد شاكر**: " إذا صرت بهذا الحرف الذي يلي (اللام)، وهو (النون) في (أَنَّ)؛ حيث ينبعث الهواء المقذوف إلى الخياشيم؛ فيحار فيها، ويتردد، ويجول، ويسمع لجولانه في الأنف صدى ناعما، تتبعه غنة مدوية؛ باحتكاك الهواء بجدار الأنف، ثم هو من أجل ذلك؛ حرف دمث، طيّع، مترفّه، ناعم، حلو النغم، لطيف التردد، يسيل مع الهواء لينا، ونعومة، ورقة، لا تدركه الجفوة التي تعرض لسائر الحروف مع التحريك؛ إذا حرك؛ فهو لطيف، مطاوع، ذو نغم؛ إذا حرك، أو سكن؛ فهو إذن أقرب الحروف للبيان عن المعاني الصافية، ولذلك يدور– أكثر ما يدور – في الألفاظ ذوات المعاني النفسية الصافية، التي تذوب فيها آلام النفس، وأحزانها، وأحلامها، وأفكارها التي لا تتكلم إلا لمحا، وإشارة، وتلويحا، فكذلك هو في معناه " [5].

---

[1] حروف المعاني بين الأصالة والحداثة، لـ أ.د/ حسن عباس: صـ 102- 105 بتصرف.

[2] الخصائص: 147/2 وما بعدها بتصرف.

[3] ينظر: خصائص الحروف العربية ومعانيها، لـ أ.د/حسن عباس: صـ 93 وما بعدها. والمعجم الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم، لـ أ.د/ محمد حسن جبل: 26/1.

[4] النظام المقطعي في قراءات سورة النساء: صـ 119 وما بعدها بتصرف.

[5] جمهرة مقالات أ/ محمود محمد شاكر: صـ 732 وما بعدها بتصرف.

ومن خصائصه: أنه يعبر عن البطون في الأشياء، والصميمية. ومن موحيات صوته: أن يوحي تارة بالحركة من الداخل إلى الخارج، وهو الانبثاق، كما يوحي تارة أخرى بالحركة من الخارج إلى الداخل، وهو النفاذ في الأشياء [1]. كما أنه يلقي بجو من الهدوء، والوقار، والجلال على المعاني، بما يتوافق مع صوته الأغن، كما يعبر عن صفاء المعنى، ويدل على التأكيد؛ أخذا من امتداد صوته بغنته [2].

قلت: فكان في هذين الحرفين من طبائع صوتية، وخصائص دلالية، ما يتسق مع خاصية التوكيد، ويتناغم مع مراحل معناها؛ إذ قد تمهد أن ابتداء المفردة بـ (الهمزة) له ظلاله الإيحائية، وأبعاده الدلالية؛ إذ أسهم في التأكيد على قوة المعنى، وارتسام شدة الحدث، وإظهاره، وتصوير الضغط فيه، وإخراج المعاني إلى حيث النتوء والبروز، وكل ذلك يتناسب مع وظيفته المنوطة به بما لا غاية وراءه! وكأن (الهمزة) تضغط؛ فتخرج ما هو كامن في الصميم، وتعمل على إخراجه من حيز البطون إلى حيز الظهور؛ مما يقرر أن قضية (إنَّ) المنظومة في سلكها راسخة بذاتها، متحقق وجودها، مستقر معناها، ثم إنها في طريقها إلى الظهور، وبصدد الانكشاف للعيان، والبروز للأنام، ومن شأنها مواجهة العالم الخارجي؛ إقامة للحجة، ودحضا للمعذرة، وبهذا يتحقق أثر كونها بمثابة التزام شخصي بصدق ما يقوله المتكلم بعدها. وهي في طريقها إلى ذلك تمر بمرحلة هي بمثابة فلتر يعمل على التثبت منها، والتمكن من أثر إطلاقها، الذي يقتضي حفظها واقعا، وسلامتها من الخلف في معناها، وهذا الفلتر أفضل ما يمثله حرف (النون)، إذ توحي بتثبت المعاني، وتقررها، وذلك بمقتضى أن صوتها يمر بمراحل تنبعث بدلالتها؛ حيث يصور انبعاث الهواء المقذوف إلى الخياشيم بانبعاث المعاني، وبمثل كونه يحار ويتردد ويجول بتردد المعاني وجولانها، ثم يؤول الأمر إلى سماعه متبعا بغنة مدوية، وفيه ما يشعر بتمكن المعاني، والتثبت منها قبل انبثاقها وإعلانها، ومن ثَمَّ يتحقق صدقها خارجا بما لا يخفى!.

ومن هنا يتقرر معنى الهدوء، والقرار، والجلال للمعاني الذي تضفيه (النون) بظلالها، وتفهمه بإشاراتها؛ إذ إنه بمثابة النتيجة الحتمية للتأكيد، الذي يُعْنَى بتهدئة روع النفوس إزاء إطلاق القضايا، ويعالج ما يورثها من القلق بشأن إعلانها، ويواجه ما يفقدها جلالها جراء اعترائها بالشك والتردد حولها.

وعليه فاجتماع الحرفين أسهم في تحقق وجود المعاني، والتأكيد لها، والتثبت منها، ومن ثَمَّ إطلاقها صادقة محفوظة من الخلف في خبرها؛ إذ ما كان لها ذلك وقد توفر بالغ الثقة في تحققها؟!

هذا، وقد اتضح من خلال ما سبق: أن المفردة قد اتسقت مبنًى مع مراحلها معنًى، فانسجم تأليفها وخصائص حروفها مع معناها، واستعمالها، ببراعة وإحكام؛ مما يؤهلها للتعبير عن التأكيد بشكل تعجز معه أي مفردة أخرى سواها من القيام بدورها.

ومن الإشارات المنبعثة من الطبيعة التأليفية للمفردة القرآنية: أن أول حرفيها وهي (الهمزة) الدالة على الوعائية قد اتسقت مع ما هو من بابها، وهو (العصر)؛ لكونه ظرفا ووعاء لكل ما فيه. كما أن ثاني حرفيها وهي (النون) بخصائصها الدلالية قد اتسقت مع ما هو بابها، لكونها الأقرب تعبيرا عن خصائص الإنسان، والأكثر اتساقا مع ذاتيته؛ ومن ثُمَّةْ فكان مجرد تأليفها معجزا في نظمها.

الأثر التفسيري للتأكيد:

قد انبثق التأكيد بأثر تفسيري، وانبعث ببعد سياقي، مفاده: أن قضية (إنَّ) حاضرة في النفوس، ظاهرة للأنام، وأن إطلاقها نابع من ثقة في تحققها، وبتلك الثقة التي أطلقت قضية الخبر، هي التي تضمن وقوعها خارجا، وتحقق سلامتها من أي خلف، فمن شأن التأكيد: إزاحة كل شبهة تعترض الخبر، ودحض كل اعتراض بشأنه، وزهق كل شك حوله، ودمغ كل تردد في متعلقه، وبهذا ترتسم خاصية التأكيد التي تُعْنَى بتحقق الخبر تارة، وبصدقه والثقة في سلامته تارة أخرى.

---

[1] ينظر خصائص الحروف العربية ومعانيها: صـ 158.

[2] ينظر النظام المقطعي في قراءات سورة النساء: صـ 160.

وجدير بالتنويه: أن كون حروف المفردة مسوقةً لمعناها، وأنها تمر في نطقها بمراحل ترتسم وظيفتها.. وغير ذلك مما سبق تأصيله، كل ذلك إنما يفهم في حق البشر، لا في حق الذات الإلهية المنزهة عن المشابهة بكل أنماطها، وعن الأحداث والأعراض بجميع صورها، فهي بمعزل عن كل تلك المراحل، وإنما يفهم كلامه تعالى على مقتضى ما يفهمه خلقه، وفي ضوء ما تعارفته العرب من مباحث دلالية، وأسرار وضعية، وخصائص لغوية، للكلم والمفردات العربية.

ويستنبط مما سلف: أن المفردة (أَنَّ) كان له باع لا ينكر في إحداث أبدع الآثار التفسيرية، ويد طولى لا تهمل في تحقق أروع الأسرار البيانية؛ إذ قد اتسقت بخصائص حرفيها أتم الاتساق مع لب وظيفتها، فآذن هذا الملمح ببعد نفسي مفاده: تقرير العناية الإلهية بأفراد البشرية؛ إذ أكدت لها قضية متى عملت بمقتضاها؛ تلافت ضياعها، وحققت صلاح حالها، وفلاح أمرها. كما نبع التأكيد بالتعريف بخصائص الذات الإلهية التي تطلق قضية في كتاب معجز متحدى به، وتؤكد مقتضاها على مرأى ومسمع من أعدائه الذين يحاربونه، ثم تحوطها بعوامل تحققها، والثقة في مقتضاها، ثم تأتي وقائع الحال مصدقة لها، فمَنِ الذي حفظ لها تحققها، ومن ذا الذي يضمن سلامة صدقها؟! ومن ثَمَّ فيبلغ إثبات صدق النظم القرآني مبلغه، ويتحقق إعجاز بيانه على آكد وجه، وأبلغه!.

المطلب الثاني: المفردة الثانية: ﴿الْإِنْسَانَ﴾ حقيقتها، وأسرارها:

قد بين العلماء أصل اشتقاق كلمة (الإنسان)، وما تحمله في مطاويها من معان، وأحكام، فمنهم مَنْ رأى أنها من مادة (ن س ي)، ومنهم مَنْ رأى أنها من (أ ن س)، كما ظهر الإفصاح عن خصائصه عند العلماء المعنيين بالحدود، وفيما يلي تفصيل ذلك مشفوعا بالتعليق عليه.

أولا: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية:

قال الخليل: " (نسي): نَسِيَ فلانٌ شيئا كان يَذْكُرُهُ، وإنّه لنسيٌّ، أي: كثير النّسيان. والنَّسْي: الشّيء المِنسِيّ الذي لا يُذكر. ويقال: هو خِرقه الحائض؛ إذا رمت به. ونَسِيتُ الحديث نسيانا. ويقال: أَنْسَيتُ إنساءً، ونَسِيتُ: أجود. ومعنى أنسيت: أخّرت. وسمِّي الإنسان من النِّسيان. والإنسانُ في الأصل: إنْسيان؛ لأنّ جماعته: أناسيّ، وتصغيرُه: أُنَيسِيان، يرجع المدّ الذي حذف، وهو (الياء)، وكذلك إنسانُ العين، جمعه: أناسيّ، والإنسانُ: صخرةٌ في رأس الجَبَل " [1]. **وقال ابن فارس:** " (أَنَسَ): (الْهَمْزَةُ)، وَ(النُّونُ)، وَ(السِّينُ): أَصْلٌ وَاحِدٌ، وَهُوَ ظُهُورُ الشَّيْءِ، وَكُلُّ شَيْءٍ خَالَفَ طَرِيقَةَ التَّوَحُّشِ. قَالُوا: الْإِنْسُ خِلَافُ الْجِنِّ، وَسُمُّوا؛ لِظُهُورِهِمْ. يُقَالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ؛ إِذَا رَأَيْتُهُ. وَيُقَالُ: آنَسْتُ الشَّيْءَ: إِذَا سَمِعْتُهُ. وَهَذَا مُسْتَعَارٌ مِنَ الْأَوَّلِ. وَالْأَنْسُ: أَنْسُ الْإِنْسَانِ بِالشَّيْءِ؛ إِذَا لَمْ يَسْتَوْحِشْ مِنْهُ. وَالْعَرَبُ تَقُولُ: كَيْفَ ابْنُ إِنْسِكَ؟ إِذَا سَأَلَهُ عَنْ نَفْسِهِ. وَيُقَالُ: إِنْسَانٌ، وَإِنْسَانَانِ، وَأَنَاسِيُّ. وَإِنْسَانُ الْعَيْنِ: صَبِيُّهَا الَّذِي فِي السَّوَادِ. ابْنُ إِنْسِكَ ضُبِطَ: ابْنُ إِنْسِكَ، وَابْنُ أَنْسِكَ " [2]. **وقال الراغب:** " الإنس: خلاف الجن، والأنس: خلاف النفور، والإنسيّ منسوب إلى الإنس، يقال ذلك لمن كثر أنسه، ولكلّ ما يؤنس به. والإنسان قيل: سمّي بذلك؛ لأنه خلق خلقة لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض، ولهذا؛ قيل: الإنسان مدنيّ بالطبع، من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه، وقيل: سمّي بذلك؛ لأنه يأنس بكلّ ما يألفه، وقيل: هو إفعلان، وأصله: إنسيان، سمّي بذلك؛ لأنه عهد الله تعالى إليه فنسي " [3].

وقيل في إطار استعمالاتها: " (نسى): خبل، أصبح بليدا، و(تناسى) الأمر فنسيه، و(تناسى): أهمل. (ينتسي): يتعلق بالحق الذي يكتسب بالتقادم أي بمرور الزمن. (انتساء): قدم، عناء، بطلان. (نسا): نبات بري من الفصيلة الخشخاشية. (نساي): كثير النسيان. منسي: منسي القلب: كثير النسيان " [4].

---

[1] العين (ن س ي): 7 / 304 بتصرف.

[2] معجم مقاييس اللغة (أ ن س): 1 / 145 بتصرف.

[3] المفردات (إ ن س): صـ 94 بتصرف.

[4] تكملة المعاجم العربية، لـ رينهارت بيتر آن (ن س ي): 216/10 وما بعدها بتصرف.

وقال الإمام العسكري مفرقا بين: (الإنسي، والإنسان): " إن الإنسي يقتضي مخالفة الوحشي، ويدل على هذا: أصل الكلمة، وهو: الإنس، والأنس: خلاف الوحشة، والناس يقولون: إنسي، ووحشي، وأما قولهم: إنسي، ووحشي، والإنس، والجن؛ أجري في هذا مجرى الوحش؛ فاستعمل في مضادة الإنس، والإنسان يقتضي مخالفته البهيمة؛ فيذكرون أحدهما في مضادة الآخر، ويدل على ذلك: أن اشتقاق الإنسان من النسيان، وأصله: إنسيان، فلهذا؛ يصغر؛ فيقال: أنيسان، والنسيان لا يكون إلا بعد العلم؛ فسمي الإنسان إنسانا؛ لأنه ينسى ما علمه[1]. وسميت البهيمة بهيمة؛ لأنها أبهمت على العلم والفهم، ولا تعلم، ولا تفهم فهي خلاف الإنسان، والإنسانية خلاف البهيمية في الحقيقة، وذلك؛ أن الانسان يصح أن يعلم إلا أنه ينسى ما علمه، والبهيمة لا يصح أن تعلم " [2].

ثانيا: حقيقته عند علماء الحد:

قال الإمام الجرجاني معرفا به: " الإنسان: هو الحيوان الناطق. والإنسان الكامل: هو الجامع لجميع العوالم الإلهية والكونية: الكلية، والجزئية، وهو كتاب جامع للكتب الإلهية والكونية " [3].

وقال أبو البقاء حادا: " اعْلَم أَن الْإِنْسَان، هُوَ: الْمَعْنى الْقَائِم بِهَذَا الْبدن، وَلَا مدْخل للبدن فِي مُسَمَّاهُ.. وَتلك الإنسانية المقومة لهَذَا الهيكل هِيَ لَطِيفَة ربانية نورانية روحانية سلطانية، خلقت فِي عَالم اللاهوت فِي أحسن تَقْوِيم، ثمَّ رُدَّتْ إِلَى عَالم الْأَبدَان الَّذِي هُوَ أَسْفَل فِي نظامِ سلسلةِ الْوُجُودِ، وَتلك اللطيفةُ هِيَ: الْمُكَلفُ، والمطيعُ، والعاصي، والمثابُ، والمعاقبُ " [4]. **وقال في غير موضع:** " الإنسانية، هِيَ: ملزوم الحيوانية " [5]. " وَالْحَد الْحَقِيقِيّ: مَا أنبأ عَن تَمام مَاهِيَّة الشَّيْء وَحَقِيقَته، كَقَوْلِك فِي حد الْإِنْسَان: هُوَ جسمٌ نَامٍ حساسٌ متحركٌ بالإرادةِ، نَاطِقٌ " [6].

التعليق:

قلت: تبين مما سبق: أن كلمة (إنسان) مشتقة من الأصل (نسي)، أو (أنس)، وأنها في كلا الأمرين يدور فلكها على محور المدلولات التالية: النسيان لاسيما ما يتعلق بالحق الذي يكتسب بالتقادم، الشيء المهمل والمنسي، التأخر، صخرة في رأس جبل، ظهور الشيء: رؤية، أو سماعا، وكل ما خالف طريقة التوحش، كما تدل على نمط من الأوصاف، ومنها: الخبل، البلادة، القدم، العناء، والبطلان.. إلخ.

وبعض ذي المعاني ينبئ عن خصائص ذاك المخلوق، ويحكي أنماط طباعه. فهو: كائن مادي، محسوس، مشاهد، مرئي، كثير النسيان لاسيما للحقائق بمرور الزمان، متأخر في تحصيل الفضائل، ومهمل في حوز المكارم.

وبعضها يسهم في تحقق عجزه الذاتي الذي يقعد به عن بلوغ الحقائق المقررات، ومن ثَمَّ الفوز بالسعادات، وذلك في ضوء معاني: النسيان، الخبل، البلادة، وما في معناها؛ مما يقرر احتياجه إلى ربه سبحانه وتعالى، ويعلن ضرورة ابتعاث الرسالات لهدايته، وإرشاده إلى طريق صلاحه حالا، وسبيل فلاحه مآلا.

ومدلول: (صخرة في رأس جبل) يكشف- معتمدا مبدأ التصوير ولفت الأنظار إلى مضمونه- عن كونه متعاليا، مستغنيا بنفسه، طاغيا بأفعاله، وهذا هو حال الإنسان؛ فهي كلمة وفي طياتها من الدلالات ما يرتسم حقيقتها، وينبعث بخصائصها، ويلوح بما يميزها، ويوحي ابتداء بما سيسند إليها لا سيما في السياق القرآني على ما سيظهر جليا في أثناء تناول تلك المفردة على اختلاف سياقاتها القرآنية، وتنوع خصائصها المعنوية.

---

[1] **قلت:** وقد آذن هذا الاستعمال بأن الحجة قائمة عليه، وأشعر بقطع العذر عنه؛ إذ إنه قد بلغه ما يعمل بمقتضاه، إلا أنه قد تناساه.

[2] معجم الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري: صـ 79 وما بعدها بتصرف.

[3] التعريفات: صـ 38.

[4] الكليات: صـ 198.

[5] الكليات: صـ 1074.

[6] الكليات: صـ 392.

وكذا مدلول: (نبات بري) يوحي بخروجه عن أمثاله، ونده عن أشكال النباتات أنواعه؛ مما يصور في ظله خروج هذا الكائن عن طوق أمثاله من المربوبات، ومخالفته سائر المخلوقات، ونده عن أنماط جميع الكائنات، ولا عجب في ذلك فقد أسند إليه الاختيار في حين قد فطر ما عداه على الطاعة والإذعان.

كما فهم أن كلمة (إنسان) عند علماء المصطلح، تطلق ويراد منها: تيك القوة المقومة الحالَّة في البدن، أو تا المادة الأساسية المكونة له، والدالة على أصل خلقته، والمعبرة عن ملزوم الحيوانية المركب بذاته.

أما إذا أريد منها: مفهومها المتبادر إلى الذهن، وهو: الكمال، أو ما يدل على المزية؛ فلا بد أن تقيد بما يفيده، كما وضح الإمام الجرجاني؛ إذ قيده بالإنسان الكامل.

الاستعمال القرآني للبعد الإنساني:

جاء التعبير بالإنسان في نظم القرآن مرادا به الجنس؛ ومن ثَمَّ صح منه الاستثناء؛ إذ " الاستثناء يخرج من الكلام ما لولاه لدخل؛ فثبت أن الإنسان المذكور في هذه الآية داخل فيه المؤمن والكافر " [1]. لاسيما و" أن (الألف) و(اللام) للتعريف، وليس ذلك لتعريف الماهية؛ فإن ذلك قد حصل بأصل الاسم، ولا لتعريف واحد بعينه؛ فإنه ليس في اللفظ دلالة عليه، ولا لتعريف بعض مراتب الخصوص؛ فإنه ليس بعض المراتب أولى من بعض؛ فوجب حمله على تعريف الكل " [2]. **ومن ثَمَّ قيل:** " إن الاستثناء معيار العموم، أي: أن اللفظ الذي استثنينا وأخذنا وأخرجنا منه، لفظ عام " [3].

قال الزمخشري مصرحا: " و﴿الْإِنْسَانَ﴾: للجنس " [4]. **وقال الإمام ابن عطية:** " ﴿الْإِنْسَانَ﴾ اسم الجنس " [5]. وهذا ما اتفقت عليه كلمة السادة المفسرين [6].

هذا، ولما كان أسلوب القسم محل الدراسة إنما هو أحد عناصر النظم القرآني؛ كان لابد من الأخذ في الاعتبار بيان حقيقة مفرداته، لاسيما الكشف عن خصائص جنس ذلك الإنسان في ضوء السياق القرآني؛ إذ إن مَنْ أقسم بالعصر على خسر الإنسان، هو نفسه سبحانه الذي أخبرنا عن حقيقة ذاك الإنسان؛ فيلزم عقلا إذا ما ذكر عنوان الإنسان أن تستحضر آيات الذكر الحكيم التي تحدثت عنه؛ إذ إنه من المقرر عقلا: أنه يطلب تفسير القرآن أول ما يطلب من القرآن نفسه؛ انطلاقا من مسلمات عقلية، وبدهيات برهانية، يتصدرها: أن صاحب البيت أدرى بالذي فيه، وأن خير ما يمكنه تفسير القول بالتالي هو قائله [7]؛ ومن ثَمَّ نتمكن من أن نقف على إعجاز لبناته ضمن سياقاتها المتعددة، ومناسباتها المتباينة. **وفي هذه المناسبة قال الإمام محمد عبده:** " الأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه؛ بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه، وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية؛ فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه ببعض، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ، موافقته لما سبق من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته " [8].

---

(1) التفسير الكبير: 322/17.

(2) مفاتيح الغيب: 309/23.

(3) الخواطر: 5/ 2715.

(4) الكشاف: 794/4.

(5) تفسير ابن عطية: 520/5.

(6) ينظر: معاني القرآن وإعرابه: 164/3. أنوار التنزيل: 336/5. البحر المحيط: 539/10. الدر المصون: 460/10. نظم الدرر: 22/ 238. الدر المنثور: 622/8. إرشاد العقل السليم: 197/9. فتح القدير: 568/5، 600. روح المعاني: 458/15. التحرير والتنوير: 530/30.

(7) ينظر الدخيل في التفسير، لـ أ.د/ إبراهيم عبد الرحمن خليفة- حمه الله تعالى-: صـ 27.

(8) تفسير المنار: 20/1 بتصرف.

هذا، وبالنظر في القرآن الكريم، ذاك الدستور الرباني، والحكم الإلهي؛ نجد أن سياق ورود ذي المفردة (إنسان) إنما هو في معرض الكشف عن الحقيقة، وأصل الكُنْهِ، مدمجا بالذم، والتنديد، وإسناد القبائح، والوسم بالرذائل، مع مراعاة إنشاد التهذيب، والتقويم.

فالسمة التعبيرية لاستخدامها في القرآن الكريم قد تظاهرت في مجملها بما في مطاويها من دلالات، وما في مكنوناتها من إيحاءات- على الكشف عن كنه ذاك المخلوق، مسهمة في بيان خصائصه، ممهدةً لما سيسند إليه من خصائص وأفعال، وما يوسم به من صفات وأحوال.

قلت: وهي تعود في مجملها إلى **معاني**: الضعف، النسيان، اليأس، الكفر المبين، النكران، اليأس، الفرح، الفخر، الظلم، الخصام المبين، العجل، الإعراض، النأي بالجانب، القتور، كثرة الجدل، الجهل، التكبر، القنوط، الهلع، الغرور، الطغيان، الكنود، الخسر.. إلخ، وهذه صفات تكشف عن خصائص الإنسان، وتعلن أحواله. وثُمَّتْ أخبار أخرى أسندت لتلك المفردة تنبئ عن أصل خلقته، ومادة تكوينه، مع مراعاة أن ذه المعاني في كثير من السياقات قد وردت في قوالب المبالغة على اختلاف صيغها، وتنوع أوزانها.

السياقات القرآنية التي عنيت بالحديث عن الإنسان وخصائصه الظلامية:

عُنِيَتْ كثير من السياقات القرآنية بالحديث عن الأبعاد الإنسانية، وهاك طرفا من الشواهد القرآنية التي وردت فيها تلك المفردة (الإنسان)، مسندا إليها ما يتسق مع حقيقة مسماها، ويتناغم مع أصل اشتقاقها، ويتمم الكشف عن كنهها، ويبين خصائصها، ويميط اللثام عن أبرز أحوالها:

قال الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]. ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12]. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ. وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ [هود:9-10]. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: 34]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: 26]. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: 4]. ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: 11]. ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾ [الإسراء: 83]. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: 100]. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: 54]. ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ [المؤمنون: 12]. ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]. ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الزمر: 8]. ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ..﴾ [الزمر: 49]. ﴿لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: 49]. ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: 15]. ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ [الرحمن: 14]. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: 19]. ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: 17]. ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6]. ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى﴾ [العلق: 6]. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 6]. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 2].

قلت: فأسهمت تلك الآيات في الكشف عن تكوين أبعاد شخصية الإنسان، وارتسام أبرز صفاته، وتسجيل أكثر أحواله، مفصحة عنه ذاتا، معربة عنه خلقا، منبئة عنه فعلا.

وإذا كان إيثار الآيات المذكورة قد انطوى على ما يُنَوِّهُ بأصل خلقة الإنسان؛ فلما له من ملمحٍ أردت التنبيه عليه، وبعدٍ رغبت في إظهاره؛ إذ إن طبيعة تكوينه من تراب، ومن عناصر الأرض مسهمة في الكشف عن أحواله؛ حيث قد تقرر أنه كثيرا ما يخلد إلى محل تكوينه، ويركن إلى أصل خلقته، ويهوى ما تقتضيه طبيعته الخلقية، وجبلته الأرضية. ولا عجب فقد قال تعالى مقررا هذا البعد: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءاتَيْنَهُ ءايَتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى

الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ..﴾ [الأعراف: 175، 176]. مما يوحي بأن أصل الإنسان الركون إلى حيث التسفل، والإخلاد إلى الأرض والتراب، إلا أن الحق سبحانه يريد له السمو والإشراق بمقتضى منهجه الذي امتن عليه به، وابتعث لأجله الرسل عليهم الصلاة والسلام. وفيما يلي مزيد تفصيل.

وحري بالذكر: أن هذا المنحى في الكشف عن حقيقة المفردة هو ما سلكه العلماء، والسادة المفسرون في فهم نظم الآيات؛ فوظفوا مدلولات كلمة (الإنسان) عند التعرض لها، ملقين الضوء على سر إيثارها، مبرزين تمكنها في نظمها؛ من خلال ما أفادته من معان، وما قامت به من دلالات، وما أنيط بها من استعمالات، مجلين وجه التناسب بينها وبين ما أسند إليها من أفعال وصفات، معربين عن حيثيات اقتضائها حالا، وأوجه تطلبها مقاما.

في رحاب المفردة ﴿الإنسان﴾ ضمن سياقتها القرآنية عند الإمام البقاعي:

فها هو الإمام البقاعي على سبيل المثال– لا الحصر– في جولة سريعة، ورحلة موجزة، وإطلالة على صفحات تفسيره حول السياقات المختلفة لورود تي المفردة [1].

إذ يقول: " يرد بيان القرآن لكل خلق بحسب كنه ذاته، واختصاص رتبة قربه، ومحل بعده، وأن الله سبحانه جعل آدم وذرأه خليفة له في جميع أمره، وتفصيله، وأنزل القرآن بناء على جملة ذلك، فأردأ الأحوال لهذا المستخلف: **المحل الذي** سمي فيه بالإنسان، وهو حيث أنس بنفسه وغيره ونسي عهد ربه [2]، فيرد لذلك بناؤه بالذم في القرآن: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس: 17]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾ [العاديات: 6]. **ثم المحل** الذي تداركه فيه تنبه لسماع الزجر من ربه، وذلك هو السن المسمون فيه بالناس؛ لنوسهم، أي: ترددهم بين سماع الزجر من ربهم، وغلبة أهوائهم عليهم. **ثم المحل** الذي يتحقق لهم قبول، وسماع، وإيمان لغائب الأمر والخلق، وذلك هو السن الذي يسمون فيه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهو أول سن التلقي " [3].

وفلسف ورود هذه الكلمة بأنها " إشارة إلى أن الإنسان محل التقصير والعجز وإن اجتهد " [4]. وفي موضع آخر: "إشارة إلى أن الإنسان لا ينفك عن الحاجة والنقصان " [5].

وعندما تعرض لقول الحق جل جلاله: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 12]؛ **قال مبينا وجه النظم، ومقدرا المعنى**: " ولما بين تعالى أن دأبهم استعجالهم بالخير، وكان منه: استكشاف الضر؛ بينَ أن حالهم عنده الاعتراف. وشكرهم على النجاة منه: الإنكار؛ فدأبهم الطغيان والعمه، وذلك في غاية المنافاة لما يدعونه، من رجاحة العقول، وأصالة الآراء، وسلامة الطباع، فالحاصل: أن الانسان عند البلاء غير صابر، وعند الرجاء غير شاكر، فكأنه قيل: فإذا مس الإنسان منهم الخير؛ كان في غفلة بالفرح والمرح، ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ﴾؛ لشدة طغيانه، وجهله؛ ﴿دَعَانَا﴾ مخلصا معترفا بحقنا عالما بما لنا من كمال العظمة، عاملا بذلك، معرضا عما ادعاه شريكا لنا.. ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾.. فهذه الآية في بيان ضعف الإنسان وسوء عبوديته، ﴿كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا﴾، أي: بجبلاتهم ﴿يَعْمَلُونَ﴾، أي يقبلون عليه على سبيل التجديد والاستمرار من المعصية بالكفر وغيره، مع ظهور فساده، ووضوح ضرره " [6].

---

[1] **قلت**: وقد آثرت تفسير الإمام للاستشهاد على صحة ما ذهبت إليه؛ لكونه يُعْنَى بعلم المناسبات؛ ومن ثَمَّتْ فهو يلقي الضوء على أوجه تمكن المفردة القرآنية في سياقاتها، ويكشف عن وجه تناغمها مع عناصر سبكها، ويبين طرفا من أسرار إعجازها في نظمها، مقررا أنها من مقتضيات حالها، ومستدعيات مقامها.

[2] **قلت**: فوظف الإمام مدلول المفردة على اختلاف اشتقاقها، سواء أكان من (أنس)، أم من (نسي).

[3] نظم الدرر: 8 / 511 بتصرف.

[4] نظم الدرر: 573/8 بتصرف.

[5] نظم الدرر: 80/9 بتصرف.

[6] نظم الدرر: 83/9– 85 بتصرف.

وقال في غير موضع: " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ [إبراهيم: 34]، أي: هذا النوع لما له من **الأنس** بنفسه، **والنسيان** لما ينفعه ويضره، والاضطراب بسبب ما يغمه ويسره ﴿لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾، أي: بليغ الظلم والكفر؛ حيث يهمل الشكر، ويتعداه إلى الكفر " [1].

وقال – أيضا – مبينا وجه التناسب: " ولما علم أن كل ما في الوجود من جوهر وعرض، نعمة على الإنسان، حتى الحياة والموت، وكان من أجلى الأشياء، وكانت أفعاله معرضة عن رب هذه النعم بالعبادة لغيره، أو التقصير في حقه، على عموم فضله وخيره- ختم الآية سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: 66]، أي: بليغ الكفر؛ حيث لم يشكر على هذه النعم المحيطة به " [2]. **وبين سبب إطلاق ذه المفردة، وهو**: " أن الإنسان وإن اجتهد لا بد أن يزل؛ لأنه مجبول على النقص " [3].

وقال كاشفا عن طرف من خصائصه: " إن الإنسان ما دام حيا؛ فهو في نعمة يجب عليه شكرها كائنة ما كانت، وإن كان يراها بلية؛ لأنه لما طبع عليه من القلق؛ كثيرا ما يرى النعم نقما، واللذة ألما " [4]. **وقال**: " إن الإنسان مبنى أمره على الجهل والعجز، فأكثر ما يتصوره ليس كما تصوره؛ فعليه أن يتأمل كتاب ربه، ويتدبره " [5]. **وقال**: " إن الإنسان لغلبه جهله، وقلة عقله؛ يجترئ بأدنى تأنيس على مَنْ تجسد الجبال لعظمته، وتندك الشوامخ من هيبته.. فجنس الإنسان موضع الكفران.. ثم قال مقدرا: ﴿فَإِنَّ الْإِنسَانَ﴾ [الشورى: 48]، أي: الآنس بنفسه، المعرض عن غيره بما هو طبع له بسبب مسه بضر ﴿كَفُورٌ﴾، أي: بليغ الستر للنعم، نساء له، ينسى بأول صدمة من النقمة جميع ما تقدم له من النعم، ولا يعرف إلا الحالة الراهنة، فإن كان في نعمه أشر وبطر، وإن كان في نقمه أيس وقنط، وهذا حال الجنس من حيث هو، ومَنْ وفقه الله تعالى؛ جَنَّبَهُ ذلك " [6].

وقال مقدرا: " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ [الزخرف: 15]، أي: مبين الكفر في نفسه، هذا ما يقتضيه طبعه؛ بما هو عليه من النقص بالشهوات، والحظوظ؛ ليبين فضل مَنْ حفظه الله بالعقل على مَنْ سواه من جميع المخلوقات بمجاهدته لعدو وهو بين جنبيه مع ظهور قدرة الله تعالى الباهرة بذلك " [7]. مما يقرر أنه محاط بعداوات، محفوف بمخاطر، مسور بأشواك، والأكثر من ذلك: أنه نفسه مصدر كل ذلك، ومن الصعب تلافي عداوة سببها النفس، ومبعثها الذات، الأمر الذي يحتاج إلى توفيق، ويفتقر إلى تدخل الرحمة الإلهية، والعناية الربانية بما لا يخفى!.

وقال منوها بدلالة المفردة: " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ [المعارج: 19]، أي: هذا الجنس، عبر به؛ لما له من الأنس بنفسه، والرؤية لمحاسنها، والنسيان لربه ولذنبه. ﴿خُلِقَ هَلُوعًا﴾، أي: جبل جبلة هو فيها بليغ الهلع، وهو أفحش الجزع، مع شدة الحرص، وقلة الصبر، والشح على المال، والرغبة فيما لا ينبغي. ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [المعارج: 21]، أي: عظيم الجزع، وهو ضد الصبر بحيث يكاد صاحبه ينقد نصفين ويتفتت. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا﴾ [المعارج: 21]، أي: مبالغا في الإمساك عما يلزمه من الحقوق؛ للانهماك في حب العاجل، وقصور النظر عليه وقوفا مع المحسوس؛ لغلبة الجمود والبلادة، وهذا الوصف ضد الإيمان؛

---

[1] نظم الدرر: 423/10 بتصرف.

[2] نظم الدرر: 86/13 وما بعدها بتصرف.

[3] نظم الدرر: 394/14 بتصرف.

[4] نظم الدرر: 488/15 بتصرف.

[5] نظم الدرر: 226/17 بتصرف. **قلت**: وفي كلام الإمام دقة في التعبير؛ إذ جمع بين طبائعه، وسبيل نجاته، أما طبائعه: فتظهر في عجزه وجهله، وأما سبيل تداركه فهو من خلال تأمل كتاب ربه، وتدبره، سواء أكان الكتاب المنظوم، أم الكتاب المنثور في صفحات الكون المشهود.

[6] نظم الدرر: 349/17- 351 بتصرف.

[7] نظم الدرر: 399/17 بتصرف.

لأنه نصفان: صبر، وشكر " [1]. " وكان معنى هذا كله: أن الإنسان محجوب في هذه الدار عن إدراك الحقائق بما فيه من الحظوظ، والكسل والفتور؛ لما فيه من النقائص " [2].

وقال ملقيا الضوء على بعض خصائصه: " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ [العلق: 6]، أي: هذا النوع الذي هو نوعك، ومن شأنه الأنس بنفسه، والنظر في عِطْفه ﴿لَيَطْغَى﴾، أي: من شأنه- إلا مَنْ عصمه الله سبحانه- أن يزيد على الحد الذي لا ينبغي له مجاوزته، وأكده لما لأكثر الخلق من التكذيب به؛ فإنه لا طاغي يقر بأنه طغى. ﴿أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: 7] هذا هو الطبع الغالب في الإنسان، متى استغنى عن شيء؛ عمي عن مواضع افتقاره؛ فتغيرت أحواله معه.. ومَنْ كان مفتقرا إلى شيء؛ كان منطاعا له " [3].

وقال شارحا: " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ [العاديات: 6]، أي: هذا النوع بما له من الأنس بنفسه، والنسيان لما ينفعه ﴿لِرَبِّهِ﴾، أي: المحسن إليه بإبداعه، ثم إبقائه، وتدبيره، وتربيته[4] ﴿لَكَنُودٌ﴾، أي: كفور نكد لسوء المعاملة؛ حيث يقدم بما أحسن به الله تعالى إليه على ما نهاه عنه، ومصدره الكنود بالضم، وهو كفران النعمة، فالمراد هنا: مَنْ يزدري القليل، ولا يشكر الكثير، وينسى كثير النعمة بقليل المحنة، ويلوم ربه في أيسر نقمة، وقال الفضيل بن عياض: هو مَنْ أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة، الخصال الكثيرة من الإحسان، والشكور ضده. وقال الإمام أبو جعفر بن الزبير: أقسم سبحانه على حال الإنسان بما هو؛ فقال: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، أي: لكفور، يبخل بما لديه من المال؛ كأنه لا يجازى، ولا يحاسب على قليل ذلك وكثيره: من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟ " [5].

قلت: وإليه الإشارة بقول النبي عليه أفضل الصلاة والسلام: " لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ؛ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ؟ وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ؟ وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ؟ وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ؟ " [6].

وقال في وجه مناسبة القسم بـ ﴿الْعَصْرِ﴾ لجوابه: " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ [العصر: 2]، أي: هذا النوع الذي هو أشرف الأنواع؛ لكونه في أحسن تقويم، كما أن العصر خلاصة الزمان، والعصر يكون لاستخراج خلاصات الأشياء ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أي: نقص بحسب مساعيهم في أهوائهم، وصرف أعصارهم في أغراضهم؛ لما لهم بالطبع من الميل إلى الحاضر، والإعراض عن الغائب، والاغترار بالفاني. قال الأستاذ أبو جعفر بن الزبير: لما قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾ [التكاثر:1]. وتضمن ذلك الإشارة إلى قصور نظر الإنسان، وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه، وذلك؛ لبعده عن العلم بموجب الطبع ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72]؛ أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما هو إنسان؛ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1، 2]؛ فالقصور شأنه، والظلم طبعه، والجهل جبلته، فيحق أن يلهيه التكاثر، ولا يدخل الله سبحانه عليه روح الإيمان " [7].

تعليق:

---

[1] نظم الدرر: 400/20 وما بعدها بتصرف.

[2] نظم الدرر: 97/21 بتصرف.

[3] نظم الدرر: 161/22 وما بعدها بتصرف.

[4] **قلت:** والتعرض لعنوان الربوبية مسهم في ارتسام صفات البشر السلبية، التي تقابل المعروف بالمنكر، والإحسان بالإساءة، والرعاية بالنكران، والنعم بالاستغناء والكفران.

[5] نظم الدرر: 214/22 وما بعدها بتصرف.

[6] **صحيح:** أخرجه الترمذي: أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب في القيامة، من حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله تعالى عنه، برقم (2417). **وقال أبو عيسى:** " هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ". سنن الترمذي (ط/ مصطفى البابي الحلبي): 612/4.

[7] نظم الدرر: 237/22 وما بعدها بتصرف.

قلت: وبعد هذه الجولة، وفي رحاب هذه الرحلة، اتضح أن الإمام قد بَيَّنَ أصل اشتقاق الكلمة (إنسان)، وفلسف وجه هذا الاشتقاق، من حيث كونه سريع النسيان على اختلاف متعلقه؛ فهو ينسى عهد ربه، وكل ما ينفعه ويضره، كما ينسى جليل النعم بأول صدمة من النقم، وينسى ذنبه، ووفور حق ربه سبحانه. كما أن طبعه الغرور الذي يرتسمه معاني: الأنس بنفسه، والرؤية لمحاسنها، والنظر في عطفه.

وإذا كان أصل اشتقاق الكلمة من أصلين كليهما أخطر من الآخر– النسيان لاسيما إذا ما كان منصبا على عهد الرب تبارك وتعالى، والأنس لاسيما إذا ما كان بالنفس الضعيفة المربوبة– فهذا بدوره أعظم تمهيدا لما سيسند إلى هذا المخلوق من أسوأ الصفات، وأردأ الأحوال، فما من وصف متوقع له إلا وقد أشار أصل مسماه إليه، وما من حكم مترقب بشأنه إلا وفي أصل اشتقاقه إلماح إليه، وإيحاء ضمني به؛ لما هو مقرر ومعلوم من أن الكبر والنسيان لاسيما مع استحضار متعلقاتهما، لهما رأس القبائح، وأم الرذائل، ومنبع الخبائث، وأصل الخروج عن جادة الصراط المستقيم، والولوج في مهبط الضلال المبين.

ويكفي شاهدا على ذلك ما فعله الشيطان الرجيم؛ إذ إنه ما عصي ربه إلا بمقتضى غروره وكبره، وركونه إلى نفسه، وأنسه، واحتكامه إلى هواه، والنظر في عطفه! كما حدثنا ربه سبحانه فيما حدث عن غروره وكبره: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ. قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: 12، 13].

وكذا ما بدر من آدم عليه السلام من نسيان؛ ترتب عليه الخروج من جنان الرحمن جل في علاه. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: 115]. وما ترتب على ذلك ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾ [طه: 121]. واستتبعه ما أخبرنا به رب العزة سبحانه: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ [طه: 123]. فالطرد من رحمة الله الكريم المنان كان بسبب الغرور والكبر والبطران، والإخراج من جنته جل جلاله كان مرتبا على النسيان والعصيان[1]؛ فللبشر في الدرس الأول عظيم عظة وعبرة، وكبير فائدة ونظرة! فما أجلها من تربية عملية، وأطروحة تطبيقية، قدمها رب البرية سبحانه؛ لتكون للبشرية منهاجا قويما، وصراطا مستقيما.

وعليه فيمكن الوقوف على حقيقة هذا المخلوق (الإنسان)، واكتشاف طبائعه من خلال ما وسم به من تسمية، وما أسند إليه من صفات وأحوال هي عين مسماه، وكامنة في طيات اشتقاقه، ونابعة منه، ولازمة عنه؛ إذ كشفت حقيقة تسميته سلفا عن خصائصه، وأعربت ضمنا عن طبائعه لاسيما في ضوء ما أسند إليه من نعوت وأفعال، وظلال ما أنيط به من أحكام وأحوال، يتصدرها لواء: الكفر والنكران، وشعار الجهل والنسيان، وراية الإعراض والخسران. وعليه يدل قول الإمام البقاعي: " ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أخبر سبحانه أن ذلك شأن الإنسان بما **هو إنسان** "[2].

قلت: فأبدع الإمام في عرضه المبني على حسن فهمه، فانظر إلى سامق البعد التفسيري، وبلاغة التعبير البلاغي؛ إذ أشار إلى أن حكم الخسران– وكذلك سائر الأحكام– إنما هي من حيث كونه متصفا ابتداء بعنوان الإنسان.

هذا، ويَتَأَتَّى تصنيف وظائف المفردة السياقية، ومحاولة ترجمة رسالتها الإلهية في محاور أساسية، بيانها كما يلي:

---

[1] **قلت:** الإخراج من الجنة مرتب على النسيان، وليس مسببا عنه على وجه الحقيقة؛ لأن الخلافة في الأرض أمر مقرر، أخبر به الحق سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً..﴾ [البقرة: 30]، ولما كانت الخلافة بمنهجه جَلَّ جلاله أمرا محاطا بالعداوة من الشيطان؛ كان من رحمة الخالق عَزَّ وجَلَّ أن يبين لبني الإنسان تلك العداوة في تجربة عملية، وحادثة تطبيقية، تكشف عن أبعادها، وترتسم صورها، وتحذر من المخالفة في ضوئها. كما أن العصيان المسند إلى آدم عليه السلام يُوَجَّهُ على أنه من باب ترك الأولى، أو من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين.

[2] نظم الدرر: 237/22 وما بعدها بتصرف يسير.

أولا: الإنباء عن ملكات هذا الإنسان: فقد فهم من تلك التسمية أن هذا النوع الإنساني خلق مكرما على سائر المربوبات؛ فهو أشرف الأنواع؛ لأنه في أحسن تقويم، كما أنه يملك العقل الذي يميز به بين الصالح والطالح، وقد عايننا ذلك عندما تعرض لمس الضر، فمكنه عقله من طلب النجاة عند المصائب، ووجهه حينها إلى التخلص من أوهاق الشرك انتقالا إلى التوحيد الخالص؛ استجلابا للخير، وإنشادا للنجاة، ودفعا للبلاء.

ثانيا: الإخبار عن خلقه، وطبائعه: وأبرزت أخلاق هذا النوع في كونه ضعيفا، متسما بالنسيان، شديد الحرص، قليل الصبر، شحيحا على المال، راغبا فيما لا ينبغي، عظيم الجزع، ممسكا عما يلزمه من الحقوق، منهمكا في حب العاجل، مقبلا على المضار مع ظهور فسادها، ووضوح ضررها، جاهلا، ظلوما، كفارا، مؤثرا الفاني العاجل على الباقي الآجل، مجبولا على النقص بما ركب فيه من الشهوات والحظوظ، مطبوعا على القلق، يرى النعم نقما، واللذة ألما، مقرر له الزلل، كما أن مبنى أمره على العجز؛ لغلبة جهله، وقلة عقله، كما أنه لا يعرف إلا الحالة الراهنة، مطبوع بالحظوظ والشهوات، فهو محل التقصير والعجز، شديد الحاجة والنقص.

ثالثا: الإفصاح عن أظهر أفعاله: وارتسمت أفعاله في أنه بليغ الستر للنعم؛ إذ يقابلها بالإعراض والنكران، ويستقبل المنن بالستر والكفران، ويرد على واهبها بالتقصير في حقه على عموم فضله ومطلق خيره، ويجترئ عليه سبحانه بما له من موفور إنعام وبليغ إكرام.

رابعا: الإعراب عن أبرز أحواله: وأعربت عن أردأ أحواله والتي يتصدرها سوء العبودية لرب البرية، فهو بعيد عن ربه سبحانه، كما أنه في غاية الاحتياج إلى مدبر لأمره، ومع ذلك فهو لا يعرفه جل جلاله إلا عرضا عند النوائب، ولا يلوذ به إلا طلبا للنجاة مما يعتريه من المصائب. كما أن القصور شأنه، والتغير والانقلاب من حال إلى حال ديدنه، والانكباب على الفاني والإعراض عن الباقي دأبه، أضف إلى ذلك أنه شديد القلق، محقق الاضطراب، مهمل الشكر، متعد إلى الكفر، مجاوز للحد. كما أن دأبه الاستعجال بالخير، وشدة الطغيان والعمه، والضعف والجهل، وحاله في النعم الأشر والبطر، وفي النقم الأيس والقنوط، محب للمحسوس؛ لغلبة جموده وبلادته، محجوب عن إدراك الحقائق بما فيه من الحظوظ والكسل والفتور.

ومن ثَمَّ تكون المفردة قد استوعبت هذا المخلوق: حقيقة، وصفات، وأفعالا؛ فكشفت عنه أتم الكشف، وفسرت حاله أبلغ تفسير، سواء أكان هذا في ذاتها بما حملته من معنى، وانطوت عليه من دلالات، أم فيما أسند إليها من أحوال وصفات هي من لوازم تسميته، وكائنة في مطاويها. فشأنه النسيان لا سيما للنعم الإلهية، وكثير النكران خاصة للمنح الربانية، وكثير الإعراض سيما عن الآيات الكونية.

ومن هنا يمكن القول: إن المبتدأ قد انطوى ضمنا على فائدة الخبر، وأقام بنفسه البينة على صدق مضمونه؛ إذ يعلم من عنوان الإنسان– بما وسم به، واستقر له، وأسند إليه– أنه لا محالة في خسران؛ فيتم التمهيد للقضية محل اهتمام أسلوب القسم أبلغ تمهيد، بإعجاز بيان.

وفي هذه المناسبة قال الشيخ الشعراوي: " و(الإنسان) مفرد يدل على الإنسان في كل مدلولاته، ويستثنى من نوعه مَنْ آمن به. فإن رأيت كلمة إنسان؛ فاعلم أن المراد بالإنسان: أفراد الإنسان كلهم " [1]. " ونقول: إن كلمة (إنسان) إذا أُطلِقتْ من غير استثناء؛ فهي تنصرف إلى الخُسْران، والحياة بلا منهج، ودون التفات للتفكير في الكون " [2]. فاتضح وجه الارتباط بين المسند إليه والمسند؛ وكأن الأول هو عين الثاني ولازمه، حتى إذ لم يتم التنصيص عليه.

المطلب الثالث: المفردة الثالثة: (اللام) الداخلة على الخبر، خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية:

جاء خبر (إن) مقرونا بدخول (اللام) عليه؛ فأضافت حيثية توكيدية أخرى إلى جانب التوكيدات الشائعة في النظم، وعندما ننظر في عمارة التركيب القرآني؛ نجد أن هناك احتمالات عقلية كثيرة، كان من الممكن أن تسبك الآية وفقها، كأن يكون النظم:

---

[1] تفسير الشعراوي: 6348/10.

[2] الخواطر: 7562/12.

(إن الإنسان في خسر)، (إن الإنسان خاسر)، (إن الإنسان بخسر)، (إن الإنسان على خسر).. إلخ. فمجيء النظم على الصورة التركيبية المذكورة يثير في الذهن تساؤلا حول إيثار التعبير بـ (اللام)، ويوحي بما لا مراء فيه بأن لها أثرا تفسيريا بعيد المدى، ووقعا سياقيا سامق الغاية، وشأنا بلاغيا قوي الصدى.

قلت: ويتضح ذلك في ضوء التعرف على خصائصها، ومعايشة إيحاءات صوتها باختصار وإجمال؛ حيث إني قد فصلت القول بشأنها في غير موضع على نحو قد سبق تحقيقه [1].

ومما هو جدير بالذكر: أن (اللام) تفيد الالتصاق، ولا ينفك هذا المعنى عنها بحال، ويتجلى ذلك في ظلال تشكيل صوتها؛ إذ إنه يتشكل " بالتصاق إحدى حافتي اللسان بالحنك الأعلى، مع ترك الحافة الثانية سائبة، يتسرب على جانبيها الهواء الخارج من الجوف، أي: النفس؛ فالتصاق جانب اللسان بالحنك الأعلى، يضاهي واقعة الالتصاق في الطبيعة.. ونظرا لبساطة (اللام) المنفردة بلا قرين، ولمرونة صوتها، وتماسكه؛ فقد أهَّلها ذلك كيما تكون أكثر حرية وتحررا وطواعية في أداء مختلف المعاني، مما يدور حول الإلصاق، والالتصاق، والتملك، والإلزام، والالتزام، وما إليها مما يتماس مع معاني الجمع والضم. فجميع معانيها مستمدة أصلا من خاصية الإلصاق في طريقة النطق بصوتها، ومنها: التوكيد؛ إذ إن وظيفته إلصاق الأحكام بمتعليقها؛ فطبيعة التوكيد ذاتها تتضمن معنى الإلصاق. وعليه فاللام الواقعة في جواب القسم تفيد التوكيد صراحة أو ضمنا؛ مما يفيد إلصاق الأحكام بمتعلقها .. " [2].

ومما سبق يتقرر: أن ورود (اللام) في الخبر له جليل سره، وسامق دلالته، وقوة أثره، وبعد إشارته؛ فَلَوَّحَ بأن ذاك الإنسان بمقتضى سوء طبعه، وفساد اختياراته، وقبح جبلاته قد مدَّ لنفسه بقنطرة تهوي به إلى أسفل، كما عمل على إلصاق نفسه وحبسها، لكن بماذا؟ بالخسر المسبوق بـ (في) الظرفية؛ مما يصور أنه في حفرة عميقة هي محل خسره، ولم يكتفِ النظم بكونه غارقا فيها، لا بل أضاف معنى الإلصاق والالتصاق والملازمة مع التأكيد على تحقق ذلك؛ مما يوغل في ارتسام معنى الحبس، ويمعن في تصوير معنى التقييد والأغلال، ويقبح من آثاره، ويبشع من سوء حاله، ويندد بأصحابه؛ ومن ثَمَّ فيمهد النفوس للإقلاع عنه، ويوطئها للخلاص من أوهاقه، وإزاحة أثقاله؛ ومن ثَمَّ فكان التعبير بها هو الأكثر اتساقا مع إيراد عنوان الإنسان سباقا، والأظهر تناغما مع تقرير سوء مصيره لحاقا، والأثرى إبداعا في تثقيف النفوس بسوء دواعيها وقبيح طبائعها، والأنجع في تذكيرها بحسن فعل بارئها من إنشاد رقيها وسموها، والحرص على رفعها إلى محل تجليها وإشراقها.

المطلب الرابع: المفردة الرابعة: (في) الظرفية: خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية:

هذا، وقد اقتضى الحال التعبير بالظرفية، دون ما عداها كأن يكون التعبير: (بخسر)، أو (لخاسر).. إلخ من الاحتمالات العقلية الممكنة، ولا يكون هذا إلا لنكات بلاغية كامنة في طياتها، وأسرار بيانية تكتشف في ظلالها، وأبعاد تفسيرية تبتعثها، وتعجز عنها أي مفردة أخرى سواها. ومما لا ريب فيه أنه قد جاءت الظرفية في سياقها متمكنة آكد تمكن، مستقرة بين عناصر سبكها أبلغ استقرار، ولبيان ذلك- بعد ثبوته وتقرره في ذاته- ينبغي التعرف على معانيها واستعمالاتها أولا، ثم الاستماع إلى إيحاءات صوت حرفيها، والوقوف على خصائصهما الدلالية ثانيا؛ بلوغا إلى أسرارها البيانية، وأبعادها التفسيرية؛ تمكنا من فهم رسالتها الإلهية.

وظيفتها في ضوء الدرس النحوي:

أما معانيها واستعمالاتها: فقد احتلت مكانة سامقة في الدرس النحوي؛ فقال الزمخشري: " (في) معناها: الظرفية، كقولك: زيد في أرضه، والركض في الميدان، ومنه: نظر في الكتاب، وسعي في الحاجة، وقولهم في قول الله عز وجل: "﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ

---

[1] ينظر أسلوب الاستثناء في النظم القرآني، لـ د/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد. وهو مؤلَّف قيد الطباعة والنشر.

[2] حروف المعاني بين الأصالة والحداثة: صـ 50- 54 بتصرف.

النَّخْلِ﴾ [طه:71]: إنها بمعنى: (على). **والحقيقة**: أنها على أصلها؛ لتمكن المصلوب في الجذع، تمكن الكائن في الظرف فيه " [1].

وقال ابن مالك ناظما: " (وزيد والظرفية استبن ببا... وفي وقد يبينان السببا) " [2]. **وقال شارحا**: " مثال الظرفية: قوله تعالى: ﴿الم. غُلِبَتِ الرُّومُ. فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: 1-4]. والاستعلاء، كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:71]. وكونها للمصاحبة، كقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [القصص: 79]. وكونها لما يناسب الاستعانة، كقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ [الشورى: 11]، أي: يكثركم به " [3].

وقال أبو محمد المرادي شارحا، ومفصلا: " (في) حرف جر، وله تسعة معان: **الأول**: الظرفية، وهي الأصل فيه، ولا يثبت البصريون غيره. وتكون للظرفية حقيقة، نحو قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 203]. ومجازا، نحو: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة:189]. **الثاني**: المصاحبة [4]، نحو: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ﴾ [الأعراف:38]، أي: مع أمم. **الثالث**: التعليل[5]، نحو: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ [يوسف: 32]. **الرابع**: المقايسة، نحو: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: 38]. وهي الداخلة على تال، يقصد تعظيمه وتحقير متلوه [6]. **الخامس**: أن تكون بمعنى: (على)، نحو: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [طه:71]، أي: على جذوع النخل. **السادس**: أن تكون بمعنى (الباء). **السابع**: أن تكون بمعنى (إلى)،كقوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: 9]، أي: إلى أفواههم. **الثامن**: أن تكون بمعنى (من)، كقوله: (وَهَلْ يَنْعَمَنْ منْ كانَ أَقْرَبُ عَهْدِهِ...ثَلاثِينَ شَهْرا في ثَلاثَةِ أحْوالِ) [7]، أي: من ثلاثة أحوال [8]. **التاسع**: أن تكون زائدة، قال بعضهم بذلك في: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾ [هود:41]، أي: اركبوها. وقد نبه ابن مالك على أن مذهب سيبويه، والمحققين من أهل البصرة، أن (في) لا تكون إلا للظرفية حقيقة أو مجازا. وما أوهم خلاف ذلك، رد بالتأويل إليه. والله سبحانه أعلم " [9]. ووافقه ابن هشام [10]، والأشموني، والصبان [11].

---

[1] المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري: صـ 381.

[2] ألفية ابن مالك: صـ 88.

[3] شرح الكافية الشافية، لابن مالك: 2 / 804– 806 بتصرف.

[4] **قال ابن قتيبة**: " (في)، بمعنى: (مَعَ)؛ يقال: فلانٌ عاقلٌ في حِلْمٍ، أي: مع حلم". أدب الكاتب، لابن قتيبة الدينوري: صـ 518.

[5] **هذا**، " وفُرِّقَ بين العلة، والسبب؛ بأن العلة متأخرة في الوجود، متقدمة في الذهن، وهي العلة الغائية والغرض، وأما السبب: فهو متقدم ذهنًا وخارجًا". حاشية الصبان: 328/2 بتصرف يسير.

[6] **قال ابن هشام**: " المقايسة، وهي: الداخلة بين: مفضول سابق، وفاضل لاحق " . مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام: صـ 225. **وقال الصبان**: " المقايسة، أي: كون ما قبلها ملحوظًا بالقياس إلى ما بعدها، وهي الواقعة بين مفضول سابق، وفاضل لاحق كما في (المغني)، ويظهر لي صحة العكس- أيضًا-". حاشية الصبان: 327/2.

[7] **قاله أمرؤ القيس**. ينظر الفاخر، للمفضل بن سلمة بن عاصم: صـ 217. وقد مثل به ابن قتيبة؛ فقال: " (في)، بمعنى: (مِنْ)، ثم ذكره، وقال مقدرا: أي: من ثلاثة أحوال". أدب الكاتب: صـ 518 بتصرف.

[8] **قال الصبان**: " المراد: (من) التبعيضية، وحملها الشمني على الابتدائية، فالمعنى في البيت ثلاثين شهرًا مبتدأة من انقضاء ثلاثة أحوال؛ فتكون المدة خمسة أعوام ونصفًا، وكذا عند من جعلها للمصاحبة ". حاشية الصبان: 327/2.

[9] الجنى الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري: صـ 250– 253 بتصرف.

[10] ينظر مغني اللبيب: صـ 223– 226.

[11] ينظر حاشية الصبان على شرح الأشموني: 326/2– 328 بتصرف.

قلت: وجُلُّ هذه الأقوال المنسوبة للعلماء لا تخلو غالبا من الرد والتعقيب، كما أنها مشوبة بنمط من التعسف والتكلف الأكيد، على ما هو مبين في مواضعها المذكورة، وقد ضربت عنها صفحا؛ لكون ذكرها مما لا يناسب المقام؛ لخروجها عن طابع مفرداته، ولطولها، وكثرة تشعبها، وترامي أطرافها.

ومن ثَمَّ فلا عجب أن قال سيبويه عنها هذا الكلام الموجز: " أما (في): فهي للوعاء، تقول: هو في الجراب، وفي بطن أمه، وهو في الكيس؛ لأنه جعله إذ أدخله فيه؛ كالوعاء له. وكذلك: هو في القبة، وفي الدار. وإن اتسعت في الكلام؛ فهي على هذا، وإنما تكون كالمثل، يجاء به يقارب الشيء، وليس مثله " [1]. **وقال المبرد:** " أما (فِي) فَإِنَّمَا هِيَ للوعاء، نَحْو: زيد فِي الدَّار، واللص فِي الْحَبْس، فَهَذَا أَصله. وَقد يَتَّسِع القَوْل فِي هَذِه الْحُرُوف، وَإِن كَانَ مَا بدأنا بِهِ الأَصْل، نَحْو قَوْلك: زيد ينظر فِي الْعلم؛ فصيرت الْعلم بِمَنْزِلَة المتضمن، وَإِنَّمَا هَذَا كَقَوْلِك: قد دخل عبد الله فِي الْعلم، وَخرج مِمَّا يملك. وَمثل ذَلِك: فِي يَد زيد الضَّيْعَة النفيسة، وَإِنَّمَا قيل: ذَلِك؛ لِأَن مَا كَانَ محيطا بِهِ ملكه، بِمَنْزِلَة مَا أحيطت بِهِ يَده " [2].

وقد تناول أ.د/ حسن عباس خصائص حَرْفَيْهَا، ومعانيهما الفطرية؛ فقال: " (الفاء) من معانيها: الفصل، والشق، والتوسع، و(الياء) بحسب حركة النطق بصوتها؛ تشير إلى (تحت)؛ لتأخذ في الذهن صورة حفرة في الطبيعة؛ فتكون (في)؛ بتوافق معاني حرفيها: (الفاء)؛ للتوسع، (الياء)؛ للحفرة: (وعاء للمحتويات)، أي: ظرف للمكان. ثم تناول معانيها المستعملة، وعلق على معنى التعليل؛ فقال: وهو صحيح، ولكنه اصطلاحي؛ لتعارضه مع خصائص حرفي: (الفاء، والياء) " [3].

وضعف: موافقتها لـ (من)، وزيادتها، سواء أكان تعويضا، أم توكيدا؛ فقال معلقا على معنى موافقة (من): " وهذا المعنى ضعيف، يصعب تخريجه بشكل سليم، وكان موضع خلاف؛ فلا يُؤْبَهُ به؛ لأنه ليس معنى اصطلاحيا، ولا فطريا أصليا. ثم قال عن معنى التعويض، وهو معنى ركيك، ضعيف الاستعمال، لا يعتبر اصطلاحيا، ولا يؤبه له؛ فلم يجزه سوى ابن مالك، وقال عن معنى التوكيد: وهي الزائدة لغير التعويض، أجازه البعض في الضرورة، وهذا المعنى ضعيف– أيضا–، وغريب الاستعمال، مما لا يؤبه له، ولا يعتبر مصطلحا.. وهكذا فإن أغلب معانيها، واستعمالاتها التراثية الصحيحة، تتوافق مع خصائص حرفيها، ومعانيها الفطرية في الظرفية " [4].

التعليق:

قلت: تبين مما سبق: أن (في) تستعمل في المعاني التالية: الظرفية المكانية والزمانية، التعليل أو السببية، الاستعلاء، مرادفة (الباء)، أي: بمعنى الاستعانة. وهاتيك المعاني مترتبة في الوجود، ويفهم بعضها في ضوء بعض، ويقود بعضها إلى بعض؛ إذ إن معنى الظرفية لا يتصور إلا إذا حدث شق واحتفار، يصير **بسببه** وعاء للمظروف، و(الفاء) تصور هذا المعنى، كما توحي بحدوثه، حتى لكأنها يستعان بها في إفادة معنى الحفر، وينجم عنها معنى الشق، على أنه قبل أن يصير المظروف بداخل ظرفه يكون بارزا عنه، ماثلا فوقه، وهذا يصور معنى **الاستعلاء.**

وظيفتها في ضوء الدرس اللغوي:

أما إيحاءاتها الصوتية، وخصائصها الدلالية: فتتقرر في ضوء الوقوف على خصائص حرفيها، والتعرف على إيحاءاتهما.

أما (الفاء): فهي "صوت رخو مهموس.. ومخرجها من بين الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، ويضيق المجرى عند مخرج الصوت؛ فنسمع صوتا عاليا من الحفيف هو الذي يميزها بالرخاوة " [5]. **وقال أ.د/ عبد العزيز علام:** " (الفاء): صوت

---

[1] الكتاب، لسيبويه: 226/4 بتصرف.

[2] المقتضب، لأبي العباس المعروف بالمبرد: 139/4. وتبعه ابن السراج؛ فقال: "(في) للوعاء". الأصول في النحو، لأبي بكر بن السراج: 174/3.

[3] حروف المعاني بين الأصالة والحداثة: صـ 75 وما بعدها بتصرف.

[4] حروف المعاني بين الأصالة، والحداثة: صـ 76 وما بعدها بتصرف.

[5] الأصوات اللغوية: صـ 44 بتصرف. وينظر علم الصوتيات: صـ 276.

مهموس، رخو، مستفل، منفتح، ذلق، خفي " [1]. **وقال أ.د/ حسن عباس:** " إن صدى صوت (الفاء) يضاهي الضعف، والرقة، والوهن، كما في نحو: فتر، وفني. وبعثرة النفس عند خروج صوتها تمثل بعثرة التراب المحفور، وتحاكي الأحداث التي تنطوي على البعثرة والتشتت دونما عنف أو شدة " [2].

وقال أ.د/ محمد حسن جبل: " (الفاء) تعبر عن النفاذ بقوة (كالطرد والإبعاد) إلى ظاهر الشيء مع اتساع النافذ او انتشاره. وهذا المعنى يلتقي مع الشعور بتكونها بدفع الهواء بقوة بين المضيق المعترض بالتقاء الثنايا العليا بباطن الشفة السفلى، ويوجهه وضع الشفة العليا بالنسبة له. ويلحظ الشعور بدفع الهواء إلى الخارج، وهذا يؤكد التعبير عن معنى الطرد والإبعاد. كما أن الصورة البصرية لعملية خروج (الفاء) تمثل ضربة الفأس (الأسنان العليا) على الأرض (الشفة السفلى)؛ فتمثل الأحداث الطبيعية التي يتم فيها الشق والفصل والحفر، نحو: فلق الشيء: شقه. وانفراج الأسنان العليا عن الشفة السفلى (كصورة بصرية مرئية) عند خروجها يمثل الأحداث الطبيعية التي يتم فيها الانفراج، والتباعد، والاتساع، نحو: الفجوة، أي: المتسع بين شقين " [3].

وجاء عن أ/ رشيد سليم الخولي: قد تنبهت بطول المراجعة إلى أن حرف (الفاء) يدل على الإبانة والوضوح، نحو: فتح، فضح، فلق، فسر.. [4]. ونقله عنه أ/ عباس محمود العقاد [5].

ومما هو حقيق بالقول: " أن دلالة (الفاء) على الإبانة والوضوح تلتقي مع ظهور موضع خروج صوتها للعيان؛ حيث يخرج من الشفتين، وفي ذلك ظهور وبيان يقابل به ما شوهد وظهر من الأحداث، كما يلتقي مع بعثرة النفس وانتشاره أثناء النطق به؛ إذ إن من ملازمات البعثرة والتشتت والانتشار: الإبانة، والوضوح. أما أن يكون جرس صوت (الفاء) هو المفيد لهذا المعنى فلا؛ لأنه مهموس رخو، يمتاز صوته بالضعف والوهن، فليس المراد بالوضوح هنا: الوضوح الصوتي الإدراكي، وإنما يراد به: الوضوح النطقي أو الفيزيائي " [6].

وأما (الياء)، فإذا ما نظرنا إليها في رسمها؛ وجدناها تمثل حفرة باطنية عميقة، وهذا يتسق مع دلالتها، وطريقة نطقها؛ إذ إنها " تدل على البطون؛ لأنها عن رقة الصوت، وانخفاضه في باطن الفم " [7]. **قال أ.د/ حسن عباس:** " إن صوتها يأخذ صورة الحفرة، أو حفنة اليد، وهو يصلح أن يكون مقرا للمعنى، على مثال ما تصلح الحفرة على سطح الأرض، أو في باطن اليد أن تكون مقرا، ومستقرا للماء، أو الأشياء، ومن ثَمَّ فهي تعطينا صورة الحفرة، والوادي السحيق" [8].

وإذا ما أنصتنا إلى صوتها؛ لعلمنا أنه " صامت، رخو، مستفل، منفتح.. " [9]. **ومن إيحاءاته:** أنه يرمز إلى القلة، وإلى ما صغر من الأشياء [10]. لاسيما وأن للكسرة دورا رئيسا في الإيحاء بجو الحزن، ومعنى الانكسار، والحسرة [11]، كما أنها حركة طويلة، والحركات الطويلة تعطي إيقاعا بطيئا، يضفي على الكلمة خاصية البطء [12]. **ومن ثَمَّ** " فمعاني: الحقارة، والقلة، والانكسار،

---

[1] عن علم التجويد القرآني: صـ 157.

[2] ينظر خصائص الحروف العربية ومعانيها: صـ 131 وما بعدها بتصرف.

[3] المعجم الاشتقاقي: 34/1 وما بعدها بتصرف.

[4] ينظر الدلالة الصوتية في اللغة العربية، لـ د/ صالح سليم الفاخري: صـ 151.

[5] ينظر أشتات مجتمعات في اللغة والأدب، لعباس العقاد: صـ 43.

[6] النظام المقطعي في قراءات سورة النساء: صـ 151 بتصرف يسير.

[7] عنوان الدليل: صـ 32 بتصرف يسير.

[8] خصائص الحروف العربية ومعانيها: صـ 97 وما بعدها بتصرف.

[9] عن علم التجويد القرآني: صـ 158 بتصرف يسير.

[10] ينظر إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي، مدخل لغوي أسلوبي، لـ د/ محمد العبد: صـ 16.

[11] ينظر إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي: صـ 29.

[12] ينظر إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي: صـ 37.

والحسرة، والاشمئزاز، يحاكيها وضع الشفتين عند النطق بصوت الكسرة، واتجاه حركتها نحو الأسفل. واتساع مخرجها يعطي شعورا بالانفتاح. وطول زمن النطق بالياء المدية يضفي على الكلمة خاصية البطء.. كما أنها تعبر عن التسفل، والاستقرار، والتعمق، والصميمية " [1]. كما أنها " للانفعال المؤثر في البواطن " [2]. " لأن مخرجها من وسط اللسان، كما أن اتجاه حركة الشفتين معها نحو الأسفل يعطي إيحاء بالتعمق " [3].

التعليق:

قلت: ومما سبق: يتأكد أن الظرفية قد جاءت متمكنة في نظمها، متعينة في سياقها، مستجيبة لمقتضى مقامها، مصبوغة بطابع صرحها، ومنسجمة مع لبنات سبكها، متممة المعنى، مكملة المراد، محققة مبدأ الترقي في صرح التوجيهات؛ إذ أسهمت معانيها واستعمالاتها في الكشف عن حال الإنسان، فاتسقت خصائصها مع خصائصه؛ فكما أنه يحتفر بئرا لنفسه يحتبسها فيه، ويصير تابعا لرغباتها، عبدا لأهوائها، سائرا معها إلى حيث القبوع والتردي، موردها مورد قاعية الظلام، وتسفل الضلال، مبعدا لها عن محل الإشراق والنور، مع الإيحاء بأن المظروف قبل أن يزج به في ظرفه كان مستعليا عليه، واقفا بثبات قدم فوقه، فماذا فعل؟ قد أخذ في الحفر؛ ليوقع نفسه فيه (مع الإيحاء بكونه مزودا بما يردي نفسه، ومسلحا بإمكانات تسفله)، وينفذ فيه بقوة، ومعنى البعثرة والتشتت النابع من صوتها يتسق مع معنى الوعائية، وما يصاحبها من الظلام، فبعدما كان المظروف في نقاء وتجلي يتسق مع حاله قبل حبسه، أصبح في تغشية تتسق مع ظرف احتباسه وقبوعه في معتقله. هذا فضلا عن أن معنى البعثرة والتشتت يتسق مع عنوان الإنسان الذي يأبى بطبعه الاستقرار على الطاعة، ويمعن في تحصيل لذاته الدنية المردية له، ويفتعل ما يحقق رغباته الهاوية به.

كما أن معنى الوهن والضعف والفتور في صوت (الفاء) يتسق مع المقام؛ إذ يوحي بأن طبيعة الحفر الذي يركب في صوتها لا يحتاج إلى قوة وجهد، وهذا ما يتناغم مع الطبيعة الإنسانية من ركونها إلى الأهواء طبعا، وميلها إلى الشهوات جبلة، فهي لا تحارب لأجل الحصول على لذاتها، بل الحرب إنما تكون في مجاهدة تلك الأهواء، كما تجلى من تحليل عنوان الإنسان في نظم سياقات القرآن.

كما حملت (الياء) أعمق الدلالات، وأسمى المعاني، وأبعد الإشارات، وأغزر الإيحاءات؛ إذ دلت على معنى العمق والبطون والانخفاض؛ حتى كأنها تمثل صورة الوادي السحيق الذي ينغمس فيه الإنسان، وما يصاحب ذلك من **أحوال مادية** يمثلها: الضعة، والقلة، والحقارة. **وأحوال نفسية** يمثلها: الحزن والانكسار والحسرة، والاشمئزاز، موضحة سوء مآل الإنسان بمقتضى طبائعه، من التعمق في الخسر، والتسفل في النقص، والاستقرار في الضعة، والصميمية في الانحدار.

ومن ثَمَّ فكل هذه الإشارات، وتلك الإيحاءات، تتناغم مع حال الخسر الذي آل إليه الإنسان بداع طبائعه، وبمقتضى فساد دواخله؛ إذ يصير في وعاء، مرتسما معنى الحفرة لمعناه، مصورا مدى الالتصاق، والتماسك، والامتداد. وصوت (الياء)، الصامت، وإيحاءاته، لاسيما بالحزن، والانكسار، والحسرة، مع تحقق بطء الحدث، كل ذلك يتناغم معه، ويتسق له على أحكم وجه، وأقواه!؛ فيبلغ سمو نظم الظرفية مبلغه، ويتحقق إعجاز بيانها على آكد وجه، وأبلغه!

قال الإمام ابن عاشور: " الظرفية في قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ مجازية، شبهت ملازمة الخسر بإحاطة الظرف بالمظروف؛ فكانت أبلغ من أن يقال: إن الإنسان لخاسر. ومجيء هذا الخبر على العموم مع تأكيده بالقسم وحرف التوكيد في جوابه، يفيد التهويل والإنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس " [4].

---

[1] النظام المقطعي في قراءات سورة النساء: صـ 106 بتصرف يسير.

[2] خصائص الحروف العربية ومعانيها: صـ 97.

[3] النظام المقطعي في قراءات سورة النساء: صـ 106 بتصرف يسير.

[4] التحرير والتنوير: 531/30.

قلت: ومن ثَمَّتْ فإيثار (في) هنا له وقعه ودلالته، التي يتطلبها المقام، ويقتضيها المرام، وذلك؛ لما تختص به من خصائص، وتؤديه من معان، وما تحمله في طياتها من إيحاءات، وتنبعث به من إشارات، وتفيض به من ومضات؛ **حيث قد كانت هي الأكثر** تناغما مع الكشف عن حقيقة الخسر، وإعلان آثاره من التسفل والغرق في مهواة الظلام؛ لما توحي به من معنى التمكن، والاستقرار، في الظرفية المكانية، الذي يناسب حال الخاسرين، مما **يعمق** معاني: الحبس، والمنع، والثبات على الشيء، وحصر الحركة في زمان ومكان معين؛ إذ تأكد في ضوئها أنهم حبيسو ظلماتهم، غارقون في غيهم، مقيمون في معتقل نفوسهم، ممنوعون من إمكانية السمو بهم، محصورون في ظرف زمكانهم؛ فحالهم بما هم عليه من ضلال نفسي، وبعد إنساني، كحال مَنْ شق لنفسه حفرة، ووسعها، وأوعى نفسه فيها، مما يدل على كامل غرقهم، وبالغ انطماسهم، كحال استقرار المظروف في الظرف، كدليل على تمكنه منه. وهذا من تمام الكشف عن سوء مغبة طبائعهم، وفساد دواخلهم، وتقرير حيثية خسرهم؛ تقريرا لمدى عجزهم؛ مما يؤكد المبالغة في النعي عليهم، ويسهم في إعلان حيثيته، وتقرير أسبابه، وإبعاد مقارفته. وفي تقرير هذا المعنى قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءاتَيْنَهُ ءايَتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ. وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ..﴾ [الأعراف: 175، 176].

فانظر إلى دقة التعبير القرآني بالإخلاد إلى الأرض، الذي يرتسم سوء اختيار الإنسان المعرض، وميله إلى شرور نفسه، وإيثاره الفاني الخسيس، وإعراضه عن الباقي النفيس!.

قال الشيخ عبد الكريم الخطيب مقدرا: " أي لصق بالأرض، ونزل منزل الحشرات والهوام فيها، ولم يرد أن يسمو بنفسه، ويرتفع بوجوده ويعلو بإنسانيته.. ولو أنه فعل؛ لأعانه الله سبحانه على ذلك، وسدد خطاه، وأمسك به على الطريق المستقيم، الذي وضع قدمه عليه[1]. فمطلوب من الإنسان أن تكون له إرادة عاملة، تلتقى مع إرادة الله تعالى. فإن أراد خيرا، وعمل له، وتمسك به؛ أراد له الخير، وأعانه عليه، ووفقه له " [2].

وقال الشيخ أبو زهرة شارحا: "﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ﴾، وسكن فيها بنزواتها وأهوائها وشهواتها، ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾؛ فلم يسيطر على شهواته، وكان عبدا لها؛ فاستوى عنده البينات والظلام " [3]. **قلت:** وفي هذا من تقرير عجز الإنسان، وعدم قدرته على تحصيل أسباب صلاحه حالا، وفلاحه مآلا، وكذا تسجيل ضعفه عن إدراك الحقائق، وبعده عن العلم بموجب طبائعه، وقصر همته على الآجل بمقتضى جبلاته، في تقرير كل ذلك ما لا يخفى!.

وفي هذه المناسبة قال الإمام البقاعي: " وفي هذا إشارة إلى العلم بالاحتياج إلى إرسال الرسل عليهم السلام؛ لبيان المرضي لله تعالى من الاعتقادات والعبادات إيمانا وإسلاما وإدامة لذلك؛ ليكون فاعله من قبضة اليمين، وتاركه من أصحاب الشمال. وذلك لقصور نظر الإنسان، وحصر إدراكه في العاجل دون الآجل الذي فيه فوزه وفلاحه، وذلك؛ لبعده عن العلم بموجب الطبع " [4].

تذييل: لطيفة معجمية، وحقيقة لغوية، ومعجزة قرآنية:

تجلى مما سبق: أن الظرفية قد أسهمت بأصوات حرفي بنائها في ارتسام حقيقتها، مما يدعو إلى التساؤل بشأنها، فلماذا اختص حرفا (الفاء)، و(الياء) بمعناها (الظرفية)؟ وهل من الممكن أن يحدث عكس ترتيب حرفيها؟ أو هل من الممكن أن يكون ثَمَّ حرفان آخران يقومان بوظيفتها؟ وما الأصل المعول عليه في جعل كل بناء تأليفي مؤديا معناه الذي يعالجه؟ وغير ذلك من أسئلة واستفسارات، بعد طول بحث، ودوام نظر؛ تقرر عندي بما لا يدع مجالا للشك: أن دلالة كل بناء على معناه هو الأوفق له، وأنه ليس ثَمَّتْ سبيل لتغييره بسواه، وأن ترتيب الأحرف إنما جاء وفق المعاني التي تعالجها، بميزان دقيق، وإحكام متين، لا يتوفر إلا في

---

[1] **قلت:** أوحى كلام الإمام بحاله قبل الحفر، من تحقق رقيه، وتقرر علوه، وتأكد ارتفاعه.

[2] التفسير القرآني للقرآن:523/5 بتصرف يسير.

[3] زهرة التفاسير: 3009/6 بتصرف يسير.

[4] نظم الدرر: 237/22 بتصرف.

لغة مصطفاة، ولسان قويم، اختاره المولى سبحانه؛ ليكون قوالب لكلامه الحكيم، ويعبر عن مراده في العالمين من زمكان نزوله إلى يوم الدين.

قلت: فمن سمو التعبير البياني، وروعة الإعجاز القرآني: أن المفردة في نظمه تأتي متسقة مبنًى مع مراحلها معنًى، فيشير أول حروفها إلى أول حدثها، ويشير الثاني إلى وسطه، ويؤخر ما يناسب آخر الحدث.

وفي هذه المناسبة قال العلامة ابن جني: " هذا ونحوه– يريد: مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث– أمر إذا أنت أتيته من بابه، وأصلحت فكرك، لتناوله وتأمله؛ أعطاك مَقَادَتَه، وأركبك ذِروَتَه، وجلا عليك بهجاته ومحاسنه، وإن أنت تناكرته، وقلت: هذا أمر منتشر، ومذهب صعب مُوعِر؛ حرمت نفسك لذته، وسددت عليها باب الحظوة به. نعم، ومن وراء هذا، ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع. وذلك؛ أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف، وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبَّر عنها بها، ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه؛ سوقًا للحروف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب.. فإن أنت رأيت شيئا من هذا النحو، لا ينقاد لك فيما رسمناه، ولا يتابعك على ما أوردناه؛ فأحد أمرين: إما أن تكون لم تنعم النظر فيه؛ فيقعد بك فكرك عنه، أو لأن لهذه اللغة أصولا وأوائل قد تخفى عنا، وتقصر أسبابها دوننا " [1].

وقال د/ صبحي الصالح معلقا: " فقد لاحظ علماؤنا من مناسبة حروف العربية لمعانيها، ولمحوا في الحرف العربي من القيمة التعبيرية الموحية؛ إذ لم يعنهم من كلِّ حرفٍ أنه صوت، وإنما عناهم من صوت هذا الحرف أنه معبر عن غرض، وأن الكلمة العربية مركبة من هذه المادة الصوتية التي يمكن حلّ أجزائها إلى مجموعة من الأحرف الدوالّ المعبرة، كل حرف منها يستقلّ ببيان معنًى خاصٍّ؛ ما دام يستقل بإحداث صوت معين، وكل حرف له ظل وإشعاع؛ إذ كان لكل حرفٍ صدًى وإيقاع! وإثبات القيمة التعبيرية للصوت البسيط وهو حرف واحد في كلمة، كإثبات هذه القيمة نفسها للصوت المركب ثنائيا كان أو أكثر. فقد مال علماء العرب إلى الاقتناع بوجود التناسب بين اللفظ ومدلوله، في حالتي البساطة والتركيب، وطَوْرَي النشأة والتوليد، وصورتي الذاتية والاكتساب. ففي حال البساطة: رأوا الحرف الواحد– وهو جزء من كلمة– يقع على صوت معين، ثم يوحي بالمعنى المناسب، سواء أكان في أول اللفظ، أم وسطه، أم آخره. كما أن علماء العرب قد اعتقدوا أن في تقديم ما قُدِّمَ، وتأخير ما أُخِّرَ، وترتيبها على نحوٍ معين– أسرارًا مدهشة، يعجب الباحث اليوم كيف تنبهوا إليها، واستنبطوها، ويكاد يسلّم لها ولو استشعر فيها الكثير من التكليف " [2].

قلت: ويكفي تقريرا لذلك ما سبق من جولة موجزة بشأن (في) الظرفية، ومن قبلها (إنَّ) التوكيدية، تحقق من خلالها صدق أحرفهما في ترتيبيهما التأليفي على الحدث الذي يعالجه كلاهما بنسقهما.

قلت: فمن إبداعات اللغة، وأسرارها البيانية: أن كلماتها تعبر عن مرادها، وتحاكي حدوثها، فـ (في) الظرفية بحرفيها خير شاهد على ذلك؛ لأن (الفاء) في أولها تمثل الفأس الذي يحفر، و(الياء) تابعتها تمثل الحفرة التي بسببها احتفرت؛ مما يقرر معنى الظرفية بتحقق الجمع بين آليتها ونتيجتها، بين سببها ومسببها، وكذا بين قبليتها ومستتبعاتها بما لا غاية وراءه، ولا مرمى بعده!. فسبحان مَنِ اصطفاها؛ لتكون لسان التنزيل السماوي، وترجمان الوحي الإلهي!.

المطلب الخامس: المفردة الخامسة: ﴿خُسْر﴾ حقيقتها، وأسرارها:

هذا، ويتجلى سر التعبير بالخسر، وأوجه تمكنه نظما، واقتضائه حالا، في ضوء الوقوف على حقيقته اللغوية واستعمالاته العربية، وأوجهه التفسيرية، وبنيته الصرفية، ودلالته النحوية. وفيما يلي عرض تأصيلي لمعنى الخسر عند أهل اللغة متبوعا ببيان معناه عند السادة المفسرين مشفوعا بالتعليق عليهما، والتوظيف لأقوالهما.

---

[1] الخصائص: 2/164– 166 بتصرف.

[2] دراسات في فقه اللغة، لـ د/ صبحي إبراهيم الصالح: صـ 142– 145 بتصرف.

أولا: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية:

قال الخليل: " خسر: الخُسْر: النقصان، والخسران كذلك، والفعل: خَسِرَ يَخْسَرُ خُسْرانا. والخاسِرُ: الذي وضع في تجارته[1]، ومصدره: الخَسارَةُ والخُسْرُ. كِلْتُهُ ووزَنْتُهُ فأَخْسَرْتُهُ، أي: نقصته. وقوله جَلَّ وَعَزَّ: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: 9]، أي: نقصا. وصفقة خاسرةٌ، أي: غير مربحة " [2]. **وقال الأزهري:** " كَرَّ كَرَّةً خَاسِرَةً، أَي: غير نافعة. وقَوْله جلّ وعزّ: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هُود: 63]، أَي: غير إبْعَادٍ من الْخَيْر " [3].

وقال ابن فارس: " (خَسِرَ): (الْخَاءُ)، وَ(السِّينُ)، وَ(الرَّاءُ): أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى النَّقْصِ. فَمِنْ ذَلِكَ: الْخُسْرِ وَالْخُسْرَانِ، كَالْكُفْرِ وَالْكُفْرَانِ، وَالْفُرْقُ وَالْفُرْقَانُ. وَيُقَالُ: خَسَرْتُ الْمِيزَانَ، وَأَخْسَرْتُهُ؛ إِذَا نَقَصْتَهُ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ " [4].

وقال العسكري: " والخسران: ذهاب رأس المال كله، ثم كثر؛ حتى سمي ذهاب بعض رأس المال خسرانا. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ..﴾ [الزمر: 15]؛ لأنهم عدموا الانتفاع بها؛ فكأنها هلكت، وذهبت أصلا، فلم يقدر منها على شئ [5]. وأصل الخسران في العربية: الهلاك " [6]. **وقال الراغب:** " (خسر): الخُسْرُ، والخُسْرَان: انتقاص رأس المال، وينسب ذلك إلى الإنسان؛ فيقال: خَسِرَ فلان، وإلى الفعل؛ فيقال: خسرت تجارته. ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة، كالمال والجاه في الدّنيا، وهو الأكثر، وفي المقتنيات النّفسيّة، كالصّحّة، والسّلامة، والعقل، والإيمان، والثّواب، وهو الذي جعله الله تعالى الخسران المبين، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَلا ذلِكَ هُوَ الْخُسْرانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15]. وقوله: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾ [الرحمن: 9]، يجوز أن يكون إشارة إلى تحرّي العدالة في الوزن، وترك الحيف فيما يتعاطاه فيه، ويجوز أن يكون ذلك إشارة إلى تعاطي ما لا يكون به ميزانه في القيامة خاسرا [7]، وكلا المعنيين يتلازمان " [8]. **وقيل:** " الخسرواني: شراب، وَنَوع من الثِّيَاب " [9].

ثانيا: الأوجه التفسيرية الواردة في المفردة القرآنية:

تجلت الدلالة اللغوية عند السادة المفسرين مكسوة بنمط من التفصيل، ونوع من التطور الدلالي، والارتقاء الاستعمالي، مدمجة بأنماط من التعليل، وأضرب من التوجيه، وفيما يلي عرض لأقوال أئمة التفسير مذيلة بالتعليق عليها.

---

[1] **قلت:** وعليه فالتعبير بالخسر يُفْهِمُ أن الإنسان في تجارة، وأن الخاسر هو الذي وضع في تجارته، أي: هو السبب الأساس في تلك الخسارة.

[2] العين (خ س ر): 4 / 195 بتصرف يسير.

[3] تهذيب اللغة (خ س ر): 76/7. **قلت:** وإسناد زيادة الخسر إليهم موح؛ إذ إنه يؤكد ترتبه على أفعالهم، فهو أثر من آثار سوء اختياراتهم.

[4] مقاييس اللغة (خ س ر): 2 / 182 بتصرف يسير.

[5] **قلت:** تعليل خسارة أنفسهم؛ لأنهم عدموا الانتفاع بها موح؛ لكونه مسجلا عليهم قبح أفعالهم التي آلت بهم إلى خسرانهم، فهو مرتبط بتوجيه حركاتهم الحياتية، وصرف أعمارهم في لذاتهم الدنية؛ مما أدى إلى هلاكها، وذهابها أصلا وبالكلية.

[6] معجم الفروق اللغوية: صـ 574.

[7] **قلت:** النهي عن خسر الميزان، يقتضي النهي عن مقتضى ذلك، من ترك الحيف في تعاطيه؛ ومن ثَمَّ فهو مسهم في الكشف عن أن الخسر يكون بمقتضى أفعالهم، ووفق سوء اختياراتهم.

[8] المفردات (خ س ر): صـ 281 وما بعدها بتصرف.

[9] الكليات: صـ 435.

فقال الفراء شارحا: " ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾: لفي عقوبة بذنوبه[1]، وأن يخسر أهله، ومنزله في الجنة " [2]. **وقال الإمام الطبري:** " قوله: ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يقول: إن ابن آدم لفي هلَكة ونقصان " [3]. **وقال الإمام الماتريدي:** " وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: إن الدنيا وما فيها كأنها خلقت وأنشئت متجرًا للخلق، والناس فيها تجار؛ كما ذكره في غير آي من القرآن، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]، وقال سبحانه: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10]، أي: إن الإنسان لفي خسار من تجارته ومبايعته ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية " [4]. **وقال الماوردي مأثورا:** " في الخسر أربعة أوجه. أحدها: لفي هلاك. الثاني: لفي شر. الثالث: لفي نقص. الرابع: لفي عقوبة " [5].

وقال الإمام الواحدي: " ﴿إِنَّ الإِنْسَانَ﴾، يعني: جميع الناس، ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، الخسر كالخسران، وهو النقصان، وذهاب رأس المال، والمعنى: إن كل إنسان، يعني: الكافر؛ لاستثنائه المؤمنين، لفي ضلال حتى يموت، ويدخل النار، وقال أهل المعاني: الخسر: هلاك رأس المال، والإنسان في هلاك نفسه وعمره، وهما أكثر رأس ماله، إلا المؤمن العامل بطاعة الله تعالى " [6]. **وقال الإمام الكرماني مقدرا:** " أي: هلاك، وقيل: خسروا أهاليهم، ومنازلهم في الجنة، وقيل: في عقوبة. وقيل: في خسر من عُمُره، فقد قال بعض الصالحين: يا ابن آدم، أنت في هدم عمرك منذ ولدت من بطن أمك، وقيل: الإنسان إذا تنفس؛ تنقص " [7].

وقال الإمام ابن عطية: " ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 9]، من أخسر، أي: نقص، وأفسد " [8]. **وقال الإمام البيضاوي:** "﴿إِنَّ الْإِنْسانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: إن الناس لفي خسران في مساعيهم، وصرف أعمارهم في مطالبهم " [9]. وتبعه العلامة أبو السعود [10]. **وقال الحافظ ابن كثير مقدرا:** " فأقسم تعالى بذلك على أن الإنسان لفي خسر، أي: في خسارة وهلاك " [11]. **وقال الإمام الإيجي:** " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾: كلهم، ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، في مساعيهم " [12].

وقال الخطيب الشربيني مأثورا: "﴿لَفِي خُسْرٍ﴾: غبن، هلكة، عقوبة، شرّ. وقيل: أراد أن الإنسان إذا عمر في الدنيا وأهرم لفي ضعف ونقص وتراجع، إلا المؤمنين؛ فإنه يكتب لهم أجورهم التي كانوا يعملونها في حال شبابهم[13]، ونظيره قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين:

---

[1] **قلت:** تأويل: (لفي عقوبة..) معبر؛ لأنه يفهم أن الخسر مرتبط بسوء أفعاله ممثلة في ذنوبه، ومن ثَمَّ فيسجل عليه قبح حركته، ويتوعد عليها بإثبات عقوبته.

[2] معاني القرآن، للفراء: 289/3.

[3] تفسير الطبري: 24 / 589 وما بعدها بتصرف.

[4] تفسير الماتريدي: 611/10.

[5] النكت والعيون: 333/6 وما بعدها بتصرف.

[6] التفسير الوسيط: 4 / 551 بتصرف.

[7] غرائب التفسير وعجائب التأويل، لأبي القاسم برهان الدين محمود بن حمزة الكرماني: 2/ 1385 بتصرف يسير.

[8] المحرر الوجيز: 225/5.

[9] أنوار التنزيل: 5 / 336 بتصرف يسير.

[10] **حيث قال مقدرا:** " ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أي: خسران في متاجرهم ومساعيهم، وصرف أعمارهم في مباغيهم ". إرشاد العقل السليم: 197/9.

[11] تفسير ابن كثير: 480/8.

[12] تفسير الإيجي: 527/4.

[13] **قلت:** كلام الخطيب أوفى ما قيل؛ لكونه أكثر استقصاء، وأشمل تعبيرا؛ إذ اتسع ليشمل ما يناسب حال الإنسان باعتبار بعده الإنساني، كما اتسع ليشمل حاله باعتبار بعده الزمكاني، وتفصيله: أنه كلما مر من عُمُره؛ فهو مدفوع إلى الأمام حيث النقصان الفسيولوجي المشاهد للعيان.

4- 6] " [1]. **وقال إسماعيل حقي:** " ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾: الخسر والخسران، معناه: النقصان، وذهاب رأس المال في حق جنس الإنسان هو نفسه وعمره " [2]. **وقال ابن عاشور:** " والخسر: مصدر وهو ضد الربح في التجارة، استعير هنا لسوء العاقبة لمن يظن لنفسه عاقبة حسنة، وتلك هي العاقبة الدائمة، وهي عاقبة الإنسان في آخرته من نعيم أو عذاب " [3].

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب: " والإنسان في خسر، أي: في ضلال؛ لأنه لم يعرف قدره، ولم يرتفع بإنسانيته إلى المقام الذي أهله الله سبحانه وتعالى له. فلقد خلق الله سبحانه الإنسان في أحسن تقويم، ولكن الإنسان لم يلتفت إلى هذا الخلق، ولم يقدره قدره، ولم يأخذ الطريق الذي يدعو إليه العقل، بل انقاد لشهواته، واستخف بإنسانيته، وتحول إلى عالم البهيمة، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام. ذلك هو شأن الإنسان في معظم أفراده وأحواله " [4].

وقال فضيلة الإمام محمد سيد طنطاوي: "وقوله: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن: 9] من الإخسار، بمعنى: النقص، والبخس، والجور " [5].

هذا، وقد ورد في القرآن الكريم استعمال " مادة (خ س ر) خمس وستين (65) مرة. فيقال: خسر يخسر خسرا وخسارا وخسرانا: أصابه النقص أو الضياع، في نفسه أو فيما ينسب إليه من أهل ومال؛ فهو خاسر. وخسر نفسه وأهله وماله يخسرها خسرا: أضاعها، وأهلكها؛ فلم ينتفع بها. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذْ الشَّيْطَانَ وَلِيّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانا مُبِينًا﴾ [النساء: 119]، أي: أصابه النقص، أو الضياع. وأخسر الميزان أو المكيال: أدخل على الكيل أو الوزن النقص " [6].

التعليق:

قلت: من اللافت للنظر: أنه قد تجلى من تراثنا العربي: اللغوي، والتفسيري على السواء أن ثَمَّةَ إجماعا على أن الخسر- في أشهر مدلولاته- بمعنى النقص، ولكن الاستعمال القرآني قد خص سياقاته باستعمال إحدى الكلمتين دون الأخرى، ولا يمكن القول: إن هناك مفردة عربية بمعنى أخرى على إرادة المساواة بينهما مطلقا، بل يقبل هذا إذا كان على وجه تقريب المعنى بلفظ آخر متسما بكونه أكثر وضوحا، وأشهر استعمالا، أو أكثر دورانا فحسب، لاسيما إذا كان بين المفردتين (المفسَّرة، والمفسِّرة)، قاسم مشترك من الدلالة المعنوية، كما هو الشأن هنا.

أما واقع الأمر، وحقيقة الحال: فإن لكل بنية عربية شخصيتها المستقلة، وهويتها المنفردة، وخصائصها الذاتية، واستعمالاتها اللسانية، وانفراداتها سواء أكان ذلك على المستوى الدلالي، أم الاستعمالي، أم الإيحائي، أم الإشاري.. إلخ من حيثيات؛ مما يحكم بتمكنها نظما، ويكشف عن حيثية اقتضائها حالا، ويعلن وجه تطلبها مقاما، ويجتلي سر بلاغتها، وينفي إمكانية الاستعاضة عنها بسواها، مقدما بذلك برهان إعجازها.

وعلى هذا كان لابد من التساؤل حول الفرق بين معنيي: (الخسر)، و(النقص)، واستظهار وجه التلاقي فيهما، والوقوف على حيثيات المفارقة بينهما، سيما وقد تقرر تعلق الأصل (خسر) بمعنى النقص، وشاع في استعمالاته، وارتبط وضعا به؛ مما يدعو إلى تأصيل مادته (ن ق ص) وبيان استعمالاتها؛ بلوغا إلى سر إيثار التعبير بالخسر ثَمَّ دونها.

---

[1] السراج المنير : 584/4 بتصرف.

[2] روح البيان: 506/10.

[3] التحرير والتنوير: 531/30.

[4] التفسير القرآني للقرآن: 1669/16.

[5] التفسير الوسيط: 131/14.

[6] معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، لحسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل: 37/2 وما بعدها بتصرف.

فقال الخليل: " (نقص): النّقْصُ: الخسران في الحظ، والنُّقصان مصدر، ويكون قدر الشيء الذاهب من المنقوص اسما له. ونَقَصَ الشيء نقصا ونُقصانا، مصدر، ونُقصانه كذا وكذا، وهذا قدر الذي ذهب. والنَّقيصةُ: الوقيعة في الناس[1]، والانتِقاصُ الفعل، وانتقَصْتُ حقه؛ إذا نَقَصْتُه مرة بعد مرة " [2]. **وقال ابن فارس**: " (نَقَصَ): (النُّونُ)، وَ(الْقَافُ)، وَ(الصَّادُ): كَلِمَةٌ وَاحِدَةٌ، هِيَ النَّقْصُ: خِلَافُ الزِّيَادَةِ. وَنَقَصَ الشَّيْءُ، وَنَقَصْتُهُ أَنَا، وَهُوَ مَنْقُوصٌ. وَالنَّقِيصَةُ: الْعَيْبُ؛ يُقَالُ: مَا بِهِ نَقِيصَةٌ، أَيْ: شَيْءٌ يَنْقُصُ. وَمَرْجِعُ الْبَابِ كُلِّهِ إِلَى هَذَا " [3].

كما أن مادة (ن ق ص) " قد وردت عشر مرات (10) في القرآن. فيقال: نقص ينقصه نقصا فهو منقوص. يقال: نقصه: أذهب منه شيئا، واقتطع منه جزءا. تقول: نقصت الصحيفة: إذا أخذت منها جزءا. ويقال: به نقيصة: أتي به غير تام، تقول: نقص الجدار؛ إذا بناه غير واف كأمثاله. ويقال: نقصه حقه: لم يوفه إياه، بل أعطاه أقل مما يجب له. وقوله سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: 4]، أي: تبليهم، وتقتطع من أبدانهم. وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ﴾ [هود: 84]، نقص المكيال والميزان: اقتطاع جزء من الميكال أو من صنجات الميزان، أو جعل المكيال والميزان أقل مما يجب فيهما، أو جعل المقدر بهما أقل مما يجب. وقوله عز وجل: ﴿..إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئا﴾ [التوبة: 4]، أي: لم يوفوكم حقكم؛ بأن نقصوا بعض شروط المعاهدة " [4].

وقال الإمام البقاعي حادا: " النقص: أخذ جزء من المقدار. والمنقوص: المقدار المأخوذ جزء منه " [5]. **وقال في غير موضع**: " النقص: أخذ شيء من الجملة تكون به أقل " [6].

أقول: تمهد مما سبق من التأصيل التراثي (اللغوي، والتفسيري): أن الخسر يتلاقى مع النقص في إفادة نفس معناه، وارتسام مدلوله، إلا أن الخسر يختص بأن فيه مبالغة في تحقق معنى النقص، وتنوع جهاته؛ إذ يدل في أصل معناه على إذهاب رأس المال بالكلية، ويسهم في تصوير هذا البعد مدلول: (الإهلاك)؛ إذ إن فيه إشعارا بكامل إذهابه، وتلويحا بشدة الفقد، مع الإيحاء من وراء ظلاله بأنه لا سبيل لعودة المفقود؛ فكان أشد اتساقا مع المقام، وتناغما مع حال ما انصرم من الزمن؛ إذ إنه لا يعود أبدا. أما النقص فيفيد مجرد الاقتطاع، وأخذ جزء من كلٍ، مع بقاء أصل هذا الكل (المأخوذ منه)، مصورا أنه قد يبني على هذا الكل حتى يزيده بعد نقصه، وينميه بعد زوال جزئه.

قال الإمام الرازي ملوحا إلى هذا المعنى: " فكأن المعنى: والعصر العجيب أمره؛ حيث يفرح الإنسان بمضيه؛ لظنه أنه وجد الربح مع أنه **هدم لعمره** " [7].

قلت: تعبيره بالهدم له بليغ الوقع، وعظيم الأثر؛ إذ إن معنى الهدم لا يتوقع معه العود، بل هو يوحي بالإفناء لا إلى بدل، والنقص من حيث لا عوض.

كما أن الخسر معلق بالأعمار، وهي من الغيبيات والمعنويات، ولا يترتب عليه تحديد مقدر [8] الجزء الفائت ولا الباقي، في حين أن النقص يرتبط بما هو من قبيل المشاهدات والماديات، ويترتب عليه اقتطاع جزء محدد هو عين المنقوص، مع الإيحاء بمعلومية

---

[1] **قلت**: وهذا أحد الجوانب المظلمة التي تؤذن بها مادة (ن ق ص)، أما الخسر فينتظم أعمالا أكثر فسادا، وأبلغ أثرا، وأفدح وقعا؛ إذا ما قورنت بالنقص.

[2] العين (ن ق ص): 65/5 بتصرف يسير.

[3] مقاييس اللغة (ن ق ص): 470/5.

[4] معجم وتفسير لغوي: 104/5 وما بعدها بتصرف.

[5] نظم الدرر: 387/9 بتصرف.

[6] نظم الدرر: 364/10.

[7] التفسير الكبير: 277/32 وما بعدها بتصرف.

[8] **أي مقدار عُمُره**: (ربعه، أو ثلثه، أو نصفه، أو أكثر، أو أقل.. إلخ).

تحديد الجزء المقتطع منه؛ وعليه فلا يقال: نقص عمره كذا (ربعا، أو ثلثا، أو نصفا..) إلا وهو يعلم كم سيعيش بعد؛ إذ قد يموت من فوره، وعليه يكون القول المنطبق على هذا الحال: انتهى عمره، أو فني، أو هلك. أما إذا قيل: خسر الإنسان عمره، فهو يؤذن بانصرامه، ومضيه في مساعيه دون تحديد قدر المتبقي، ولا قدر المنصرم. **هذا من وجه. ومن وجه آخر**: فإن قضية نقص العمر أمر واقع للجميع، وحقيقة مقررة للمؤمن والكافر على السواء، فنقصانه لا يسجل الذم، ولا يعرض بعدم الانتفاع به، ولا يوحي بنوع إنفاقه في المساعي المتعددة، ولا يحمل في طياته تهديدا، ولا وعيدا، ولا زجرا، ولا ترهيبا.. إلخ مما هو من مقتضيات الحال.

أما التعبير بالخسر فيرتبط بسعي الإنسان، لذا؛ يقال: صفقة خاسرة، وكرة خاسرة، والحال يقتضي ارتسام تلك الحركات؛ لأن العصر باعتباره الدهر، أي: الزمان، عبارة عن المسافات المقطوعة وفق سرعاتها المتنوعة. فالمناسبة بين الأبعاد الثلاثة (الزمن، والمسافة، والسرعة)، تمثلها العلاقة الحسابية التالية: (الزمن= المسافة/ السرعة). فلما حفل السياق بالقسم بمخصوص هو الزمان؛ كان من مقتضيات ذلك: التعبير بمادة فيها إشارة إلى الحركة التي تتطلب مسافة معينة، وسرعة محددة؛ ليقع بديع التناسب بين ركني القسم، ويتجلى وشيج العلاقة بينهما.

ومن ثَمَّ فيفهم في ضوئه تقرير عدم الانتفاع برأس مال المرء وهو عُمُرُه، وإنفاقه فيما يرديه، ونقصه بحسب مساعيه في أهوائه، وصرفه في أغراضه، وهو بذلك يتسق مع أوصاف الإنسان، ويتناغم بديع التناغم مع المقام. لاسيما إذا ما تقرر عقلا جميل وقع ارتباط الأحكام بأسبابها الداعية إليها، وحسن إيرادها في معرض الذم؛ ليتسنى تداركها.

وفي هذه المناسبة قال الإمام البغوي: " الخسران: ذهاب رأس مال الإنسان في هلاك نفسه وعمره بالمعاصي، وهما أكبر رأس ماله " [1].

وقال الإمام الرازي: " بالجملة أن الخاسر اسم عام يقع على كل مَنْ عمل عملا لا يجزى عليه؛ فيقال له: خاسر، كالرجل الذي إذا تَعَنَّى وتَصَرَّف في أمر فلم يحصل منه على نفع؛ قيل له: خاب، وخسر؛ لأنه كمَنْ أعطى شيئا ولم يأخذ بإزائه ما يقوم مقامه، لذا؛ سمى الكفار الذين يعملون بمعاصي الله خاسرين، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴾ [الكهف: 103، 104] والله تعالى أعلم " [2].

كما أن الخسر يكون- غالبا- فيما لا يقبل القسمة، كالنفس، والأهل؛ فيقال: خسروا أنفسهم، وخسروا أهليهم. علاوة على أنه يمتد أثره لما بعد العالم المرئي المحسوس؛ ومن ثَمَّ كان من معمولاته: الدنيا، والآخرة؛ فيقال: خسر الدنيا والآخرة. قَالَ الله جلَّ وعزَّ: ﴿..خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحَجّ: 11]؛ فمعنى النقص فيه أفدح، والخسارة به أجدر، وله أوقع. **ومن ثَمَّ قال الإمام أبو حيان متعجبا**: " أي خسران أعظم ممن خسر الدنيا والآخرة؟! " [3]. مما يبشع من حاله، ويهول من أثره ومآله.

هذا، والإسناد في ضوء التعبير بالخسر أكثر وضوحا، وأقوى أثرا منه في ضوء التعبير بالنقص؛ إذ إن معمول الخسر قد يكون النفس، أو المال، أو الأهل، أو الدنيا، أو الآخرة.. إلخ. ولا ترد مادة (ن ق ص) عاملةً في كل تلك المعمولات مسندة مباشرة إلى الإنسان. وبيان ذلك: أنه يقال: خسر الإنسان حياته، وخسر أهله وماله، وخسر دنياه وآخرته، فالخسر مسند إليه في تلك الأمثلة، وواقع عليه مباشرة.

لكن إذا أريد أن تحل كلمة (نقص) محل (خسر)؛ قيل: نقصت حياة الإنسان، ونقص أهله، ونقصت دنياه، ونقص ماله. فالنقص مسند إلى الحياة، وإلى الأهل، وإلى الدنيا، وإلى المال، لا إليه مباشرة. ولا يخفى ما في الاستعمالين، ولا ما في الإسنادين، ما هو لائح من فرق دقيق، وأثر تفسيري بديع، ووقع بياني بليغ!.

---

[1] تفسير البغوي: 302/5.

[2] تفسير الرازي: 375/2 بتصرف.

[3] البحر المحيط: 539/10.

هذا، وأكثر ما تستعمل (خسر) في المعنويات، وغير المملوكات كالنفس والعمر والدنيا والآخرة، وتتسع لتدل على العموم والإطلاق في معمولاتها. أما (نقص) فتكون في الماديات، والمملوكات، والمقررات مراعا فيها مجرد الاقتطاع الجزئي من المحل الكلي. قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا..﴾ [الرعد: 41]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا..﴾ [التوبة: 4]، أي من بنود العهد.. إلخ.

ويضاف إلى تلك المفارقات: أن النقص أمر طبعي إجباري (سنة، أو قانون)، أما الخسر فهو أمر حدثي اختياري من وجه، وحقيقة مقررة وسنة حاصلة من وجه آخر.

هذا، وقد تقرر أن الخسر ينسب إلى الإنسان، وإلى فعله، ويستعمل في مقتنياته الخارجة، والنفسية، والمبادئ والقيم الحياتية، كما أنه وصف للصفقة غير المربحة، وللكرة غير النافعة. وفي ضوء ذلك تتقرر مناسبته لحركة الإنسان، ويتسق مع صرفه ومساعيه، ويستجيب لسوء اختياراته، فالخسر نتيجة حركة. أما النقص فلا يلزمه ذلك، والله تعالى أعلم. ويشهد له– ولو بوجه– أن الخسر جاء مسندا للإنسان أما النقص فقد أسند عمله إلى الرحمن؛ فقال سبحانه: ﴿نَنقُصُهَا﴾ [الرعد: 41]، ولم يقل: (نخسرها).

قلت: فتقرر مما سلف وجه التلاقي بين المفردتين، وتبين بعض الأوجه التي تُنَوِّهُ بإيثار التعبير بـ (الخسر) دون (النقص)، وتجلى أن (النقص) كالجزء من (الخسر)؛ إذ يتفقان معا في وجه من الدلالة، في حين أن الخسر ينفرد بالفيض الدلالي، والثراء المعنوي، والعمق الإيحائي، والبعد الإشاري.. إلخ. وفيما يلي مزيد تفصيل يتجلى في ضوئه بلاغة التعبير بالخسر، وأكيد تمكنه في النظم، ويعلن في ظله أنه من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام.

التوسع في المعنى؛ بتوظيف الأبعاد الدلالية للمفردة القرآنية ﴿خُسْر﴾:

قلت: تجلى مما سبق: أن مادة (خ س ر) يدور فلكها على محور واحد بحيثيات متعددة، وهو ينتظم الغزير من الدلالات، والعديد من المعاني والإيحاءات، والبليغ من أسمى الإشارات، التي يكمل بعضها بعضا، ويفهم بعضها في ضوء بعض، ويقود بعضها إلى بعض، وفي صدارتها: النقص، وضع التجارة، ذهاب رأس المال، انعدام الربح (صفقة غير مربحة)، الإبعاد من الخير، البخس، الجور، الهلكة، الظلم، الحيف، الضلال حتى الموت ودخول النار، الشر، العقوبة بالذنب، سوء العاقبة، هلاك النفس والعمر، الفساد، الضياع، الغبن، الضعف، والتراجع.. إلخ.

ومن ثَمَّتْ فقد جاء التعبير بالخسر متمكنا في نظمه، بديعا في سبكه، مكملا وظيفة أسلوبه، مترجما رسالته؛ حيث قد أسهم إيثاره في الإنباء عن حقيقة معناه، والتنويه بأبرز أسبابه، وأظهر ملامحه، وتحقيقه بالغ الاتساق مع عنوان موضوعه، والإفصاح عن سببيته، والإعراب عن نتيجته، وهو في ذلك مرتبط بأسبابه، منطوٍ على مآلاته، مستوعب حالاته، حاصر جهاته، هذا مع استحضاره مبدأ التصوير الذي يقرب معناه، ويحقق نتيجته، ويرتسم واقعه من خلال الاستعمالات الحسية في طياته. **وهذا إجمال تفصيله فيما يلي:**

أما الإنباء عن حقيقة معناه: فيفهم في ضوء مدلول: (النقص) فكان له بليغ الوقع، وجليل الصدى؛ إذ قد ارتبط وضعا بذهاب رءوس الأموال وإهلاكها بالكلية، وتعلق استعمالا بالأرزاق وأسباب تحصيلها، وعمل في النفوس وحياتها، وأسند إلى أنفس ما تملكه، وأغلى ما يسند إليها.

إلا أنه يمكن القول: إن الخسر أصل يشمل أمرين. الأول: وصف حركة الإنسان، ومستتبعات رغباته، وتوابع أفعاله، وروافد اختياراته. الثاني: إقرار حقيقة مرتبطة به، وهي انتقاص عمره، وصحته، وشبابه.. إلخ. فكان معنى الفقد فيه أفدح، والخسار أبلغ، وتحقق الضياع أشد وأوقع.

وكان من تمام الإعراب عن تلك الحقيقة: أنه قد آذن بحقيقة مشاهدة، وهي أن حياة الإنسان لا محالة إلى زوال؛ فهو عبارة عن أوقات يعيشها، وأزمنة يستغرقها، لذا؛ فعُمُرُه في خسر بمضيه عموما، وبإنفاقه فيما لا ينبغي خصوصا؛ فتحقق له الخسر على آكد وجه، وأبلغ بيان!.

قال الإمام الرازي مقررا تلك الحقيقة ضمن قرائنها: " اعلم أن الله تعالى قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته تعالى في بيان كون الإنسان في خسر. **أحدها:** قوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ يفيد أنه كالمغمور في الخسران، وأنه أحاط به من كل جانب. **وثانيها:** كلمة ﴿إِنَّ﴾؛ فإنها للتأكيد. **وثالثها:** حرف (اللام) في: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، وهاهنا احتمالان: **الأول:** في قوله تعالى: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أي: في طريق الخسر، وهذا كقوله في أكل أموال اليتامى: ﴿إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾[1] [النساء: 10]؛ لما كانت عاقبته النار. **الثاني:** أن الإنسان لا ينفك عن خسر؛ لأن الخسر هو تضييع رأس المال، ورأس ماله هو عُمُره، وهو قلما ينفك عن تضييع عُمُره، وذلك؛ لأن كل ساعة تمر بالإنسان، فإن كانت مصروفة إلى المعصية؛ فلا شك في الخسران، وإن كانت مشغولة بالمباحات، فالخسران- أيضا- حاصل؛ لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر، مع أنه كان متمكنا من أن يعمل فيه عملا يبقى أثره دائما، وإن كانت مشغولة بالطاعات، فلا طاعة إلا ويمكن الإتيان بها، أو بغيرها على وجه أحسن من ذلك؛ لأن مراتب الخضوع والخشوع لله تعالى غير متناهية؛ فإن مراتب جلال الله سبحانه وقهره غير متناهية، وكلما كان علم الإنسان بها أكثر؛ كان خوفه منه تعالى أكثر؛ فكان تعظيمه عند الإتيان بالطاعات أتم وأكمل، وترك الأعلى والاقتصار بالأدنى نوع خسران؛ فثبت أن الإنسان لا ينفك البتة عن نوع خسران " [2].

وكذا مدلول: (وضع التجارة)؛ إذ نَوَّهَ من وراء ظلاله بوظيفة الإنسان الحقيقية في داره الدنيا، فهو في تجارة حياتية، ضمن أسباب مادية، في إطار حركات مبذولة، ومسافات من قبله مقطوعة؛ مما يؤذن بأن خسارته مرتبطة بحركاته، ومترتبة على سوء اختياراته. مع الإيحاء بأن رأس تلك التجارة إنما هو عُمُره ونفسه؛ ومن ثَمَّة فمعنى الوضع فيهما أفدح، وتعلقه بهما أخسر، وانعدام الربح في استحضار عنوانهما أبلغ.

وأما التنويه بأبرز أسبابه، وأظهر ملامحه: فيتمثل في ضوء مدلولات: الإهلاك، والضياع، والتراجع، والفساد، والجور، والفساد، والغبن؛ فهو يهلك نفسه، ويضيع رأس ماله ممثلا في عُمُره، ويتراجع عن القيام بمهماته الحقيقة، ووظيفته الدينية، ويتقاصر عن إحراز فضائله السنية. كما أنه يدخل على نفسه الفساد، ويصيبها بالنقص والإذهاب، معديا أثر ذلك في الأهل، وفي العمر، وفي المال؛ فهو مغبونٌ أشد الغبن، خاسرٌ أبلغ الخسر.

هذا، وقد أثمر ذلك أثرا معنويا بعيد المرمى، سامق الغاية؛ إذ آذن بكون النفس والعُمُر هما رأس مال المرء الحقيقي، معرفا من وراء ذلك بحقيقة لا يسع إنكارها، وهي أن الإنسان بمقتضى كونه إنسانا إنما هو عدو نفسه وقاهرها، ومرديها ومهلكها، ومفسدها ومضيعها. ولا عجب فقد أنبأنا النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس، منوها بشدة العداوة بين المرء ونفسه، معلنا بذلك وقع الحرب بين الإنسان وبينها، وعظيم الأجر إزاء مجاهدتها.

ومما يقرر هذا المعنى: قول النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم: " ألا أخبركم بالمؤمن؟ مَنْ أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم مَنْ سلم الناس من لسانه ويده، والمجاهد مَنْ جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر مَنْ هجر الخطايا والذنوب " [3].

فما أسند إلى الإنسان من الخسران، إنما هو نوع من الفقد الفادح، ونمط من النقص العظيم؛ حيث قد استوعب ذهاب رأس المال كله (أصالة)، أو بعضه (استعمالا)، وفي تقرير هذا ما يحمل الإنسان على تدارك الأمر قبل فوات الأوان، مع فتح باب الأمل أمامه بطاعة الرحمن سبحانه، وحمله على التذكر والإذعان له جل جلاله.

وأما تحقيقه بالغ الاتساق مع عنوان موضوعه (الإنسان): فهو من الظهور والبيان بمكان، ومن التجلي والتلألأ بمنزل لا يرام؛ إذ قد انطوى التعبير بالخسر على معان كثيرة، معلنة عن ذلك الإنسان أحوالا عظاما، كاشفة عنه طبائع عجابا، مجلية له أخلاقا سوءا، مرتسمة إياه حالا ومآلا، ومنها: الضعف، وعدم الوفاء بالحق، وجعل الشيء أقل مما يجب، والإبعاد من الخير، والشر،

---

[1] **قلت:** هذا الخبر باعتبار ما سيكون؛ إذ إنه يحمل في طياته العقاب المقرر، ويسجل المآل المحتوم.

[2] تفسير الرازي: 280/32 بتصرف.

[3] **إسناده صحيح:** أخرجه الإمام أحمد: أحاديث رجال من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام، مسند فضالة بن عبيد الأنصاري، برقم (23958). مسند الإمام أحمد (ط/ مؤسسة الرسالة): 381/39.

والفساد، والضياع، والبخس، والغبن، والجور، والهلكة، والظلم، والحيف، والضلال حتى الموت.. إلخ. وكل تلك المعاني تتوفر في مطاوي عنوان الإنسان، وتعد أثرا من آثاره، وبعدا من أبعاده، ولازما من لوازم اشتقاقه، سواء أكان من النسيان، أم من الأنس بنفسه؛ إذ هما رأس القبائح على تعددها، وجماع المفاسد على اختلافها كما قد تقرر. **وفي هذه المناسبة قال الإمام الطبري مأثورا:** " وإنما سمي إنسانا؛ لأنه عهد إليه فنسي " [1].

وبتلك المدلولات قد سجل الحق سبحانه وتعالى عليه سيء أفعاله، وشين أحواله التي آلت به إلى ما لا يحبه لنفسه، ولا يسير وفق طبعه، من سوء مغبة المآل؛ لكونه شديد حب الخير لنفسه حريصا على النوال؛ كما قال تعالى مسجلا عموم حاله: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: 8].

وعليه فإن مادة (خ س ر) فيها الجمع بين العمل والجزاء عليه، فالموصوف أراد بسوء أعماله الربح؛ فخسر، وأراد إنقاص غيره؛ فنقص، وعُنِيَ بالمظالم، وصدر منه البخس، والجور؛ فنال ما يستحقه، وحاق به أفدح مما أذاقه غيره، وتوجهت رغبته نحو النماء؛ فكسد، وتعلقت نفسه بالبقاء؛ فهلكت.. إلخ.

وأما الإفصاح عن سببيته: فقد عملت المفردة على تثقيف النفوس بأسباب خسارتها، مقررة أنها قابعة في جوانبها، ومستقرة في كوامنها، ويصورها مدلولات: الظلم، والفساد، والغبن، والبخس، والجور، والشر، والفساد، والضلال حتى الموت، وما في معناها؛ إذ بها يدفع الإنسان إلى صرف عمره في سوء مساعيه، وإنفاقه في قبيح مطالبه، وتقلبه في رديء أحواله.

وأما الإعراب عن النتيجة المحتمة، والعقبى البدهية المقررة: فعنوانها خسارة النفس، وإهلاكها؛ لعدم الانتفاع بها، واقتحام موارد ترديها، والإقدام على خطوب تعذيبها، وإذهابها بالكلية؛ لأن ذلك الإنسان لم يعرف قدره، ولم يرتفع بإنسانيته إلى المقام الذي أهله إليه ربه سبحانه؛ فاستحق نتيجة قبح أعماله، وحصاد ثمرة سوء اختياراته، وهي ممثلة في ظلال مدلولات: الهلاك، والنقص، والعقوبة لاسيما ارتباطها بالذنب، والضياع، وسوء العاقبة، ودخول النار. مع التنويه بأنه هو السبب الأصيل في سوء المصير، والعامل المؤكد في قبح المآل.

وفي هذا الشأن قال الإمام ابن عاشور: " هذا الخسر متفاوت، فأعظمه وخالده: الخسر المنجر عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله تعالى وصدق الرسول صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، ودون ذلك تكون مراتب الخسر متفاوتة، بحسب كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها. وهذا الخبر مراد به الحصول في المستقبل بقرينة مقام الإنذار والوعيد [2]، أي: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ في الحياة الأبدية الآخرة؛ فلا التفات إلى أحوال الناس في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ. مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 196، 197] " [3].

قلت: وكلام الإمام له وجهته، وقوة وقعه، إلا أنه لا وجه لتخصيصه الخسر بالآخرة، وحصره فيها، لاسيما وأن مقام الإنذار والوعيد يقتضي عموم الخسر، سواء أكان في كثرة متعلقاته، أم في تنوع جهاته، أم في تعدد مواقع تحققه، الأمر الذي يأباه التخصيص المذكور.

ومما سبق يتقرر بإحكام حقيقة ما الذي خسره الإنسان؟ فقد خسر نفسه، وعمره، وماله، وأهله، وأنفس وأثمن ما يملكه في داره الدنيا، كما خسر منزلة في الجنة، وفقد حسن مآله. لذا كان من بديع البلاغة وجميل المبالغة أن يأتي الخسر منكرا؛ لإفادة العموم والإطلاق كما سيتقرر.

هذا، وخلاصة تلك السبيكة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: أنه لما صَدَّرَ الحق سبحانه وتعالى قضية المقسم به بالتأكيد بـ ﴿إِنَّ﴾، وجعل ﴿الْإِنْسَانَ﴾ عنوان الموضوع، وقد علم أنه وَسْمٌ لذلك المخلوق من حيث كونه أنس بنفسه، ونسي عهد ربه،

---

[1] تفسير الطبري: 96/17.

[2] **قلت:** وفي كلام الإمام ما يشهد بدلالة الحال على مكية السورة؛ لأن مقام الإنذار والوعيد من شأن القرآن المكي اطرادا، أما المدني فمن شأنه ذلك عرضا، لاسيما وأن القرآن المدني يُعْنَى في المقام الأول بالتشريعات، والأخلاق، والآداب.. إلخ.

[3] التحرير والتنوير: 531/30 وما بعدها بتصرف.

وقد انطبعت في الأذهان صفاته، وحفرت في العقول أحواله، وارتسمت طبائعه، وأفعاله– لما كان الحال هذا؛ كانت قضية الخبر مؤكدة لما تضمنه عنوان ﴿الْإِنْسَانَ﴾، متممة له، مترتبة عليه.

وقد جاءت بلبناتها متناغمة مع معناه، في انسجام بديع، وإعجاز بياني بليغ؛ حيث صورت هذا الإنسان بكونه ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، وقد أسهمت الكلمات الثلاث في أداء وظيفة الخبر على أدق نظم، وأحكم بيان؛ لأن (اللام) تفيد الإلصاق، وشدة التعلق، وهذا يوحي بمدى انغراس الإنسان في الخسر، الذي يشمل: الضلال حتى الموت، والهلاك على اختلاف متعلقه وتنوع معمولاته، والنقص، والعاقبة بذنب، والجور، والشر، والإبعاد عن الخير. وبذلك يتحقق صدق القرآن في عرض قضاياه على تفاوت أزمنة نزولها، وتباين مناسبتها، وتنوع سياقات ورودها؛ إذ قد شملت آيات الذكر الحكيم حديثا تفصيليا عن ذلك المخلوق موسوما بالمحل الإنساني، وكل أركان الحديث عنه تقود لنتيجة واحدة، يجمعها وصف (الخسر)؛ لأن الكفر خسر، والظلم خسر، والخصام خسر، وكثرة الجدل خسر، والهلع خسر.. إلخ، فكل ذلك تقلب في أحوال خاسرة، وصرف أعمار في غير محل فائدة، وهذا عين التجارة الخاسرة، أي: غير الرابحة.

كما تأكد أن مدلولات المادة تتعلق في مجملها بكثير من الأغراض، فيحصل مضمونها، وتتحقق دلالتها في كل ما انطوت عليه وضعا، وارتبطت به استعمالا، لاسيما النقص والهلاك في كل من المساعي في الأهواء، وصرف الأعمار في المطالب، كما ينصب على النفس، والأموال، وجميع المحبوبات، وسائر المرغوبات.. إلخ.

ومن ثَمَّ قال الإمام الرازي مسجلا ومقررا: " اعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة، **وتقريره:** أن سعادة الإنسان في حب الآخرة، والإعراض عن الدنيا، ثم إن الأسباب الداعية إلى الآخرة خفية، والأسباب الداعية إلى حب الدنيا ظاهره، وهي الحواس الخمس، والشهوة، والغضب، فلهذا السبب؛ صار أكثر الخلق مشتغلين بحب الدنيا، مستغرقين في طلبها؛ فكانوا في الخسران والبوار " [1].

قلت: وكأن النظم القرآني بجملة أجزائه، وتماسك عراه، قد أعطانا ملامح تلك الخسارة في سياقات حديثه عن عنوان الإنسان المتفرقة، حتى إذا ما أخبرنا عنه إجمالا أنه في خسر؛ نعود بأدراجنا إلى محل حديثه عن صفاته، وأحواله، ونستحضر بأذهاننا طبائعه، وأفعاله؛ لنعلم تفصيلا حيثيات ذلك الخسران؛ فنتقيها، ونقف على مكنونات طياته من أبعاد النقص والهلاك، والجور، والظلم.. وغيرها؛ فلا نحوم حولها، ونتطالع الأسباب الداعية في كوامن مسمياتها؛ فلا نقربها، ونتعرف على سوء مآلاتها؛ فنتجنبها؛ فيالها من تربية ربانية حكيمة، وعناية إلهية عظيمة! وما أعظمه من لطف سماوي عجيب، وتدبير رحماني بليغ!.

وكأنه تعالى يجمع كل صفاته وأفعاله وحركاته في عنوان الموضوع؛ ليكون الحكم عليها جميعا من خلال خبر واحد بديع، ومحل فائدة فريد؛ ليعلم حقا مَنِ المستثنون، وكأنهم قد أقلعوا عن كل صفات له قد ذكرت، وخرجوا عن دائرة كل أفعال وأحوال إليه قد أسندت. لذا؛ كان الإيمان والعمل الصالح مطلقا، كما كان التواصي بالحق وبالصبر كليا؛ ليشمل كل ما يصلح له، وليفهم من خلال إحكام النظم القرآني ملامح المستثنون حقا؛ فهم غير ظالمين، ولا كافرين، ولا لنعمة ربهم ساترين، ولا برسله عليهم الصلاة والسلام وآياته مكذبين، ولا لحق ربهم سبحانه عليهم منكرين، ولا في الشدائد جزعين، ولا للحقوق ممسكين.. إلخ، فهم على النقيض من أحوال الخاسرين؛ إذ إن شأنهم الإذعان، والاعتراف للمنان، والإقرار بصفات الرحمن، والرضا بقدره، والتسليم لحكمه، والسير في ضوء منهجه، واتباع هداه.. بذلك نعلم المطلوب تحديدا، وندرك المنافع عموما، ونقف على الممنوع حسما، ونتعرف المكاره مطلقا. لذا لا عجب أن قال الإمام الشافعي فيما أوثر عنه بشأنها: إنها لو تدبرها الخلق؛ لوسعتهم [2].

فعندما يذكر الإنسان نعود بأدراجنا إلى الحديث عنه من قبل الرحمن، فنعلم صدق القضية التي تخبر عنه، ونفرع من ذلك الاستثناء الذي ينشد تقويمه، وتتجه غايته نحو سموه وتهذيبه؛ فسبحان من هذا كلامه، وسبحان من دقت في كل شيء حكمته!.

ثالثا: الدلالة الصرفية، وأثرها التفسيري في النظم القرآني:

---

[1] تفسير الرازي: 280/32 بتصرف.

[2] ينظر نظم الدرر: 234/22.

هذا، وقد جاءت المفردة القرآنية مصدرا منكرا، وقد أثمر هذا أثرا تفسيريا عظيم البعد، بالغ الوقع؛ إذ أفاد بكونه مصدرا المبالغة في وصف الحدث؛ إذ إنه لم يحتج إلى ذات لتقوم به، أو إلى زمن ليقيده ويحتويه، مرتسما أن ما يحيط بالإنسان هو محض خسران [1]. كما أنه يفيد بمكنوريته أمورا كثيرة، وأبعادا تفسيرية عظيمة، كلها من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام.

قلت: وقد علم من الحكم المذكور (وهو عنوان المحمول) أن الإنسان خاسر، إلا أنه لم يأتِ النظم بذلك اللفظ، بل عدل عنه إلى المذكور؛ لإفادة المبالغة، وهي حاصلة من الإطلاق المفاد من المصدر، والتجرد من أبعاد الذاتية، والزمانية؛ نكاية في المحكوم عليهم، وتوبيخا لهم، وإهدارا لسوء أعمالهم ببيان أنها لا ثمرة لها، ولا نفع منها لأصحابها، وتعريضا بكون المقام منزها عن ذكر شخوصهم في معرض الحكم عليهم، وكأنهم كلا أشخاص يعتد بها، وكلا ذوات يؤبه لها.

وفي هذا الصدد قال الإمام البقاعي مقدرا ومعللا: " ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أي: نقص بحسب مساعيهم في أهوائهم، وصرف أعصارهم في أغراضهم [2]؛ لما لهم بالطبع من الميل إلى الحاضر، والإعراض عن الغائب، والاغترار بالفاني أعم من أن يكون الخسر قليلا أو جليلا بحسب تنوع الناس إلى أكياس وأرجاس؛ فمن كان كافرا كان في كفران، ومن كان مؤمنا عاصيا كان في خسران؛ إن كان بالغا في المعصية، وإلا كان في مطلق الخسر، وهو مدلول المصدر المجرد، وفي هذا إشارة إلى العلم بالاحتياج إلى إرسال الرسل؛ لبيان المرضي لله من الاعتقادات والعبادات إيمانا وإسلاما، وإدامة لذلك؛ ليكون فاعله من قبضة اليمين، وتاركه من أصحاب الشمال " [3].

وعليه فقد أسهم تنكير الخسر في تحقيق التوسع في المعنى؛ بإمكانية توظيف قالب المفردة في كل ما يحتمله من معان، وما يفيده من دلالات، وما يبتعث به من إشارات؛ إذ إن مما يفيده التنكير: التعظيم، والتكثير، والتفخيم، والتهويل، والإبهام، والتنويع، والتحقير [4]. وبإضفاء هذه المعاني وتلك الأبعاد على ساحة النظم؛ يمكن أن يوجَّهَ المعنى لأكثر من غرض، فيبلغ بقالب صياغته أبلغ المرامي، ويحقق بتوسع أوجهه أكثر الأهداف.

فعلى أنه للتعظيم والتكثير والتفخيم والتهويل؛ فقد أفاد معنى: إن الإنسان لفي خسر عظيم، لا يكتنه وصفه، ولا تبلغ العقول حده، ولا يدرك الإنسان مداه؛ ملوحا من وراء ظلاله بالمصير الخطير الذي يتهدده، والمآل الذي سيبلغه؛ فيبلغ تهويل أمره وشناعة حاله مبلغه، ويتحقق تبشيعه والتحذير من سوء مغبته على آكد وجه وأبلغه!.

قال الخطيب الشربيني منبها: " تنكير: ﴿خُسْرٍ﴾ يحتمل التهويل وهو الظاهر؛ فالمعنى: أنّ الإنسان لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله تعالى؛ لأنّ الذنب يعظم، إمّا لعظم مَنْ في حقه الذنب، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة، فلذلك كان الذنب في غاية العظم " [5]. **وقال العلامة أبو السعود مقررا:** " التنكير للتعظيم " [6]. **وتبعهما الشيخ إسماعيل حقي مطنبا:** " التنكير للتفخيم، أي: لفي خسران عظيم لا يعلم كنهه الا الله، في متاجرهم، وصرف أعمارهم في مباغيهم، يعني: بصرف أعمار

---

[1] ينظر مجلة الأزهر، العدد: جمادى الآخرة: 1442هـ- يناير/ فبراير: 2021م، بحث: (من بلاغة التعبير بالمصدر في النظم القرآني)، لـ د/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد: صـ 998- 1005.

[2] **قلت:** وفيه دليل واضح على أن الخسر ناتج عن حركات مبذولة، ومترتب على مساعٍ مقصودة.

[3] نظم الدرر: 237/22.

[4] ينظر: البرهان في علوم القرآن: 91/4 وما بعدها. الإتقان: 346/2 وما بعدها.

[5] السراج المنير: 584/4.

[6] إرشاد العقل السليم: 197/9.

[1]. والذنب يعظم إما لعظم مَنْ في حقه الذنب أو لأنه في مقابلة النعمة العظيمة، وكلا الوجهين حاصل في ذنب العبد في حق ربه؛ فلا جرم كان ذلك الذنب في غاية العظم " [2].

وعلى أنه للإبهام؛ فقد حمل الدلالة على كونه نوعا مبهما غير معهودات الناس من الخسران، مسهما في تحقيق بالغ التحذير؛ لكونه مجهول الهوية، فهو خسر غير مسبوق ولا معلوم؛ ومن ثَمَّ فلا يمكن تفاديه، وليس في مكنة أحد مجابهته، أو القدرة على تحمله؛ مما يبشع من سوء حاله، وينذر بوخيم مآله.

وعلى أنه للتنويع؛ فيزيد أمره بشاعة؛ لكونه شائعا في أفراد الخسر، مستغرقا كل أنواعه، سواء أكان في نفسه، أم في ماله، أم في أهله، أم في كل محبوباته، ومرغوباته؛ فلا يبقى مناط للخسر إلا وقد أصابه بسفاهته، ولا نوع من أنواعه إلا وقد بلغه بحماقته.

ومن ثَمَّ قال الشيخ حقي: " يجوز أن يكون التنوين للتنويع، أي: نوع من الخسران غير ما يتعارفه الناس " [3]. **قلت**: وهو قريب من الإبهام؛ إذ إنه يفهم جهته، ويقرر حيثيته.

وفي هذا الشأن قال الإمام ابن عاشور: " تنكير ﴿خُسْرٍ﴾ يجوز أن يكون للتنويع، ويجوز أن يكون مفيدا للتعظيم والتعميم في مقام التهويل، وفي سياق القسم. والمعنى: إن الناس لفي خسران عظيم وهم المشركون " [4].

وعلى أنه للتحقير؛ فقد حمل الإشارة التمهيدية للخلاص من وصف الإنسانية بلوغا إلى حال المستثنى من القضية القسمية؛ لكونه لا ينفي الخسر عن جنس الإنسان جملة وتفصيلا، ولكنه يقلله بالنسبة للمستثنين؛ إذ الخسر محقق لكل الأفراد، إلا أنه في حق المؤمن لا يؤبه به؛ لما ينتظره من نعيم في دار الخلد والبقاء، أي: إن الإنسان لفي خسر قليل حقير؛ إذا ما صار مؤمنا عاملا الصالحات.. إلخ.

وفي هذه المناسبة قال الإمام ابن عطية: " (الخسر): النقصان، وسوء الحال، وذلك بين غاية البيان في الكافر؛ لأنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وأما المؤمن وإن كان في خسر دنياه، في هرمه، وما يقاسيه من شقاء هذه الدار، فذلك معفو عنه في جنب فلاحه في الآخرة، وربحه الذي لا يفنى، ومَنْ كان في مدة عمره في التواصي بالحق والصبر، والعمل بحسب الوصاة؛ فلا خسر معه، وقد جمع له الخير كله " [5].

قلت: ومن الممكن أن يحمل التنكير على جهة التحقير من حيثية أخرى، هي أن خسره دون خسر الشيطان.

وفي هذا الشأن قال الخطيب الشربيني منبها: " تنكير: ﴿خُسْرٍ﴾ يحتمل التحقير، وإن حمل عليه؛ كان المعنى: إن خسران الإنسان دون خسران الشيطان " [6].

رابعا: الدلالة النحوية، وأثرها في النظم:

هذا، وقد جاء الخسر مصدرا مجرورا بـ ﴿فِي﴾، وقد أفاد موقعه الإعرابي الإنباء عن بالغ تحقق معناه من النقص بكامل صورة؛ حتى لكأنه آخذ في الوضع في الأرض، والالتصاق بها، والإخلاد إليها، والتسفل بداخلها؛ فتظاهرت الدلالة النحوية مع الدلالة اللغوية، والصرفية؛ للإعراب عن كامل حال ذاك الإنسان بما جبل عليه من نقائص، وطبع به من أحوال، فكأن الكسر (كعلامة إعراب) يبلغ به إلى أسفل سافلين في تلك الحفرة التي أفادتها الظرفية بحرفي بنائها؛ لأجل الوصول إلى كامل معاني الخسران؛ مما

---

[1] **قلت**: وهذا التأويل يحمل الإشارة إلى أن الإنسان هو السبب الحقيقي في الخسران؛ على ما تفيده (الباء) من معنى السببية، ويؤذن به تعاطيهم صرف أعمارهم.

[2] روح البيان: 506/10.

[3] روح البيان: 506/10.

[4] التحرير والتنوير: 532/30.

[5] تفسير ابن عطية: 520/5.

[6] السراج المنير: 584/4.

يحقق كامل التناسب وبالغ الاتساق بين حرف الجار وعمله؛ فيبلغ تمكن المفردة في نظمها مبلغه، ويتحقق إعجاز بيانها على آكد وجه وأبلغه!.

إيحاءات الكسرة الصوتية، وخصائصها الدلالية:

هـذا، وقد أفادت الظرفية إنتاج صوت الكسرة كأثر من آثار عملها في معمولها، وهذا الصوت من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام؛ إذ إن الكسرة ترمز إلى القلة، وإلى ما صغر من الأشياء [1]. كما أن لها دورا رئيسا في الإيحاء بجو الحزن، ومعنى الانكسار والحسرة [2]. وفي ضوء الدراسات الصوتية تحدث الياء المدية في الظرفية حركة طويلة، ويعبر عنها بـ (ص ح ح). ويرى العلماء أن الحركات الطويلة تعطي إيقاعا بطيئا يضفي على الكلمة خاصية البطء (أي: بطء الحدث) [3]. وعليه فخلاصة وظيفة الكسرة يتمحور في إفادتها " معاني الحقارة، والقلة، والانكسار، والحسرة، والاشمئزاز، والتي يحاكيها وضع الشفتين عند النطق بصوت الكسرة، واتجاه حركتها نحو الأسفل. واتساع مخرجها يعطي شعورا بالانفتاح. وطول زمن النطق بالياء المدية يضفي على الكلمة خاصية البطء " [4].

قلت: وقد انعكس صوت الكسرة على النظم؛ فأضفى عليه بخصائصه الدلالية، وأبعاده الإشارية، وإيحاءاته المعنوية؛ إذ أسهم في ارتسام حركات الإنسان، وتصوير مآلها من الخسران؛ فهو على طول عُمُره، وبقاء أجله، في فقد ونقصان مادي ومعنوي. أما المادي فتصوره الكسرة في أبعاد محسوسة مادية ترمز إليها الحقارة والقلة. وأما المعنوي فتصوره في أبعاد نفسية مظلمة، وأحوال إنسانية محطمة، ألا وهي الانكسار، والحسرة، والاشمئزاز. وإنما يتحقق له ذلك بمقتضى سوء أفعاله شيئا فشيئا، حتى يبلغ منتهى القاعية، في بئر الطبائع السفلية، حيث التخبط والظلامية؛ ومن ثَمَّ فيبلغ تمكن الظرفية في النظم مبلغا لا يجارى، ويصل تحقق عملها الإعرابي، وظلال أثره الصوتي وقعا لا يبارى!.

هذا، وخليق بالذكر: أنه لم تحدد جهة الخسر؛ فلم يبين أهو خسر في النفس، أم في المال، أم في الأهل، أم في العقيدة، أم في غير ذلك؟ مما يحتمله النظم بعمومه ويشمله بإطلاقه؛ بل ترك مطلقا ليعم؛ فلا تبقى تعدية صالحة إلا حققها، ولا متعلقا في الذهن إلا أومأ إليه نظما، واستحضره ذهنا.

فانظر إلى إيثار التعبير بالخسر، وهو النقصان والهلكة ماديا ومعنويا؛ لتدرك دقة المعنى، وسمو المقصد؛ إذ إن فيه بعدا تربويا حكيما، وملمحا دعويا رصينا، فيشير إلى قيمة الوقت، وينبعث بسامق مكانته، وَيُنَوِّهُ بأن الإنسان عبارة عن أوقات، وهو يُقَيَّمُ ويوزنُ بما قدم فيها من أعمال، وما بذله ضمنها من حركات، وما قطعه فيها من مسافات، فإذا انقضى الوقت؛ حتما انقضى هذا الإنسان بمقداره، وضاع منه ما انصرم من زمانه، إلا أن ما قدمه فيه لن يضيع، بل سوف يحاسب عليه. فالوقت يمضي ويهلك ويضيع إلا أن الأعمال فيه لا ضياع لها، بل يمتد أثرها إلى ما بعد انتهاء ظرف الحياة بموجوداتها، وتبدد سائر مظروفاتها.

وبهذا المعنى جاء الخبر: فعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَيْسَ مِنْ يَوْمٍ يَأْتِي عَلَى ابْنِ آدَمَ إِلَّا يُنَادَى فِيهِ يَا ابْنَ آدَمَ، أَنَا خَلْقٌ جَدِيدٌ، وَأَنَا فِيمَا تَعْمَلُ عَلَيْكَ غَدًا شَهِيدٌ؛ فَاعْمَلْ فِيَّ خَيْرًا؛ أَشْهَدْ لَكَ بِهِ غَدًا؛ فَإِنِّي لَوْ قَدْ مَضَيْتُ؛ لَمْ تَرَنِي أَبَدًا، قَالَ: وَيَقُولُ اللَّيْلُ مِثْلَ ذَلِكَ " [5]. **وبه– أيضا– جاء الأثر:** " أَنَّ الْحَسَنَ الْبَصْرِيَّ، رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي

---

[1] ينظر إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي: صـ 16.

[2] ينظر إبداع الدلالة: صـ 29.

[3] ينظر إبداع الدلالة: صـ 37.

[4] النظام المقطعي في قراءات سورة النساء: صـ 106 بتصرف يسير.

[5] أخرجه أبو نعيم من حديث معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه، وقال: " غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ، تَفَرَّدَ بِهِ عَنْهُ زَيْدٌ، وَلَا أَعْلَمُهُ رُوِيَ مَرْفُوعًا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إِلَّا بِهَذَا الْإِسْنَادِ". حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني: 303/2. وأخرجه ابن سمعون الواعظ عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه، بلفظ مقارب: " وَأَنَا فِيمَا تَعْمَلُ فِيهِ عَلَيْكَ شَهِيدٌ "، برقم (227). أمالي ابن سمعون الواعظ، لأبي الحسين محمد بن عنبس البغدادي: صـ 227.

مَنَامِهِ؛ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، عِظْنِي، قَالَ: "مَنِ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ، وَمَنْ كَانَ غَدُهُ شَرًّا مِنْ يَوْمِهِ؛ فَهُوَ مَلْعُونٌ، وَمَنْ لَمْ يَتَعَاهَدِ النُّقْصَانَ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَهُوَ فِي نُقْصَانٍ، وَمَنْ كَانَ فِي نُقْصَانٍ؛ فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لَهُ " [1]. "ولله دَرُّ الإمام البستي [2]؛ حيث يقول: (زيادة المرء في دنياه نقصان.. وربحه غير محض الخير خسران) [3]. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَالْعَصْرِ. إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: 1، 2] الآية " [4].

وقال أ.د/ وهبة الزحيلي مجملا حقيقة ظرف الحياة: " الحياة ابتلاء واختبار، والإنسان يتقلب في المعاش والكسب مستفيدا من ظرف الليل والنهار، وما فيهما من فوائد تدل على قيمة الوقت، وحساب الزمان، ومقتضى العدل أن يكون لعمله ثمرته، وعليه تبعاته، ويكون حسابه في الدنيا والآخرة حسابا فرديا شخصيا، وهو الذي يسطِّر لنفسه النتائج، فمَنِ اهتدى إلى الحق والخير، وعمل بموجبها؛ كان نفع الهداية لنفسه، ومَنْ تنكر للحق، وسلك طريق الشر؛ كان وبال الضلال على نفسه، ولا ثواب ولا عقاب إلا بعد البيان والإنذار " [5].

بل انظر إلى التنكير في ﴿خُسْرٍ﴾؛ لتستشعر منه الإبهام الأدخل في التحسير، فهو نمط من الخسر غير معلوم، وكأن اللفظ قد قعد عن وصفه، والعقول قد عجزت عن إدراك حده، واستطرِدْ مع إيحاءاته؛ لتقودك إلى التعظيم والتهويل المفاد من شيوعه في أفراده، وجهالة تعيينه.

قلت: وخلاصة ما سبق: أن قد تقرر أن المفردة القرآنية– لغة، وبناء، إعرابا، وصوتا– قد جاءت متمكنة في نظمها، مستقرة في قرارها، غير قلقة، ولا نافرة، بل هي من مقتضيات الحال، ومتطلبات المرام، قد قامت بوظيفتها، وبلغت رسالتها بما تعجز معه أي مفردة سواها من القيام بدورها، أو الإحلال محلها؛ مما يشيد بسمو نظمها القرآني، ويجلي وجه إعجازها البياني!.

المبحث الثالث

المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه

تجلى مما سلف أن القسم بالعصر قد جاء متمكنا في نظمه، بديعا في سبكه، من مقتضيات حاله، ومستدعيات مقامه، وقد تقرر ذلك ضمن ذكر أوجه تمكنه، والتي يتصدرها بليغ علاقته بالمقسم عليه؛ إذ إنه يعد أوثق وجوه تمكنه في نظمه على الإطلاق، ومن ثَمَّ فقد سبق التساؤل بشأن إيثار العصر في جانب المقسم به دون سواه من أوقات مخصوصة، وأزمنة معهودة، كالليل، والنهار، والفجر، والضحى.. وغير ذلك، وقد أرجئت الجواب؛ ليتسنى تفصيله هنا. وذلك بعد دمجه بسؤال يطرح بنفسه على ساحة البحث، مفاده: كيف يستدل بالقسم بالعصر على صحة دعوى المقسم عليه، وهي كون الإنسان في خسر؟ فهل ثَمَّ علاقة بين المقسم به والمقسم عليه؟ وهل هناك احتمال لتغييره بسواه، أو الاستعاضة عنه بما هو أبلغ منه؟

قلت: وجوابه: أن القسم بالعصر يتضمن كل تلك الأوقات المحتملة مع زيادة إيضاح، وضرب تفصيل؛ إذ إنه ينطوي عليها جميعا ملوحا ضمنا بأسباب حدوثها، مجليا حال الإنسان إزاءها، مصورا أفعاله في ضوئها، ناظما أهم خطوب تلك الأوقات بالنسبة لمظروفها، منوها بضروب الأحداث الواقعة في ظروفها.

---

[1] حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: 35/8.

[2] **هو:** " علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، أبو الفتح: شاعر عصره، وكاتبه. ولد في بست (قرب سجستان)، وإليها نسبته. له (ديوان شعر) صغير، فيه بعض شعره. وفي كتب بالأدب كثير من نظمه غير مدوّن، (ت: 400 هـ)". الأعلام: 326/4 بتصرف. "وقيل: سنة إحدى وأربعمائة ببخارى، والله أعلم ". وفيات الأعيان، لابن خلكان: 376/3.

[3] حياة الحيوان الكبرى، لمحمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري: 250/1. الكشكول، لمحمد بن حسين الحارثي العاملي الهمذاني: 240/1.

[4] كشف الخفاء ومزيل الإلباس، لأبي الفداء إسماعيل بن محمد العجلوني الدمشقي: 276/2.

[5] التفسير الوسيط لـ أ.د/ وهبة الزحيلي: 1331/2 بتصرف

وليس هذا فحسب؛ بل إن القسم بالعصر باعتباره الدهر والزمن، وباعتباره حدث العصر، إنما هو الشاهد على حقيقة قضية جواب القسم، فتحقق خسران الإنسان لا يتم الوقوف عليه إلا من خلال استقراء أحداث الزمان، واستحضار نوائبه، وتعاقب أحداثه؛ إذ إنه قد انطوى في صفحاته المطوية على إهلاك الجبارين، وزوال الظالمين، وانطماس آثار المعاندين، ومواجهة المعرضين، ودحض المتكبرين، رغم استفحال شوكتهم، وتعدد أسباب بقائهم، وتوفر مفاتح دولتهم، لكن بماذا أخبرنا الدهر عن حالهم؟ ألم يتم إهلاكهم، وتحقق زوال دولتهم، وتزلزلت عروشهم، وتحطمت أركان بنيانهم، واندثرت آثار وجودهم، واستؤصلت حضارتهم؟! بلى.

فلأجل التأكد من ذلك؛ كان لابد من استحضار زمان ممتد، تعتريه المتناقضات، وتتداول فيه الأيام، وتتقلب فيه الأحوال، وتتوارد النوائب المسجلة في صفحات تاريخه، وتتعاقب النوازل المقررة في سجل أحداثه.

وهذا ما تظاهرت عليه آيات الذكر الحكيم؛ فقال الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: 109]. وقال عز وجل: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ. وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ. فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: 38- 40]. وقال جل جلاله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [غافر: 82].

وعلى العكس تماما فقد آل الأمر بجملته إلى الموحدين، وانتهت إليهم عمارة الكون والاستخلاف بمنهج رب العالمين، فرفع لواءُهم، ورفرفت رايتهم، وصلح حالهم، وضمن فلاح مآلهم، وبشروا بحسن مصيرهم؛ فاستبشروا بالرجوع إلى ربهم جل جلاله. قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: 55].

وقال سبحانه فيما حدث عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]. وقال عز سلطانه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: 83].

قلت: فكل تلك الأحداث العظام، والخطوب الجسام، والنوائب العجاب، تخبرنا بها صفحات الزمان، ويستقرءها لنا أمد العصر المعد للأنام، وتدلنا عليها أنباء الدهر ونوائبه في مختلف الأكوان، فهم قد عصروا ابتلاء وزوالا في خطوب زمكانهم؛ ومن ثَمَّ يصدق كون العصر متغيرا متقلبا غير مستقر على حال، ويتم استحضار جميع خصائصه، وأفعاله بمظروفاته، ويدخل فيها دخولا أوليا بني الإنسان.

وفي هذه المناسبة قال الإمام البقاعي منوها بتلك الحقيقة ومبينا وجه القسم: " لما كان ساكن هذه الدار على غاية الخطر؛ فكان نعيمه في غاية الكدر؛ قال دالًّا على ذلك بأن أكثر الناس هالك، مؤكدا بالقسم والأداة لما للأغلب من التكذيب لذلك إما بالمقال أو بالحال: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ "[1].

ومن ثَمَّتْ فهو خير شاهد على خسرانه في كل مراحل زمكانه، بمقتضى حركاته، وإنفاق رأس ماله ممثلا في عُمُره في سوء مساعيه، واستجلاب قبيح مطالبه، والركون إلى شهواته، وإيثاره الفاني، وإنكاره الباقي؛ فيعد العصر بمدلولاته مرآة عاكسة لترديه في مهاوي اختياراته، مرتسمة شديد ضلالاته، وقبيح مآل حالاته، من تحقق خسرانه في مساعي نفسه، وصرف نفيس عُمُره في

[1] نظم الدرر: 236/22 بتصرف يسير.

أهوائه، وتلبسه بأسباب هلكته، وتأكد إحداق الشر به، وتقرر عقوبته، ونقصان أحواله، وإذهاب رأس ماله، وفساد واقع حاله، وذلك؛ لأنه لم يعرف قدره، ولم يرتفع بإنسانيته إلى المقام الذي أهله إليه ربه سبحانه وتعالى.

ولعل مما يؤيد ذلك القراءات التفسيرية الواردة في البنية القرآنية. **قال الإمام ابن عطية**: " قرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: (والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان..)، وفي مصحف عبد الله رضي الله تعالى عنه: (والعصر لقد خلقنا الإنسان في خسر)، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: أنه قرأ: (إن الإنسان لفي خسر وإنه فيه إلى آخر الدهر) " [1].

هذا من وجه.

ومن وجه آخر: فإن القسم على خسران الإنسان أمر واضح بَيِّنٌ يفهم في ضوء المقسم به على أبلغ وجه وآكد بيان؛ لكونه متسما بالنقصان، والهلكة الحادثة على الدوام، فالليل يقهر النهار، والنهار يهلك الليل في دائرة واحدة، وحلقة مقررة، وحقيقة ثابتة، وظاهرة مشاهدة، والعصر باعتباره زمنا لا محالة إلى نقصان، وإلى زوال بما فيه، ومَنْ فيه، فالدنيا لها عُمُر محدد، وهي في طريق الانقضاء، فالخسر في جانب المقسم به حسي، قد قامت عليه البراهين العقلية، والأدلة العلمية، والتجارب الحياتية، والوقائع المرئية، ولكن مع ذلك فقد سبقه التصريح الإلهي في الآيات القرآنية؛ فلا ينبغي أبدا أن ننجرف وراء القول بالسبق العلمي، بل علينا أن نصححه إلى القول بالصدارة القرآنية، والإعجاز العلمي البياني؛ إذ بالبيان العربي- وفقط- يَتَأَتَّى العلم بالسر الكوني الحقيقي.

وإذا كان ظرف الإنسان إلى زوال؛ فكيف الحال بالمظروف؟! فالجواب من بدهيات العقل، ومسلماته. وحتى يكتشف كل أحد ذلك؛ فليحضر ظرفا، ويضع فيه مظروفا، ثم يحاول قص هذا الظرف، أو الانتقاص منه، والأخذ من أطرافه؛ فلا يجد بدا من المساس بالمظروف، فهذا شأن طبعي، وتلك نتيجة حتمية، ومسلمة بدهية.

ومما يؤكد هذا البعد- أعني: العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه-: أن الحق سبحانه آثر التعبير بـ (في) الظرفية في جانب المقسم عليه، وفي ذلك من بالغ التناسب، وكامل المبالغة والتجانس ما لا يخفى؛ حيث إن العصر كما تقرر آنفا هو عبارة عن ظرفي الإنسان: الزماني، والمكاني، وهما لا ينفكان، ويجمعهما مصطلح (الزمكان)، والعصر- بما فيه- إلى نقصان وزوال، وبما أن الإنسان مظروف فيه فهو- أيضا- إلى نقصان وزوال. فيأتي جواب القسم ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ كنتيجة طبعية لذلك؛ فانظر **كيف** جعل الخسر ظرفا له وهو مظروفه، كما كان العصر ظرفا له وهو مظروفه؛ مما يؤذن بأن الظرف الثاني قد استوعب الظرف الأول؛ كدليل وبرهان على أن ما أنفقه الإنسان في عصره هو محض الخسران. **ومن ثُمَّةْ** فحسن التقابل بين العصر والخسر باعتبار أن كليهما ظرف [2] لمظروف، من جهة. وباعتبار حقيقة العصر وارتسام خسرانه وانقضائه، ومن ثَمَّ تحقق معنى الفقد في كليهما، من جهة ثانية. وباعتبار أن العصر نفسه في حركة تؤدي به إلى الانتهاء، وتقوده إلى الزوال، كما أن الخسر يكون بمقتضى حركات الإنسان، وإنفاقه في مساعيه.

ومما يقرر هذا المعنى: قوله سبحانه وتعالى عن أبرز مظاهر العصر، وأحد أهم مقوماته: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: 38]. **قال العلامة أبو السعود شارحا**: " ﴿لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾: لحد معين ينتهي إليه دورها " [3].

وقال جَلَّ جلاله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [الرعد: 2]، وقال عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [لقمان: 29]. **قال الإمام الرازي**: " المراد: كونهما متحركين إلى يوم القيامة، وعند مجيء ذلك اليوم؛ تنقطع هذه الحركات، وتبطل تلك المسيرات؛ كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ

---

[1] المحرر الوجيز: 520/5 بتصرف.

[2] **قلت**: وظرفية العصر مما لا تعليق عليها؛ لكونها حسية معلومة. أما ظرفية الخسر فهي معنوية، وقد أفهما دخول حرفها عليه.

[3] إرشاد العقل السليم: 168/7.

انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: 1، 2] " [1]. " فهما لا يزالان يجريان إلى هذا اليوم، فإذا كان يوم القيامة؛ ذهبا " [2]. **وعين الإمام النسفي الأجل فقال شارحا:** "﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾، وهو انقضاء الدنيا " [3].

هذا، وقد صورت الظرفية معنى الإحاطة للظرف كدليل على بالغ التمكن للمظروف؛ ومن ثَمَّ فانتقلت الصورة الحسية في المقسم به (وهي الإحاطة التامة مع تحقق النقص والزوال والهلاك المحتم) إلى الجانب المعنوي في المقسم عليه، ببراعة مذهلة، وبلاغة مبدعة، في انسجام وتناغم بياني، ووفق إتقان وإحكام قرآني!.

فالحق سبحانه يخاطبنا بما تقرر لدينا، فكما أن العصر ينقضي وهو ظرفنا، فنحن لا محالة إلى زوال، ولكن لا إلى عدم، بل إلى حياة أخرى، يتم فيها الحساب على ما قدمه الإنسان من خير وشر، والأدلة على البعث أكثر من أن تحصى، ويكفينا في هذا المقام: أن القسم بالعصر وما نظمه من أحوال، وحواه من مظاهر التدبير، وعقده من عناوين اللطف، لهو من أقوى البراهين على صحة البعث؛ حيث يستحيل عقلا أن يخلق الله تعالى هذا الخلق المحكم، ويحفه بكل مظاهر التدبير، ويحوطه بشتى مناحي الإحكام دونما غاية؛ بل خلقه سبحانه لحكمة سامقة، وأودع فيه ذلك المخلوق البشري لغاية منشودة، وكلفه أمرا ونهيا، ووعده، وأوعده، وبشره، وحذره، وأنذره، فالبعض أطاع وأناب، والآخر عصى وأدبر؛ فلا يستويان عقلا؛ مما يقرر أنه لابد من دار عادلة، وموازين قائمة، تحسم فيها الأمور، وتضعها في نصابها؛ فيتم التنويه بإثبات البعث، وما فيه من قضايا، وأحداث؛ اتساقا مع مقام الاستدلال العام، وتناغما مع طابع القرآن المكي في المجمل، بما لا غاية وراءه!.

ومن ثَمَّ " فيحكى عن بعض الأكابر أنه قال: فهمت معنى سورة (والعصر) عن بائع ثلج، يقول: ارحموا على مَنْ رأس ماله يذوب " [4].

ذلك، وقد تقرر مما سبق أن المقسم به (العصر) قد حمل في مطاويه دلالات غزيرة، ومعان عديدة، لها إيحاءات وفيرة، وإشارات بعيدة، ومن ثَمَّ فكان الحال بتوظيفها ادعى، والمقام في استظهارها أقضى وأوفق. وإجمالها في الأوجه التالية:

الوجه الأول: أنه الدهر والزمان كله، وقد تقرر باستحضاره وتوظيفه وشيج العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه بما لا يخفى.

الوجه الثاني: أنه أحد طرفي النهار. وعلاقته بالمقسم به من حيث إنه من أقوى وأظهر البراهين على دلائل قدرة رب العالمين، كما أن الإنسان نفسه آية عجيبة على قدرة صانعه جل وعلا، فضلا عن كونه يحمل أنماط الامتنان، وضروب التذكير لنوع الإنسان؛ عساه أن يتدارك ما بدر منه قبل فوات الأوان.

قال الإمام الرازي مقررا وموجها: " المراد بالعصر: أحد طرفي النهار، والسبب فيه وجوه [5]. **أحدها:** أنه أقسم تعالى بالعصر كما أقسم بالضحى؛ لما فيهما جميعا من دلائل القدرة؛ فإن كل بكرة كأنها القيامة؛ يخرجون من القبور، وتصير الأموات أحياء، ويقام الموازين، وكل عشية تشبه تخريب الدنيا بالصعق والموت، وكل واحد من هاتين الحالتين شاهد عدل، ثم إذا لم يحكم الحاكم عقيب الشاهدين؛ عد خاسرا، فكذا الإنسان الغافل عنهما في خسر. **وثانيها:** ما قاله الحسن: إنما أقسم بهذا الوقت؛ تنبيها على أن الأسواق قد دنا وقت انقطاعها، وانتهاء التجارة والكسب فيها، فإذا لم تكتسب، ودخلت الدار، وطاف العيال عليك، يسألك كل أحد ما هو حقه؛ فحينئذ تخجل؛ فتكون من الخاسرين، فكذا نقول: والعصر، أي: عصر الدنيا، قد دنت القيامة وأنت بعد لم تستعد، وتعلم أنك تسأل غدا عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك، وتسأل في معاملتك مع الخلق، وكل أحد من المظلومين يدعي ما عليك، فإذا أنت خاسر. **وثالثها:** أن هذا الوقت معظم. وكما أقسم في حق الرابح بالضحى، فكذا أقسم في

---

[1] التفسير الكبير: 527/18.

[2] تفسير الرازي: 423/26.

[3] مدارك التنزيل: 141/2.

[4] تفسير الإيجي: 527/4 وما بعدها بتصرف.

[5] **قلت:** الصواب التعبير بـ (أوجه)؛ لكون (أَفْعُل) أحد جموع القلة، وهي تصدق على ما دون العشرة، بخلاف وجوه؛ لكون (فُعُول) أحد جموع الكثرة الصادقة على ما بعدها.

حق الخاسر بالعصر، وذلك؛ لأنه أقسم بالضحى في حق الربح، وبشر الرسول عليه الصلاة والسلام أن أمره إلى الإقبال، وهاهنا في حق الخاسر توعده أن أمره إلى الإدبار، ثم كأنه يقول: بعض النهار باق؛ فيحثه على التدارك في البقية بالتوبة " [1].

قلت: فتقرر أن المذكور في الطرفين إنما هو نمط من التدبير والعناية، الذي ينشد التقويم والهداية، وبذلك يتجلى أن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه تتمثل في أن كليهما مظنة غاية التدبير الإلهي، ومجال الإحكام المتين، ومقام الصنع القويم، ولواء العناية الإلهية، ومظهر الرعاية الربانية، وشعار الألطاف والتدابير السماوية. فكما حفظ الله العصر بما فيه ومَنْ فيه، وأبدعه وفق نظام محكم، ومنعه من الخلل، وجنبه الفساد، فكذلك يفعل في مظروف العصر، وهو الإنسان فقد خلقه من عَدَم، وأمده من عُدْم، وها هو يُقَوِّمُ اعوجاجه، ويقيم موازينه، وينشد تقويمه؛ فيكون الإحكام الإلهي شائعا في الآفاق وفي النفس؛ فما من مجالِ نظرٍ إلا عُوين، وما من مناطِ تأملٍ إلا تُدبر.

الوجه الثالث: أن المراد به: عصر الرسول عليه الصلاة والسلام. **وفي تقريره قال الإمام الرازي:** " إنه قسم بزمان الرسول عليه الصلاة والسلام؛ فقوله: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، أي: والعصر الذي أنت فيه؛ فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية، وبمكانه في قوله: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ [البلد: 2] وبعُمُره في قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: 72]، فكأنه قال: وعصرك، وبلدك، وعمرك، وذلك كله كالظرف له، فإذا وجب تعظيم حال الظرف؛ فقس حال المظروف[2]، ثم وجه القسم، كأنه تعالى يقول: أنت يا محمد حضرتهم ودعوتهم، وهم أعرضوا عنك، وما التفتوا إليك؛ فما أعظم خسرانهم! وما أجل خذلانهم! " [3]. **وقال الإمام ابن عاشور:** " يطلق العصر على مدة معلومة لوجود جيل من الناس، أو ملك أو نبي، أو دين، ويعين بالإضافة، فيقال: عصر إبراهيم، وعصر الإسكندر، وعصر الجاهلية، فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا، ويكون المعني به: عصر النبي عليه الصلاة والسلام، والتعريف فيه تعريف العهد الحضوري، مثل التعريف في (اليوم) من قولك: فعلت اليوم كذا " [4].

قلت: ووجه التناسب بين ركني القسم عليه ظاهر؛ إذ إنه بعد إفادة التنويه بشأن الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم؛ تنقطع الأعذار، وتزاح الحجج، وتستأصل الشبه، فإذا ما ظل المشركون على شركهم رغم هذا؛ كان خسرانهم أفدح، والحكم عليهم بمقتضاه أوقع، والنعي عليهم أبشع، وتوبيخهم أجدر!.

الوجه الرابع: أنه عصر الإسلام كله، ومناسبته للمقسم عليه ظاهرة؛ إذ إنه قد تبين حال الناس في ضوئه، وتجلى تفرقهم ما بين كافر ومؤمن، وكل منهما محقق له الخسران باعتبار معين، ووجه محدد. وعرف منه ضمنا حال الأمم السابقة، مع التنويه بمقامه عليه الصلاة والسلام الذي هو أحد ركائز الدعوة إلى الإيمان به، واتباعه، وإلا حاق بمخالفيه مصير الخسران المقرر لبني الإنسان. **قال الإمام ابن عطية:** " الخسر: النقصان وسوء الحال، وذلك بين غاية البيان في الكافر؛ لأنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين، وأما المؤمن وإن كان في خسر دنياه في هرمه، وما يقاسيه من شقاء هذه الدار، فذلك معفو عنه في جنب فلاحه في الآخرة، وربحه الذي لا يفنى، ومَنْ كان في مدة عمره في التواصي بالحق والصبر، والعمل بحسب الوصاة؛ فلا خسر معه، وقد جمع له الخير كله " [5].

ومن ثَمَّ قال الإمام ابن عاشور: " يجوز أن يراد: عصر الإسلام كله، وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم، وقد مثل النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم عصر الأمة الإسلامية بالنسبة إلى عصر اليهود وعصر النصارى، بما بعد صلاة العصر إلى غروب

---

[1] التفسير الكبير: 278/32 بتصرف.

[2] **قلت:** يشير الإمام إلى معنى الملازمة بين الظرف والمظروف، ومنه أنطلق في تقرير أن ما يحصل للظرف حاصل لا محالة للمظروف، وهذا بدوره يقرر حيثية الخسران، ويؤكد انتقالها حتما من الظرف إلى مظروفه من بني الإنسان.

[3] التفسير الكبير: 279/32 بتصرف.

[4] التحرير والتنوير: 529/30 وما بعدها بتصرف.

[5] المحرر الوجيز: 520/5.

الشمس بقوله: "مَثَلُ المسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا" وذكر الحديث [1]. فلعل ذلك التمثيل النبوي له اتصال بالرمز إلى عصر الإسلام في هذه الآية " [2].

وقال– أيضا–: " مناسبة القسم بالعصر لغرض السورة على إرادة عصر الإسلام ظاهرة؛ فإنها بينت حال الناس في عصر الإسلام، بين مَنْ كفر به، ومَنْ آمن، واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويعرف منه حال من أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت، أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام، فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعض الأمم بدون شرائع متمسكة بغير دين الإسلام من الشرك، أو بدين جاء الإسلام؛ لنسخه، مثل: اليهودية، والنصرانية؛ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85] " [3].

الوجه الخامس: أن المراد به: صلاة العصر، أو وقتها، أقسم بها؛ لفضلها، وشديد الخسر المترتب على تضييعها، والتهاون بحقها، لاسيما وأنها مظنة لذلك؛ لمشقة التكليف في أدائها؛ لتوافق وقتها وقت الربح، واشتغال الناس بمعاشها.

قال الإمام الرزي: " أراد صلاة العصر، وذكروا فيه وجوها [4]. **أحدها:** أنه تعالى أقسم بصلاة العصر؛ لفضلها. **وثانيها:** أن التكليف في أدائها أشق؛ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم. **وثالثها:** أن صلاة العصر بها يحصل ختم طاعات النهار، فهي كالتوبة بها يختم الأعمال، فكما تجب الوصية بالتوبة كذا بصلاة العصر؛ لأن الأمور بخواتيمها، فأقسم بهذه الصلاة؛ تفخيما لشأنها، وزيادة توصية المكلف على أدائها، وإشارة منه أنك إن أديتها على وجهها؛ عاد خسرانك ربحا " [5].

قلت: وفيه إشارة خفية إلى أن عُمُر الدنيا قد أوشك على الانتهاء؛ فقد انصرم من زمانها ما يمثله بلوغ وقت صلاة العصر بالنسبة إلى يوم الإنسان؛ فلم يبق منه إلا المسافة الزمنية بين العصر والمغرب، ثم ننتقل إلى مرحلة جديدة، يمثله إقبال ليل جديد.

ومن الإشارات البديعة: أن هذا الوقت تكون فيه الظاهرة النهارية متقلصة، آخذة في طريق التلاشي حيث الظلام، بعدما انقضى منها أظهرها وأجلاها؛ حيث الضحو وما يتلوه تباعا، إلا أنها مع ذلك ورغم قلتها وانحسارها ما زالت موجودة، ويمثلها مقابلةً الفريق المستثنى المؤمن العامل المتواصي بالحق وبالصبر؛ فاتسق قلة البعد النهاري كظرف زمني مع قلة الظاهرة الإيمانية في الفرد المؤمن كمظروف بشري.

ومنها– أيضا–: أنه من المعلوم أن الشمس هي سبب أساس في حدوث ظاهرة النهار، وأحد أهم مقومات الحياة البشرية على سطح الكرة الأرضية كما تقرر آنفا، ولا تَتَأَتَّى الحياة بحال دونها، بل تستحيل في ظل غيابها، وكون الشمس قد بلغت وقت

---

[1] **هذا حديث صحيح، ولفظه:** قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِه وَسَلَّمَ: " مَثَلُ المسْلِمِينَ، وَاليَهُودِ، وَالنَّصَارَى، كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا، يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ، عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ، فَعَمِلُوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، فَقَالُوا: لاَ حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا، وَمَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، فَقَالَ لَهُمْ: لاَ تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ، وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا، وَتَرَكُوا، وَاسْتَأْجَرَ أَجِيرَيْنِ بَعْدَهُمْ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الأَجْرِ، فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلاَةِ العَصْرِ، قَالاَ: لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، وَلَكَ الأَجْرُ الَّذِي جَعَلْتَ لَنَا فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلاَ بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا مَا بَقِيَ مِنَ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَأَبَيَا، وَاسْتَأْجَرَ قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ، فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ؛ حَتَّى غَابَتِ الشَّمْسُ، وَاسْتَكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ، وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ ". **أخرجه الإمام البخاري:** كتاب الإجارة، باب الإجارة من العصر إلى الليل، من حديث أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، برقم (2271). صحيح البخاري: 90/3.

[2] التحرير والتنوير: 529/30 وما بعدها بتصرف.

[3] التحرير والتنوير: 530/30 بتصرف.

[4] **قلت:** الصواب التعبير بـ (أوجه)؛ لما تقرر آنفا.

[5] التفسير الكبير: 32/ 278 بتصرف.

العصر فيه إيذان بقرب زوالها، وإشعار بانتهاء عمر الدنيا لا محالة. وعليه يدل قول الحق سبحانه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: 1]، مع قوله جَلَّ جلاله والذي يمثل جواب الشرط المتقدم: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: 14].

هذا، وظهر من تقدير الإمام البقاعي التلويح بالمناسبة بينهما قائلا: " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ [العصر: 2]، أي: هذا النوع الذي هو أشرف الأنواع؛ لكونه في أحسن تقويم، كما أن العصر خلاصة الزمان، والعصر يكون لاستخراج خلاصات الأشياء ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، أي: نقص " [1].

ومن الإيحاءات المنبعثة: أن محمدا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم هو نبي آخر الزمان، وأن أمته هي آخر الأمم من الأنام. وكما أن العصر خلاصة الزمان، فأمة الحبيب المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام هي خلاصة بني الإنسان. وكأن النوع الإنساني بأكمله قد اعتصر؛ ليخرج منه زبدته وخلاصته في آخر الزمان؛ وفيه من كامل الاتساق بين الظرف ومظروفه ما لا يخفى؛ إذ قد تجلى أن كلا منها خلاصة، وكلا منهما مؤخر، وكلا منهما معتصر مستخلص.

قلت: فيظهر وجه التناسب بين كل من المقسم به والمقسم عليه واضحا بهيا؛ فكما أن العصر خلاصة الزمان على امتداده، وزبدته على تقاسيمه، فكذلك الإنسان أشرف الأنواع المربوبة، وخلاصتها على تعددها، وتنافي أغراضها. ومن ثَمَّ فقد فهم في ركني القسم معنى الاستخلاص من وجه، ومعنى الفقد والخسار من وجه آخر، وإلا لما تَأَتَّى أن يحصل عصر المخاطبين؛ إذا لم يفنَ عصر مَنْ قبلهم من الأمم السابقة، فحقيقة الخسر في بني الإنسان بانطماس آثار أفراده الأولى، وانتهاء أممه السالفة واضحة متلألئة، لا شبهة فيها، ولا ارتياب.

هذا، ومن وطيد العلاقة بينهما: أن العصر يحدث نتيجة حركة الأرض، وهي إما إلى نور بمواجهتها الشمس، أو إلى ظلام بانحرافها عنها، والإنسان في ظرفه- أيضا- يتحرك، وتتعدد مساعيه، فكمن في المقسم به الإشارة إلى ارتسام أحوال المقسم عليه، في تحركه وإثبات سعيه تارة، وفي ثمرات هذه الحركة واختلافها وخصائصها وأحكامها تارة أخرى.

الوجه السادس: أن المراد به: الليل والنهار. **قلت:** وعليه فقد وقع بديع التناسب بين ركني القسم؛ إذ حمل الإيحاء بحال النوع الإنساني في طوريه: طور التدني والتسفل والظلام، وطور الارتقاء والسمو والإشراق. **فحال الأول:** أنه مسجون في ظلام نفسه، وليل طبائعه. **وحال الثاني:** أنه خلص من أوهاق نفسه، وسما إلى سماء نهاره، وتحقق شروق روحه. ومن ثَمَّ فكانت المفردة المذكورة مستجيبة لسياقها، مصبوغة بصبغة نظمها، جارية وفق مقتضيات مقامها، ومستدعيات حالها دون ما عداها. مما يؤكد إعجازها البياني، ويقر شاهدا بسمو نظمها القرآني.

ولا يقف أمر القسم بـ (العصر) عند ذلك الحد من البيان، بل إنه يشمل بمصدريته معنى الحدث المجرد، أعني: حدث العصر، ومن المعلوم أن كل حدث لابد له من محدث؛ وعليه فيتم استحضار الحدث، والتنويه بأمور في صحبته. **الأول:** فاعل هذا الحدث (العصر). **الثاني:** الشيء الذي يعصر. **الثالث:** الشيء الذي يخرج منه (المعصور). **الرابع:** النفايات المتبقية من العصر. **الخامس:** زمكان هذا الحدث، وفي ذلك تذكير ووعيد وتهديد، تنتقل فيه الصورة الحسية الموجودة في المقسم به؛ لتصير كالمرآة يشف فيها وينتقش عليها ما يحدث للإنسان، في ظل ما يؤكده المقسم عليه: ﴿**إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ**﴾ [العصر: 2]. فالخسر والنقصان يتجلى في أبهى صورة في حدث العصر، وما ينتج عنه من آثار، وما يستتبعه من أحداث.

فإن قلتَ: ما الذي يقتضيه الحكم على الإنسان بكونه خاسرا؟ **قلتُ:** يقتضي أن أبعاد حقيقة الإنسان ومدلولاته إلى خسران معنوي، وزوال حتمي، وهو سوء العاقبة، وقبح المصير، وشناعة المآل. أما المراد بهذا العنوان، وهو الشخص المستقر في أردأ أحواله، فهو في خسر مادي ومعنوي؛ لكون الإنسان يمثله أبعاده، وتلك الأبعاد عبارة عن طوله، وعرضه، وعمقه، وعُمُره، وهذا بأدنى نظرة إلى خسران؛ إذ يشهد عليه برهان المشاهدة والواقع، وتدعمه معايشة التجربة الحياتية، ومعاينة تطوراتها المادية؛ فكل ما يمثله إلى خسران مادي لا محالة. أما الخسران المعنوي فيفهم في ضوء الإعلان عن حال هذا الشخص الذي يعيش فاقدا

---

[1] نظم الدرر: 237/22 بتصرف يسير.

لقيمته، مبتعدا عن سمو غاياته، محجوبا عن رقي ملكاته، غير متعرف على إمكاناته، فهو في صراع دائم، وقلق مستمر، وتعطش لشيء ما يجهل حقيقته، فهو وإن أشبع جانبه المادي، إلا أن جانبه الروحي يبقى جائعا متعطشا، متطلعا إلى خلاصه من أوهاق ظلماته، وانتشاله من ضلالات نفسه، ناشدا إمداده بأنواره، مترقبا اتصاله بمنبع سموه وتعرضه لشعاع هداياته، متشوقا إلى بلوغه محل إشراقاته.. إلخ.

قلت: ومما سبق يتجلى سر إيثار التعبير بكل من المقسم به والمقسم عليه، وتتلألأ بديع المناسبة بينهما. **قال الإمام ابن عاشور ملخصا حال المفردة القرآنية، ومنوها بسر إيثارها:** " هذه المعاني لا يفي باحتمالها غير لفظ العصر " [1]. ومن ثُمَّتْ فيبلغ تمكن المفردة القرآنية في نظمها، واتساقها مع عناصر سبكها مبلغه، ويتحقق تناغمها مع قضايا مقامها، ويتقرر إعجاز بيانها على آكد وجه وأبلغه!.

المبحث الرابع

تتمة أسلوب القسم في نظم السورة الكريمة

قال الله سبحانه وتعالى على سبيل الاستثناء من قضية جواب القسم: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: 3]، فقد ذكر جَلَّ جلاله أربع قضايا هي في مجملها تمثل حقيقة الشخص الناجي من الخسران المقرر لنوع الإنسان.

قلت: وقد تجلى فيما سلف من فعل العلماء وصنيع السادة المفسرين: أن جُلَّ عناية أسلوب القسم إنما هي القضية المقسم عليها، ومن ثَمَّ فقد أحاطها النظم الكريم بكل وسائل التأكيد، وأقام البينة عليها في ضوء المقسم به الذي يقررها، ويرتسمها، ويُعْنَي بها أيما عناية، وكان من تتمة العناية بها: أن شيد النظم الكريم القنطرة المنجية من حكم قضية جواب القسم، أعني: الخسر، المخلصة من أوهاقه، المبعدة من التلبس به، والمقتضية انتشاله من سوئه.. إلخ.

قال الإمام البقاعي منوها ومبينا وجه النظم: " ﴿إِلَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالحاتِ..﴾ إلى آخرها، فهؤلاء الذين ﴿لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: 37]. ولما كان الحكم على الجنس حكما على الكل؛ لأنهم ليس لهم من ذواتهم إلا ذلك، وكان فيهم مَنْ خلصه الله سبحانه مما طبع عليه الإنسان بجعله في أحسن تقويم، وحفظه عن الميل مع ما فيه من النقائص؛ استثناهم سبحانه وتعالى؛ لأنهم قليل جدا بالنسبة إلى أهل الخسر؛ فقال دالًّا بالاستثناء على أن النفوس داعية إلى الشر، مخلدة إلى البطالة واللهو، فالمخلص واحد من ألف: ﴿ إِلَّا الذين آمَنُواْ..﴾ " [2].

قلت: وفي كلام الإمام دقة تعبيرية رائعة؛ إذ إنه يلوِّح بالأثر التفسيري لأسلوب الاستثناء، ويُنَوِّهُ بتمكنه في نظمه، وتناغمه مع عناصر سبكه: سباقا، ولحاقا. **أما السباق:** فقد اتسق مع التعرض لعنوان الإنسان بغاية الإحكام؛ لكونه مقررا له ببليغ بيان. **وأما اللحاق:** فقد نَوَّهَ بالفريق الناجي مرغبا في طاعة الرحمن جل جلاله المنعم على الأنام.

قال الإمام الماتريدي: " كأنه تعالى يقول على هذا: إن الناس في أحوالهم واختياراتهم في خسر إلا مَنْ كانت تجارته في تلك الحالة ما ذكر " [3]. "فإنهم فازوا، وربحوا؛ لأنهم اشتروا الآخرة الباقية بالدنيا الفانية " [4]. **وقال الزمخشري:** "المعنى: أن الناس في خسران من تجارتهم إلا الصالحين وحدهم؛ لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا؛ فربحوا وسعدوا، ومَنْ عداهم تجروا خلاف تجارتهم؛

---

[1] التحرير والتنوير: 530/30.

[2] نظم الدرر: 237/22 وما بعدها بتصرف.

[3] تفسير الماتريدي: 612/10 بتصرف يسير.

[4] تفسير الإيجي: 527/4.

فوقعوا في الخسارة والشقاوة " [1]. **وقال الإمام البيضاوي معللا الاستثناء:** " ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؛ فإنهم اشتروا الآخرة بالدنيا؛ ففازوا بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية " [2].

وقال الشيخ الشعراوي مقررا وجه الاستثناء: " ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ﴾ على إطلاقه ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، ولكن مَنِ الذي ينجو من الخسران؟ وتأتي الإجابة من الحق سبحانه فيقول: ﴿إِلَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصالحات وَتَوَاصَوْا بالحق وَتَوَاصَوْا بالصَّبْرِ﴾ [العصر:3]، وتتأكد القضية في مواضع أخرى من القرآن الكريم؛ إذن كل كلام في القرآن عن الإنسان على إطلاقه يأتي من ناحية الشر. وما الذي ينجيه من ذلك؟ إنه المنهج الإلهي " [3].

قلت: فكأن الحق عَزَّ وجَلَّ ذكر من أفراد العمل ما يناسب المقام، الذي ينشد تقويم الإنسان، وتهذيب طبائعه، ومواجهة نقائصه، والذي يتطلب الإيمان بما يقتضيه من مطلوبات وأحكام. وتقديم الإيمان أمر طبعي، وشأن بدهي؛ لكونه أصل الأصول ومعتمدها، فهو الركيزة الأساسية، والدعامة الحقيقية، وما عداه مبني عليه، مفتقر في قبوله إليه.

سر عطف العمل الصالح على الإيمان:

هذا، وقد عطف العمل الصالح على الإيمان؛ لكونه مطلوبه، ودليل ذلك الإيمان، وأثره الظاهري الذي يسري على الأركان؛ تصديقا لتحقق مجامعه بالبرهان.

قال الإمام البقاعي مقررا وجه التناسب: " لما كان الإنسان حيوانا ناطقا، وكان كمال حيوانيته في القوة العملية للحركة بالإرادة، لا بمقتضى الشهوة القاسرة البهيمية؛ قال تعالى: ﴿وَعَمِلُوا﴾، أي: تصديقا بما أقروا به من الإيمان ﴿الصَّالحاتِ﴾، أي: هذا الجنس، وهو اتباع الأوامر، واجتناب النواهي، في العبادات كالصلاة، والعادات كالبيع؛ فكانوا بهذا مسلمين بعد أن كانوا مؤمنين؛ فاشتروا الآخرة بالدنيا؛ فلم يلههم التكاثر؛ ففازوا بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية؛ فلم يلقهم شيء من الخسر " [4]. **وقال الشيخ الشعراوي معلنا سر العطف:** " الإيمان: عمل قلبي، ومواجيد تطمئن بها النفس، لكن الإيمان له مطلوب: فأنت آمنتَ بالله سبحانه، واطمأنَّ قلبك إلى أن الله تعالى هو الخالق الرازق واجب الوجود.. إلخ، فما مطلوب هذا الإيمان؟ مطلوب الإيمان أنْ تستمع لأوامره؛ لأنه حكيم، وتثق في قدرته؛ لأنه قادر، وتخاف من بطشه؛ لأنه جبار، ولا تيأس من بَسْطه؛ لأنه باسط، ولا تأمن قبضه؛ لأنه قابض. لقد آمنتَ بكل هذه القضايا، فحين يأمرك بأمر؛ فعليك أنْ تستحضر حيثيات هذا الأمر وأنت واثق أن ربك عَزَّ وَجَلَّ لم يأمرك ولم يَنْهَكَ من فراغ، إنما من خلال صفات الكمال فيه سبحانه، أو صفات الجلال والجبروت، فاستحضر في كُلِّ أعمالك، وفي كُلِّ ما تأتي أو تدع، هذه الصفات. لذلك؛ جمعت الآية بين الإيمان، والعمل الصالح " [5].

ومن ثَمَّ " فالله تعالى يريد أن يُعدِّي الإيمان والأحكام إلى أن تكون سلوكا عمليا في حركة الحياة " [6]. " ففائدة الإيمان العمل بمقتضاه، وإلا فما جدوى أن تؤمن بأشياء كثيرة، لكن لا تُوظِّفُ ما تؤمن به، ولا تترجمه إلى عمل وواقع، لذلك؛ إنْ اكتفيتَ بالإيمان ككلمة تقال دون عمل؛ فقد جعلت الإيمانَ حجة عليك لا حجةً لك " [7].

---

[1] الكشاف: 793/4 وما بعدها بتصرف.

[2] أنوار التنزيل: 336/5 بتصرف يسير.

[3] الخواطر: 1782/3 بتصرف يسير.

[4] نظم الدرر: 239/22 بتصرف يسير.

[5] تفسير الشعراوي: 9734/16.

[6] الخواطر: 10865/17.

[7] تفسير الشعراوي: 11594/19.

وقال الإمام ابن عاشور: " قد دل استثناء: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ من أن يكونوا في خسر، على أن سبب كون بقية الإنسان في خسر، هو عدم الإيمان والعمل الصالح؛ بدلالة مفهوم الصفة. وعلم من الموصول: أن الإيمان والعمل الصالح هما سبب انتفاء إحاطة الخسر بالإنسان " [1].

سر عطف التواصي بالحق:

قلت: وإذا تقرر إيمان المرء باطنا، وتحقق مطلوبه ظاهرا، فلا شيء بعد هذا إلا أن يُعَدِّيَ إيمانه بمطلوبه إلى غيره، ويعمل على أن يسري منه إليه؛ ليكون قد أدى حق إكمال نفسه، وحق إكمال غيره؛ تحقيقا لسموه، وتقريرا لخلاصه من أوهاق بعد الإنسان الذي لا يعرف إلا مبدأ (الأنا)، ولا يركن إلا إلى مصالحه الشخصية، ونوازعه النفسية. أَمَا وقد تحقق إيمانه فلم يبقَ إلا قطع الصلة بين أوصافه قبل الإيمان وبعده؛ فيظهر في جانبه حب الآخرين، والحرص على مصلحتهم، والعمل على تخليصهم؛ تقريرا لحيثيات سموه، وتصديقا لاستثنائه من أفراد جنسه.

قال الإمام البقاعي مجليا المناسبة: " لما كان الإنسان بعد كماله في نفسه بالأعمال لا ينتفي عنه مطلق الخسر إلا بتكميل غيره، وحينئذ يكون وارثا؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بعثوا للتكميل، وكان الدين لا يقوم، وإذا قام لا يتم إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الناشيء عن نور القلب، ولا يَتَأَتَّى ذلك إلا بالاجتماع- قال مخصصا لما دخل في الأعمال الصالحة؛ تنبيها على عظمه: ﴿وَتَوَاصَوا﴾، أي: أوصى بعضهم بعضا بلسان الحال أو المقال: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أي: الأمر الثابت، وهو كل ما حكم الشرع بصحته؛ فلا يصح بوجه نفيه من قول أو عمل أو اعتقاد أو غيره، من فعل أو ترك؛ فكانوا محسنين، والتكميل في القوة العملية باجتلاب الخيور " [2]. **وتبعه الخطيب الشربيني**[3].

وقال الإمام ابن عاشور: " عطف على عمل الصالحات، التواصي بالحق، وإن كان ذلك من عمل الصالحات، عطف الخاص على العام؛ للاهتمام به؛ لأنه قد يغفل عنه؛ يظن أن العمل الصالح هو ما أثره عمل المرء في خاصته؛ فوقع التنبيه على أن من العمل المأمور به: إرشاد المسلم غيره، ودعوته إلى الحق؛ فالتواصي بالحق يشمل تعليم حقائق الهدي، وعقائد الصواب، وإراضة النفس على فهمها، بفعل المعروف، وترك المنكر " [4].

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب موجها حيثية التواصي بالحق، ومنوها بعظيم دورها: " ثم تواصوا به فيما بينهم؛ فنصح بعضهم لبعض بالاستقامة عليه، والتمسك به، وفى هذا ما يقوى من جبهة الحق، ويكثر من أتباعه " [5].

سر عطف التواصي بالصبر:

قلت: ثم عطف على التواصي بالحق التواصي بالصبر الذي هو خلاصة المرء، والدليل على كمال تخليصه من شوائب عنوان الإنسان، واكتمال نقائه من أبعاده المردية، كما أنه سبيل الوصول به إلى المرتقى السامق في جنان الرحمن جل في علاه. وهو من باب عطف الخاص على العام إلا أنه خصوصه من وجه؛ لأنه ليس مندرجا فيه، بل لأن الصبر لازم في تحمل مشقة تعاطي إقامة الحق.

قال الإمام البقاعي موجها سر العطف: " لما كان الإنسان ميالا إلى النقصان، فكان فاعل ذلك الإحسان معرَّضًا للشنآن من أهل العدوان، وهم الأغلب في كل زمان، قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا﴾؛ لأن الإنسان ينشط بالوعظ، وينفعه اللحظ واللفظ ﴿بِالصَّبْرِ﴾، أي: الناشيء عن زكاة النفس على العمل بطاعة الله، من إحقاق الحق، وإبطال الباطل، والنفي له، وعلى ما يحصل بسبب ذلك من الأذى باجتناب الشرور إلى الممات، الذي هو سبب موصل إلى دار السلام. والصبر هو خلاصة الإنسان،

---

[1] التحرير والتنوير: 532/30 بتصرف يسير.

[2] نظم الدرر: 239/22 بتصرف يسير.

[3] السراج المنير: 584/4.

[4] التحرير والتنوير: 532/30 وما بعدها بتصرف.

[5] التفسير القرآني للقرآن: 1669/16.

وسره، وصفاوته، وزبدته، وعصارته، الذي لا يوصل إليه إلا بضغط الإنسان لنفسه، وقسرها على أفعال الطاعة؛ حتى يصير الصبر لها بالتدريب عادة وصناعة، فقد عانق آخرها أولها، وواصل مفصلها موصلها " [1]. **وقال الإمام ابن عاشور مقررا موقعه:** " التواصي بالصبر عطف على التواصي بالحق عطف الخاص على العام- أيضا- وإن كان خصوصه خصوصا من وجه؛ لأن الصبر تحمل مشقة إقامة الحق، وما يعترض المسلم من أذى في نفسه في إقامة بعض الحق " [2].

وقال الشيخ عبد الكريم الخطيب ملوحا بحيثيته: " في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ إشارة إلى أن طريق الإيمان، والاستقامة على شريعته ليس أمرا هينا؛ فإن ذلك إنما يحتاج إلى معاناة، وصبر على مغالبة الشهوات، وقهر دواعي الأهواء، ووساوس الشيطان. فطريق الحق طريق محفوف بالمكاره، والصبر هو زاد الذين يسلكون طريقه، ويبلغون به غايات الفوز والفلاح " [3].

قلت: ومما سبق يسعني القول: إن النظم القرآني قد عمل على تقرير أسباب النجاة، وارتسام سبيلها، ومواجهة غرور الإنسانية، ومعالجة طبائعها الدنية؛ ومن ثَمَّ فالطريق للخلاص من أوهاق عنوان الإنسان هو الإيمان بحقيقة النفس وعداوتها التي تردي صاحبها أولا، والإيمان بحق الخالق سبحانه الذي ينشد تقويمها وتهذيبها ثانيا، والثبات على كل ما يحمد، لاسيما الإقامة على الحق من الإقرار بالعبودية للرحمن الذي يناهضه عنوان الإنسان، والصبر عن كل ما يذم، بذلك نرتفع عن وسم الإنسان مفارقين أردأ محل بشري، ونرتقي في معارج العلو النفسي، والإشراق الروحي، بالغين السمو الإيماني، ومحققين الارتقاء القدسي.

ومن ثَمَّ قال العلامة أبو السعود مجملا سر الاستثناء: " ﴿إِلَّا الذين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالحاتِ وَتَوَاصَوْاْ بالحق وَتَوَاصَوْاْ بالصَّبْرِ﴾؛ فإنهم في تجارة لن تبور؛ حيث باعوا الفاني الخسيس، واشتروا الباقي النفيس، واستبدلوا الباقيات الصالحات بالغاديات الرائحات؛ فيا لها من صفقة ما أربحها! " [4].

وقال محمد رشيد رضا منوها بعظمة السورة: " لو فهم فلاسفة أوربا هذه السورة؛ لجزموا بأنها على اختصارها تغني عن جميع ما يعرفون من كتب سائر الأديان، وهو مفهوم في الجملة لِمَنْ له أدنى إلمام باللغة العربية؛ إذ يعلم أن المراد بصيغة القسم: التأكيد. ويعلم أن المراد بالإنسان: الجنس. وأن الصالحات: ما يصلح بها حال الإنسان في روحه وجسده، في أفراده ومجموعه. وأن التواصي بالحق هو من التعاون على الأخذ به، والثبات عليه. وأن الحق هو الشيء الثابت المتحقق، وثبوت كل شيء بحسبه. وأن الصبر يشمل الصبر عن الشيء القبيح كالمعاصي والشهوات الضارة، والصبر في الشيء الذي يشق احتماله كالمدافعة عن الحق والمصائب " [5]. **ومن ثَمَّ قيل:** " التواصي بالحق والصبر، هو كمال العبادة بعد التوحيد " [6].

والخلاصة: أن " هذه السورة القصيرة أجمع للفضائل، وأبلغ في الهداية من جميع الكتب التي في العالم، سماوية كانت أو غير سماوية، وهي كافية لأن تكون دينًا مستقلًا لقوم يتدبرون " [7]. ولا عجب في ذلك فقد اشتملت السورة على توضيح العقيدة ومطلوبها ممثلا في الإيمان والعمل الصالح [8]. كما اشتملت على التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهما ينتظمان جميع المصالح الدينية، وينطويان على كلياتها السنية. **وهذا عين ما قرره الإمام ابن عاشور؛ إذ يقول:** " قل: اشتمل قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال

---

(1) نظم الدرر: 240/22 بتصرف.

(2) التحرير والتنوير: 533/30.

(٣) التفسير القرآني للقرآن: 1669/16.

(4) إرشاد العقل السليم: 197/9 بتصرف.

(5) مجلة المنار: 448/4 بتصرف.

(6) تفسير المنار: 31/1.

(7) مجلة المنار: 436/5.

(8) ينظر الخواطر: 1665/3.

الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر. والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها [1]؛ فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه؛ حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لِمَنْ راض نفسه عليها " [2].

قلت: وبإعلان هذه التشريعات الحكيمة، والأخلاق البليغة، والآداب القويمة؛ تتجلى لواءات الرحمة الإلهية في أبهى صورها، وتتوافد براهين العناية الربانية في أقوى مقوماتها، والتي تنبعث بتقرير أبعاد أوهاق الإنسانية، وتُعْنَى بتسجيلها، ثم تواجه انحرافها، وتعمل على تخليصها من تبعات نفسها، وتجنيبها نوازع دواخلها، ناشدة سموها، موجة إياها إلى صلاح حالها، وهادية لها إلى فلاح مآلها. فيتجلى للعيان قبيح ما يفعله الإنسان بنفسه، في مرآة ناصعة تصور جميل ما يفعله به ربه سبحانه وتعالى؛ مما يثقفه بحقيقة عداوته لشخصه، ويسجل عليه ضعفه عن إدراك حقيق غاياته، ويرهبه من سوء عواقب اتباع نوازعه، ويحمله على الالتجاء إلى فاطره عَزَّ وجَلَّ، والفرار إلى مربيه جَلَّ جلاله، والتمسك بحبله، الذي هو طوق نجاته، وسبيل تخليصه، وسبب سموه وإشراقه. ومن ثُمَّتْ فيبلغ تمكن المفردة القرآنية في نظم أسلوب الاستثناء مبلغه، ويتحقق اتساقها مع قضايا مقامها، ويتقرر إعجاز بيانها على آكد وجه وأبلغه!.

المبحث الخامس

المناسبة بين أسلوب القسم والقضايا التي تُعْنَى بإثباتها السورة الكريمة

نزلت سورة (العصر) في مكة، وشأن القرآن المكي أنه يواجه الفطر بجلائل النعم، ويُعْنَى بإقامة الأدلة على القضايا العقدية معتمدا الأمثلة والمشاهدات الحسية، التي لا سبيل لإنكارها، ولا يَتَأَتَّى بحال التهاون بجليل مقامها. وتلك السورة لا تخرج عن هذا الإطار العام؛ فهي مطوية على ركائز الاستدلال على وجوده تعالى، ووحدانيته، وقدرته، وإرادته، وعلمه.. وغير ذلك من النعوت الإلهية الجليلة، والصفات الربانية الجميلة، ملوحة ضمنا بدلائل البعث، ومنوهة بحقائق الحساب. كما أنها محفوفة بضروب التذكير، وصنوف الوعيد والتهديد، وموشحة بأنماط الامتنان المتوافدة على ذلك الإنسان؛ فعُنِيَتْ بتذكيره بحقائق نفسه، وهدايته إلى جميل فعل ربه سبحانه؛ إذ أرشده إلى طريق نجاته؛ إنشادا لتقويمه، وعنايةً بحسن حاله وصلاحه، وتحقيقا لجميل مآله وفلاحه.

وإذا ما سرنا في ضوء كل مفردة في نظم أسلوب القسم على حدة؛ لوقفنا على سيل من البراهين المنبعثة من كل منها، والمتوافدة من طيات مكنونات دلالتها، ولغمرنا بالبينات والآيات الصادرة عنها؛ إثباتا لكل القضايا العقدية؛ إذ قد تقرر من دراسة لبنات سبائك أسلوب القسم، أن لكل لبنة في نظمها دلالةً وإيحاءً، كما أن في تركيبها مع ما عقد في سلكها صدًى وإيقاعا، إلا أنني سأكتفي بالإشارة الإجمالية لعصارة ما سبق، في إطلالة هي بمثابة عود على بدء؛ لاستخلاص طرف من الأدلة الكائنة في لبنات النظم المعجز؛ تعويلا على ما تحقق تقريره: تصريحا، وتلويحا.

هذا، ولما كان الاستدلال على وجوده تعالى ووحدانيته غاية الغايات ومنتهى النهايات؛ فكان من اللائق التنويه بأن كل لبنة في نظم السورة تعد بذاتها دليلا قائما على تقرير تلك القضايا وتحقيقها: شكلا، وموضوعا.

أما الشكل: فقد كان البدء بأسلوب القسم على الصورة الواردة (أعني: حذف فعل القسم وفاعله، والاستعاضة عنهما بالواو)- برهانا بذاته على تلك القضية؛ إذ إن حذف الفعل وفاعله من أثبت الأدلة على تعينه، وأكثرها تنويها بظهوره، وتحقق العلم به واشتهاره، فضلا عما فيه من الإجلال والتعظيم الحقيق بالإله الكريم.

كما أن إيثار (الواو) عوضا عن ما حذف دليل على إرادتها في نظمها، وإيثار القسم بالعصر دون سواه، وتعيين خسر الإنسان في خبرها دون ما عداه، كل ذلك ينم عن إرادة إلهية، لها من الاختيار مطلقه، ومن وجه الحكمة والتدبير أبلغه. هذا بالنسبة إلى صورته التركيبية.

---

[1] **قلت**: وفيه إشارة إلى حيثية تأخره عما سبقه؛ إذ إنه لما كان ملاك الفضائل، وأجمعها؛ كان كأنه عصر من كل ما سلف.

[2] التحرير والتنوير: 533/30 بتصرف يسير.

وأما الموضوع: فكان من دلالات القسم: إثبات قضية الوجود لا محالة؛ إذ لا يَتَأَتَّى عقلا القسم ممن يشوبه العدم، لاسيما بعدما تجلي وجوه التناسب في نظمه، وأنماط الحكمة في إيثاره، مع الإيحاء بكون وجوده تعالى مقررا في العقول مهما ضلت، مستقرا في الفطر مهما طمست، وهذا بمقتضى الميثاق الأول المعبر عنه بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172]. ومن ثَمَّ فيحصل من طبيعته الأسلوبية الاستدلال المقصود، والتذكير المنشود.

هذا، ويمكن إجمال ملامح الاستدلال مقررة في المحاور التالية:

المحور الأول: أن أركان القسم قد عُنِيَتْ بذكر الإنسان وظرفه وهو (العصر)، ولا ريب في أنه قد توفر في خلق الإنسان وظرفه بما فيه من أحداث عظام، وخطوب جسام، ما يصرخ بوجود مبدعهما على غير مثال. وعليه فقد توفر فيهما أدلة وجود الله تعالى بما لا غاية وراءه، ويتصدر تلك الأدلة دليل الإمكان [1]، والحدوث.

قال الإمام الرازي مقررا: " إن الطريق إلى إثباته سبحانه وتعالى إما الإمكان، وإما الحدوث. وكل ذلك إما في الجواهر أو في الأعراض؛ فيكون مجموع الطرق الدالة على وجوده سبحانه وتعالى أربعة لا مزيد عليها. **أحدها:** الاستدلال بإمكان الذوات. **وثانيها:** الاستدلال بإمكان الصفات. **وثالثها:** الاستدلال بحدوث الأجسام. **ورابعها:** الاستدلال بحدوث الأعراض، وذلك محصور في أمرين: دلائل الأنفس، ودلائل الآفاق. أما دلائل الأنفس: فهي أن كل أحد يعلم بالضرورة أنه ما كان موجودا قبل ذلك، وأنه صار الآن موجودا، وأن كل ما وجد بعد العدم؛ فلا بد له من موجد، وذلك الموجد ليس هو نفسه، ولا الأبوان، ولا سائر الناس؛ لأن عجز الخلق عن مثل هذا التركيب معلوم بالضرورة؛ فلا بد من موجد يخالف هذه الموجودات؛ حتى يصح منه إيجاد هذه الأشخاص. وليس جائزا أن يكون المؤثر طبائع الفصول والأفلاك والنجوم؛ لافتقارها إلى المحدث والموجد، وهو المراد من دلائل الآفاق، ويندرج فيها كل ما يوجد من تغييرات أحوال العالم، من الرعد والبرق والرياح والسحاب، واختلاف الفصول، لاسيما وأن الأجسام الفلكية، والأجسام العنصرية مشتركة في الجسمية، فاختصاص بعضها ببعض الصفات من المقادير والأشكال والأحياز، لا يمكن أن يكون للجسمية، ولا لشيء من لوازمها، وإلا وجب اشتراك الكل في تلك الصفات؛ فلا بد وأن يكون لأمر منفصل؛ فثبت بهذه الدلالة افتقار جميع الأجسام إلى مؤثر قادر ليس بجسم، ولا بجسماني " [2].

وفي هذه المناسبة قال العلامة أبو السعود: " ينزهه تعالى بلسان الحال عما لا يليق بذاته الأقدس من لوازم الإمكان، ولواحق الحدوث؛ إذ ما من موجود إلا وهو بإمكانه وحدوثه يدل دلالة واضحة على أن له صانعا عليما، قادرا حكيما، واجبا لذاته؛ قطعا للسلسلة " [3].

قلت: وقد جمع أسلوب القسم بركنيه بين دلائل الآفاق والأنفس على السواء. **أما دلائل الآفاق:** فيمثلها (العصر) الذي قد حوى من ضروب النعم أعظمها، ومن الآيات والبراهين أبدعها، ومن مظاهر الإعجاز والتدبير أقومها، ولا شك أنه محقق له الحدوث، مقرر له التغير، ثابت له الانتقال من حال إلى حال، والتعاور على مظروفاته بشتى الأطوار؛ فكان القسم به مقررا حدوثه من وجه، ومستدلا على محدثه سبحانه من وجه آخر.

ومن ثَمَّ قال الإمام الماتريدي مقررا الاستدلال بالقسم على قضية الوجود: " القسم بكل شيء قسم بمنشئه؛ لأن كل شيء من ذلك إذا نظرت فيه؛ دلك على صانعه ومنشئه " [4].

فتقرر: أن إقسام الله سبحانه تعالى بالعصر يقتضي التصريح بكونه له سبحانه خلقا، وملكا، وتصرفا، وقد جاءت هذه الدعوة في صريح كلامه محفوفة بما يبرهنها؛ لكونه عز وجل قد جمع ما في هذا العصر في تسميته، والتي تعرب عن حقيقته، وتخبر عن

---

[1] **قال الإمام الجرجاني حادا:** " الإمكان: عدم اقتضاء الذات الوجود والعدم " . التعريفات: صـ 36.

[2] تفسير الرازي: 332/2 وما بعدها بتصرف.

[3] تفسير أبي السعود: 175/5.

[4] تأويلات أهل السنة: 611/10 بتصرف.

أحواله، وتبرز خصائصه، وترتسم مظاهره؛ مما يقرر صدق إسنادها إلى بارئها. وعليه فقد صارت دعوى مسندة لله سبحانه وحده، وليس ثَمَّ معارض، أو مدع شراكة، والدعوى إذا سلمت من ذلك؛ صارت ثابتة لِمَنِ ادعاها؛ إذ إنه ليس معقولا أن تكون لغيره ويسكت عنها، وإلا صار إلها لا يريد بعباده خيرا؛ إذ سمح بإضلالهم.

كما أنه ليس معقولا أنه لم تبلغه تلك الدعوى، وإلا اتسم بالجهل، وعدم السيطرة؛ فلا يستحق العبادة أصلا، ولا يستأهل الثقة فيه؛ وعليه فأنى يعبد سواه؟! وكيف يتسنى الإشراك بِمَنْ عداه؟! ومن ثَمَّ فيبلغ الاستدلال على الوحدانية مبلغه، ويتقرر النعي على المشركين، وتحميقهم على آكد وجه وأبلغه!.

وقال الإمام الرازي مقررا جهة الاستدلال ومعللا حيثية القسم بالعصر: " إن الدهر مشتمل على الأعاجيب؛ لأنه يحصل فيه السراء والضراء، والصحة والسقم، والغنى والفقر، بل فيه ما هو أعجب من كل عجب، وهو أن العقل لا يقوى على أن يحكم عليه بالعدم؛ فإنه مجزأ مقسم بالسنة والشهر واليوم والساعة، ومحكوم عليه بالزيادة والنقصان والمطابقة، وكونه ماضيا ومستقبلا، فكيف يكون معدوما؟ ولا يمكنه أن يحكم عليه بالوجود؛ لأن الحاضر غير قابل للقسمة، والماضي والمستقبل معدومان، فكيف يمكن الحكم عليه بالوجود؟ ولأن بقية عمر المرء لا قيمة له، فلو ضيعت ألف سنة، ثم تاب في اللمحة الأخيرة من العُمُر؛ بقيت في الجنة أبد الآباد؛ فعلمت حينئذ أن أشرف الأشياء حياتك في تلك اللمحة، فكأن الدهر والزمان من جملة أصول النعم، فلذلك؛ أقسم به، ونَبَّهَ على أن الليل والنهار فرصة يضيعها المكلف " [1].

كما أن العصر يشير بطياته إلى حدوث ظاهرة الليل والنهار، الناشيء عن حركة الأجرام، ومما لا ريب فيه: أن تلك الأجرام وحركاتها دليل على مركبها، وبرهان على محركها.

وفي هذا الشأن قال الإمام الرازي مستدلا على حدوثها: " ثبت أن أجرام الأفلاك مركبة من الأجزاء التي لا تتجزء، وإذا ثبت هذا؛ وجب افتقارها إلى خالق ومقدر، وذلك؛ لأنها لما تركبت؛ فقد وقع بعض تلك الأجزاء في داخل ذلك الجرم، وبعضها حصلت على سطحها، وتلك الأجزاء متساوية في الطبع والماهية والحقيقة؛ ومن ثَمَّ فحصول بعضها في الداخل، وبعضها في الخارج، أمر ممكن الحصول، جائز الثبوت، يجوز أن ينقلب الظاهر باطنا، والباطن ظاهرا، وإذا كان الأمر كذلك؛ وجب افتقار هذه الأجزاء حال تركيبها إلى مدبر وقاهر، يخصص بعضها بالداخل، وبعضها بالخارج؛ فدل هذا على أن الأفلاك مفتقرة في تركيبها وأشكالها وصفاتها إلى مدبر قدير عليم حكيم. كما أن حركات هذه الأفلاك لها بداية، ومتى كان الأمر كذلك؛ افتقرت في حركاتها إلى محرك ومدبر قاهر؛ لأن الحركة عبارة عن التغير من حال إلى حال، وهذه الماهية تقتضي المسبوقية بالحالة المنتقل عنها، والأزل ينافي المسبوقية بالغير؛ فكان الجمع بين الحركة وبين الأزل محالا. وإذا ثبت هذا؛ وجب أن يقال: هذه الأجرام الفلكية كانت معدومة في الأزل، وإن كانت موجودة، لكنها كانت واقفة وساكنة وما كانت متحركة، وعلى التقديرين: فلحركاتها أول وبداية. وابتداء هذه الأجرام بالحركة في وقت معين دون ما قبله ودون ما بعده، لا بد وأن يكون لتخصيص مخصص، وترجيح مرجح، وذلك المرجح يمتنع أن يكون موجبا بالذات، وإلا لحصلت تلك الحركة قبل ذلك الوقت؛ لأجل أن موجب تلك الحركة كان حاصلا قبل ذلك الوقت، ولما بطل هذا؛ ثبت أن ذلك المرجح قادر مختار، وهو المطلوب " [2].

هذا، وكما يستدل بأركان القسم على إثبات وجوده عز وجل، فيستدل به– أيضا– على تقرير الوحدانية لإله البرية سبحانه وتعالى؛ إذ إنه مما لا شك فيه: أن المقسم به هو لله تعالى وحده: خلقا، وملكا، وتصرفا، كما أن القضية التي أقسم عليها لها ما يؤكدها ويقرر صدقها في ظل المقسم به؛ فهو خير شاهد على صحتها، وأكبر بينة على صدقها، لاسيما وأن صدق القضية، وتقديم برهانها في ظلال أحد أركان أسلوبها، ينم عن حكمة وخبرة وتدبير من وجه، ويكشف عن رحمة وعناية بالمخاطبين من وجه آخر،؛ إذ إنه يطلق في نظم كلامه قضايا مبرهنة، وفي ذلك دعوة للعباد بالتصديق المحاط بحيثياته، وإرشاد إلى الهدى ضمن براهين آياته.

---

[1] التفسير الكبير: 277/32 بتصرف.

[2] تفسير الرازي: 188/17 وما بعدها بتصرف.

وفي هذا الصدد قال العلامة أبو السعود: " يستدل على الله سبحانه بمجموع ما سواه، وبكل جنس من أجناسه، يستدل عليه تعالى بكل جزء من أجزاء ذلك المجموع، وبكل فرد من أفراد تلك الأجناس؛ لتحقق الحاجة إلى المؤثر الواجب لذاته في الكل؛ فإن كل ما ظهر في المظاهر مما عز وهان، وحضر في هذه المحاضر كائنا ما كان، دليل لائح على الصانع المجيد، **وسبيل واضح إلى عالم التوحيد** " [1].

قلت: وثَمَّ دلائل أخرى على الوجود والوحدانية، تستقرأ في ظلال ما يعم الكون بأسره (زمانا، ومكانا) من مظاهر الإحكام والإتقان، وما تعلوه من آثار اللطف والتدبير، وما تحفه من آيات العناية، وبراهين العناية؛ مما يقر بإله حكيم، ويشهد بوجود رب كريم، ويخضع لإرادة جواد حكيم.

فقد جاءت السورة بكل أركانها مفعمة بأنماط التكوين، مشحونة بصنوف التدبير، مطعمة بضروب الامتنان؛ فها هو العصر بكل معانيه لهو من أكبر الأدلة على وجود الله تعالى ووحدانيته، وصفات جلاله، ونعوت كماله؛ لأنه مخلوق له سبحانه، لاسيما وقد تمهد مما سبق أنه عندما تطلق مادة (ع ص ر) يجب أن تستحضر كل ما انطوت عليه من معان، وما أنيط بها من استعمالات، وما لابسها من إيحاءات، وما انبعث منها من إشارات، وقد دلت على معنى: الدهر، مشيرة إلى أظهر تفاصيله، من حدوث الليل والنهار، والغداة والعشي، مع الإيحاء بالتلازم بينهما، كما أوحت بخصائصه من الاعتصار والفتن والابتلاء.. كما قد تقرر. ولا ريب أن في هذا الدهر وما شملته أزمانه ولابسته أيامه أحكاما عظاما، وأحداثا عبرا، وخطوبا جساما، وآثارا عجابا، فيها ما يدل على حدوثها، ويصرخ بوجود مدبرها سبحانه وتعالى، ويصرح بحكمته، وينطق بدلائل وحدانيته، ويقيم البراهين لائحة في الآفاق والأنفس على بالغ علمه، وطلاقة قدرته، ونافذ إرادته، وجميل تدابيره. فضلا عما في تلك الأزمان من ضروب الامتنان؛ لما استقر في العقول من بدائع الفوائد إزاء تعاقب الليل والنهار، وما في ذلك من تحقق المصالح المتوافدة، وتحصيل المنافع المتعددة! على ما قررته براهين الواقع، كما صرحت به آيات الذكر الحكيم الذي أقسم بالعصر في نظمه الكريم؛ فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [يونس: 67]. وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: 47]. وقال جَلَّ جلاله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [الروم: 23]. وقال تقدست أسماؤه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [غافر: 61].. وغيرها الكثير.

وقد تضمنت مادة (ع ص ر) شتى مظاهر التدبير، وجميع أحداث الخلق والتكوين، مرتسمة دورة الحياة وشئونها، فما من عصر بمعنى الدهر إلا وفيه من تلك المظاهر والأحداث ما لا يَتَأَتَّى إنكاره، ولا يغيب عن العقول تحقيق آثاره.

ولذا ارتبطت المادة استعمالا بنمط من تلك التصاريف، لاسيما المظاهر الكونية التي بيد الله تعالى تصريفها، كالريح التي تثير السحاب، والسحابة الممطرة، ومستتبعاتها، والإشارة إلى وجود العصارة من الأرض، أي: غلتها، والغبار الذي يستدير ويسطع، وأثر ذلك في تحقيق معنى النهار.. إلخ. مما هو من مقتضيات استبقاء الحياة، وأحد أركانها، وعنوان مقوماتها، كما تقرر سابقا. وبتأمل سبل البقاء المشاهدة المحسوسة عند الجميع؛ نرى أن الإنسان في ذاته في حاجة إلى محدث ليخلقه، ثم بعد ذلك هو في حاجة إلى مكان وزمان ليبقى فيه، ثم إلى مصادر وأسباب تستبقيه.

أما المكان فهو الأرض، وأما الزمان فيحدث نتيجة حركتها حول محورها أمام الشمس، فإذا واجهت بأحد جزأيها الشمس؛ حدث النهار، وانتشر الناس لمعاشهم، وإذا تحركت في اتجاهها بعيدة عن الشمس؛ عادت إلى الظلمة، وحدث الليل، وسكن الناس، وتحقق سباتهم.

ونشأ تبعا لذلك: الأيام والليالي، والحر والبرد، والنور والظلام، والأمطار والجفاف، والخصب والجدب. وسائر الأحوال الحياتية الممكّنة للإنسان من البقاء ماديا ومعنويا. مع الإشارة إلى ما بين تلك الأحوال المتعاقبة، والمختلفة من معنى الملازمة، لاسيما

[1] إرشاد العقل السليم: 14/1.

الغداة والعشي، والليل والنهار، وما في تعاقبهما من أحوال ضرورية لمصالح الأنام، كما قال الحق عز سلطانه: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: 5]. وقال: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: 12].

كما أن القسم مشعر بقيمة المقسم به، ومؤذن حتما بما له من أهمية، فالحق سبحانه يقسم بما شاء على ما شاء، وعند استقراء أسلوب القسم في النظم القرآني؛ يتقرر بما لا يدع مجالا للشك، أن تلك الأقسام لا تخلو من الإخبار عن الله تعالى: ذاتا، وصفة، وأفعالا. وهي في مجملها يجمعها وثيقة عقد، ويتصدرها لواء جمع، أعني: ما فيها من فوائد جمة، وأحوال عظيمة، وخطوب جسيمة، تنبئ عن طلاقة القدرة الإلهية، ونافذ الإرادة، وبالغ العلم، وبديع الحكمة، وجميل الرحمة. كما أنها في ذاتها تعد بطاقة تعريفية بعناوين الألطاف الإلهية، ولواءات التدابير الربانية، ومظاهر تعاجيب آثار القدرة السنية.

وحري بالذكر: أنه قد فهم من دلالة مادة (ع ص ر) بعض المدلولات التي تنبئ عن إرادة الله تعالى، وتمثلها في أبهى صورها، لاسيما اختلاف أحوال الليل والنهار، وما سببهما من حركة الأجرام والأفلاك، وكذا ما يتبعهما من مظاهر كونية، وظروف حياتية، فكل ذلك تخصيص للممكنات ببعض ما يجوز عليها، وفقا لإرادة الإله الحكيم سبحانه.

ومن هذا القبيل: مدلول: (ما بقي من الرطب في بطون الأرض) الذي كمن في مطاوي المقسم به؛ إذ هو في ذاته تصريف معين، ينبئ عن وجود واجب الوجود، واحد الذات والصفات والأفعال، قادر على إنفاذ أمره، مريد من حيث إنه قد خصص بعض الممكنات ببعض ما يجوز عليها من الأحوال؛ فتبلغ أوجه الاستدلال على صفاته تعالى غاية الغايات القاصية، ونهاية النهايات النائية.

ومنه– أيضا– مدلولات: الغبار، والسحائب التي تعتصر بالمطر، وريح تثير الغبار، وتأتي بالإعصار؛ إذ كان لها بالغ الوقع، وشديد الأثر؛ حيث إنها هي أحد مقومات حدوث النهار، فقد تواضع الناس على أن الشمس هي التي تحدث النهار وتجليه، وقد كنت مثلهم في ذلك الفهم؛ حتى مَنَّ الله تعالى عليّ بدراسة سورتي: (الشمس، والليل)، ووقفت عند قول الله تعالى: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ [الشمس:3]، وقوله سبحانه: ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ [الليل: 2]. فاستوقفني حيثية الإسناد مع ما استقر عندي من حدوث العكس (أعني: أن الشمس هي التي تجلي النهار، وليس العكس)، وقد طالعت أقوال السادة المفسرين في حقيقة إسناد التجلي إلى النهار، **والعجيب**: أنه قد تأكد لي إجماعهم على أن الإسناد المذكور على سبيل المجاز العقلي، وليس على سبيل الحقيقة، إلا أنه بعد دراسة أحوال الليل والنهار في ضوء الدراسات الفلكية المقررة، والحقائق العلمية المؤكدة؛ كانت المفاجأة؛ فقد تقرر من خلال العلم الحديث: أن النهار هو الذي يجلي الشمس، وليس العكس، فالواقع: أن الأرض نتيجة حركتها حول محورها أمام الشمس تحدث فيها ظاهرة النهار، وهو عبارة عن ضوء تبتعثه الشمس على الجزء الأرضي المواجه لها، وهذا الضوء مصدره الانفجار النووي الهائل الحادث في جسم الشمس نتيجة الاندماج بين ذرات الهيدروجين، واليورانيوم.

لكن ابتعاث الضوء من قبل الشمس ليس هو المسبب الأساس في إحداث النهار، بل إن طبقة النهار، وهي الجزء اليسير من الغلاف الغازي للأرض، ويقدر سمكه بمقدار مائتي كيلو متر (200كم) وما فيه من غبار وهباءات وقطرات، هو الذي يحدث انعكاس تلك الأضواء، ويسبب تشتتها، وبسببه تتجلى الشمس من قبل طبقة النهار، وليس العكس، وإذا ما خرجنا من هذا الحيز الغازي بعيدا عن سطح الأرض؛ فإننا سنرى الشمس كقرص أزرق في صفحة مظلمة.

وفي هذه المناسبة قال أ.د/ زغلول النجار شارحا ظاهرة الظلمة الكونية: " لما كان الضوء في غالبته غير مرئي؛ فإن الظلمات متعددة في كوننا، **ومنها**: الظلمة الحالية للكون، فبعد عملية الانفجار العظمي بنحو الثلاثين مليون سنة تخلقت النجوم، وبدأت عملية الاندماج النووي الحراري بداخلها، ولا تزال مستمرة إلى يومنا الحالي، وإلى أن يشاء الله تعالى، وبذلك بدأت النجوم في إرسال أضوائها إلى فسحة السماء وإن كانت أغلب تلك الأضواء غير مرئية؛ لتكونها من سلسلة متصلة من الأمواج الكهرومغناطيسية، التي منها أطياف الضوء المرئي. وتميز عين الإنسان من أطياف الضوء المرئي: الأحمر، ثم البرتقالي، فالأصفر،

والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي، وهذه الموجات لا ترى بوضوح إلا في طبقة النهار، وهي جزء يسير من الغلاف الغازي للأرض المحيط بنصفها المواجه للشمس، لا يتعدى سمكه مائتي كيلو متر، وفيه يتم انعكاس هذه الأطياف بواسطة هباءات الغبار، وقطيرات الماء، واختلاطها مع بعضها البعض؛ لتعطينا نور النهار الأبيض الذي يتمتع به أهل الأرض. وعلى ذلك فإننا إذا تجاوزنا طبقة النهار؛ فإننا نرى الشمس قرصا أزرق في صفحة سوداء شديدة الإظلام، وهذه ظلمة الكون الحالي " [1].

قلت: وعلى ذلك فإن الإسناد المذكور في الآية الكريمة حقيقي وليس مجازيا، ومن ثَمَّ يسعني القول: إن تلك الحقائق إنما هي من قبيل الحقائق القرآنية، التي تقصها علينا مفرداته العربية، وليست من قبيل الاكتشاف العلمي، بل إنها سبق قرآني، من شأن الإعجاز البياني. ومن هنا يجب علينا أن نوجه نحن المسلمين دعوة عالمية لكل العلماء على جميع الأصعدة، وشتى التخصصات إلى التفكر في القرآن، والتوجه نحو دراسة لغته التي بها وفقط يتسنى فهم ما فيه، واستخراج كنوز مكنوناته، ودرر مطاويه. وهذا في رأيي أسهل بكثير، وأكثر متعة من العكوف على أبحاث تحتاج إلى تكرار نظر في مناح مختلفة، وأحوال متعددة، وانتظار خطوب متعاقبة، قد لا يكفيها عُمُر الباحث، ولا تسعها طاقاته، ولا توفرها إمكاناته؛ فقد احتاجت البشرية إلى أكثر من أربعة عشر قرنا للوصول إلى تلك الحقائق، وهي متحققة في ثنايا القرآن، ساكنة في لبناته، غائصة في نظمه، مستقرة في تركيبه، مجموعة في آياته، مكتشفة من أساليبه، شاخصة في مواقع جمله.

فها هو القرآن قد جمع كل العلوم، واحتوى كل الإشارات، ونظم جميع الاكتشافات، وأشار بلبناته إلى كيفياتها، ومهَّد بلفظه لحدوثها، وَنَوَّهَ بعظيم خطوبها!.

فتمهد من ذلك: أنه قد شاع في المقسم به أبلغ مظاهر الإبداع والتكوين، وأسمى آيات العناية والتدبير. وفي هذا الشأن قال الإمام ابن عاشور: " أقسم الله تعالى بـ (العصر)، والمقسم به من مظاهر بديع التكوين الرباني الدال على عظيم قدرته سبحانه، وسعة علمه. وللعصر معان يتعين أن يكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة دالة على صفة من صفات الأفعال الربانية، وأيا ما كان المراد منه هنا، فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة مثل الصلاة المخصوصة، أو عصر معين مبارك. وأشهر إطلاق لفظ (العصر) أنه علم بالغلبة لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس، و(العصر) مبدأ العشي، ويعقبه الأصيل والاحمرار، وهو ما قبل غروب الشمس. فذلك وقت يؤذن بقرب انتهاء النهار، ويذكر بخلقة الشمس والأرض، ونظام حركة الأرض حول الشمس، وهي الحركة التي يتكون منها الليل والنهار كل يوم، وهو من هذا الوجه كالقسم بالضحى وبالليل والنهار وبالفجر، من الأحوال الجوية المتغيرة بتغير توجه شعاع الشمس نحو الكرة الأرضية. وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار، كالقيام على حقولهم وجناتهم، وتجاراتهم في أسواقهم؛ فيذكر بحكمة نظام المجتمع الإنساني، وما ألهم الله تعالى في غريزته من دأب على العمل، ونظام لابتدائه وانقطاعه. وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم، والتأنس بأهليهم وأولادهم. وهو من النعمة أو من النعيم[2]، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب، والاكتهال، والهرم " [3]. **فيبلغ الاستدلال مبلغه، ويتقرر الامتنان على آكد وجه وأبلغه!.**

هذا بالنسبة إلى ما في (العصر)، وما فيه من صنوف التصاريف المتغايرة، وضروب الأحوال المتعاقبة، يتجلى منه إحكام الصنعة، وبليغ اللطف، وجميل الرحمة والرعاية، وبديع الحكمة والعناية؛ **ومن ثَمَّ تتقرر دلائل الآفاق.**

---

[1] تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم، لـ أ.د/ زغلول النجار: 205/1 وما بعدها بتصرف.

[2] **قلت:** ومظاهر النعمة في العصر كثيرة، منها: أنه ظرف زمكاني، لولاه ما تَأَتَّى استقرارا الأنام، وما اسطاعوا التمكن من طاعة الرحمن، وبلوغ مرضات المنان، والعبور منه إلى الجنان، كما أنه قد شاع فيه مظاهر التدبير الممكِّنة للإنسان من التواجد في ظرفه، مع تمام سلامته، وتأكد حفظه.. إلخ.

[3] التحرير والتنوير: 528/30 وما بعدها.

أما دلائل الأنفس: فخير ما يمثلها هنا هو (الإنسان)، ومن المقرر: أنه إذا ما تقرر حال المقسم به؛ فمن البدهي أنه يسري وينتقل بكل أبعاده إلى حال المقسم عليه؛ لما تقرر من كونه بينة دعوته، ومرآة صورته التي تنعكس بحقيقته؛ فالإنسان مخلوق لله تعالى، وهو في ذاته برهان وجود خالقه، ودليل وحدانيته، وآية ربوبيته. قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21].

قلت: أما بالنسبة إلى خلق الإنسان فالإبداع فيه أعجب، والاقتدار على تكوينه أبلغ، والامتنان عليه بأحواله وتدبير شئونه أعظم. ومن ثَمَّ قال الإمام الرازي: " يستدل بخلق الإنسان على وجود الصانع تعالى، وإذا تأملت في القرآن؛ وجدت هذا النوع من الاستدلال كثيرا جدا. واعلم أن هذا الدليل كما أنه في نفسه هو دليل، فكذلك هو نفسه إنعام عظيم، فهذه الحالة من حيث إنها تعرف العبد وجود الإله دليل، ومن حيث إنها نفع عظيم وصل من الله تعالى إلى العبد إنعام؛ فلا جرم هو دليل من وجه، وإنعام من وجه، وحدوث بدن الإنسان كذلك؛ لأن تولد الأعضاء المختلفة الطبائع، والصور والأشكال، من النطفة المتشابهة الأجزاء، لا يمكن إلا إذا قصد الخالق إيجاد تلك الأعضاء على تلك الصور والطبائع؛ فحدوث هذه الأعضاء المختلفة، يدل على وجود صانع عالم بالمعلومات، قادر على كل المقدورات، قصد بحكم رحمته وإحسانه خلق هذه الأعضاء على الوجه المطابق لمصالحنا، الموافق لمنافعنا؛ مما يدل على وجود الصانع، وعلى علمه، وقدرته، ورحمته، وكمال حكمته، وعلى كونه مستحقا للعبادة، جديرا بالحمد، حقيقا بالثناء والتعظيم " [1].

ومن ثَمَّ كان في ذكر الإنسان من الاستدلال على واجب الوجود، واحد الذات ما لا يخفى؛ حيث إنه بهذا البيان يتقرر عنده مهما بلغ في النكران: أنه حادث شأنه التغير، فلا بد له من محدث، وهذا المحدث يجب أن يكون قديما واجب الوجود، وإلا لزم الدور، والتسلسل، وهما باطلان. وإذا تقرر أن الإنسان حادث، وعصره المحيط به- أيضا- حادث؛ وجب عليه أن ينصاع لأمر مولاه، ويخضع لإرادة موجده، ويسير في ضوء منهجه. لاسيما وقد ثبت عجزه، ولاح في النظم سوء اختياراته، وتقرر ضعفه عن تحقيق نفعه، وإدراك سمو غاياته.

وخلاصة الأمر: أن أسلوب القسم قد قرر حدوث كل من المقسم به، وعنوان المقسم عليه (الإنسان)، منوها بأهمية القضية المعالجة بهما، وإلا ما قصد التأكيد عليها؛ إذ إنه من المعلوم: أن التأكيد على غير المهم يعد ضربا من العبث، يتنزَّه عنه العقلاء، وهم مربوبون، فما بالنا برب البرية سبحانه!.

كما أن هذا الأسلوب المعجز قد دَلَّ بما في عقد تركيبه على وجود الخالق سبحانه، ووحدانيته، وقرر برهانهما في الآفاق وفي الأنفس على السواء.

ومن دلالته- أيضا-: إثبات صفة القدرة، والإرادة؛ إذ بهما وجد (العصر)، و(الإنسان)، وكذا صفة العلم، وفي ضوئها ينكشف أحوال كل منهما؛ كما ينكشف في ظلالها وشيج العلاقة بين أركان أسلوب القسم؛ فهو سبحانه يقسم بما خلق، ولا يقسم بشيء ما إلا لحكمة هي في نفسها غاية، ولا يقسم على شيء ما إلا لفائدة هي بالغة النهاية. فكيف الحال إذا ما انضم إلى ذلك تأكيد وشيج الصلة بين المقسم به والمقسم عليه؟! وهي مع ذلك تأتي متناغمة مع لبنات نظمها، متسقة مع أحوال سياقها، من مقتضيات المقام، ومستدعيات الحال، كأنشودة يعزف مقامها جملها، وتعزف الجملُ فيها كلماتها، وتعزف الكلماتُ حروفها، والحروف تعزف أصواتها، ويقوم كل بدوره في انسجام تام، وإحكام متين، وتصاعد معنوي أخاذ، لا يصدر إلا من العليم الخبير؛ ومن ثَمَّ فتبلغ أوجه الحكمة الإلهية مبلغا لا يبارى، وتسمو براهين التعريف بالخالق الحكيم موقعا لا يجارى!.

وعليه ففي ذكر العصر وجنس الإنسان ما يفيض بالامتنان، ويذكر بنعم الرحمن، وآلائه العظام. ومن ثَمَّ قال الإمام الرازي ملمحا إلى هذا المعنى: " إن هذا النوع من الدلائل كما يفيد العلم بوجود الخالق سبحانه، فهو يذكر نعمه علينا؛ فإن

[1] تفسير الرازي: 228/1 بتصرف.

الوجود والحياة من النعم العظيمة، وتذكير النعم مما يوجب المحبة، وترك المنازعة، وحصول الانقياد، فلهذا السبب؛ كان ذكر هذا النوع من الأدلة أولى من سائر الأنواع.. " [1].

قلت: وإذا تجلى برهان العقل من سائر حيثياته، فيأتي دور مخاطبة الفطرة ترغيبا وترهيبا، واستثارة الوجدان؛ تتميما لوسائل الاستدلال، واستيفاء لضروب الإقناع، وإيغالا في الحث على طاعة الرحمن سبحانه وتعالى.

فالقسم بالعصر باعتباره الدهر، هو في ذاته قسم بالزمان والمكان؛ إذ بهما تأتّى العصر، وهما ظرفا الإنسان، وفيه من بليغ التذكير، وجميل الامتنان الباعث على طاعة الرحمن ما لا يخفى؛ حيث إن الله تعالى من خلال هذا القسم يذكر الإنسان بكونه مربوبا قد توفرت له أسباب بقائه، ودبرت أمور معاشه، وخلق له ظرف حياته: زمانا، ومكانا، وبالنظر في أحوال الأرض التي جعلت ظرفا له، وحفت بمزايا تمكّنه من البقاء عليها؛ يدرك كل عاقل أنها مربوبة لقوة مدبرة، لا تملك إلا الانصياع لها، والإذعان الكامل لإرادتها؛ فكان جديرا بذلك الإنسان أن يعي أنه كمظروف مربوب– أيضا– مثل ظرفه، فعليه أن يقلد ما أحاطه من ظروف هو فيها، ملابسها، لا يستطيع النفاذ منها، لا مكانا ولا زمانا، فحري به أن يقوم بواجب مربوبيته إزاء تلك القوة المدبرة. وقد انبعث ذلك بإشارة سامقة الغاية؛ إذ أشار القسم المذكور إلى أن الإنسان مظروف مقيد في حدود مكان وزمان، فهما ظرفاه، وهما لله تعالى: خلقا، وملكا، وتصرفا. فإذا كان الظرف لله تعالى، وتحت ملكه، وكامل تصرفه، فما بالنا بالمظروف! ومن ثَمَّ فتحقق منه التهديد والوعيد بما لا غاية وراءه!

وإذا ثبت أن الإنسان مربوب، وظرفيه (المكان، والزمان) مربوبان؛ فمن باب أولى ما يعبده من الأصنام والأوثان؛ إذ هما في نفس الظرف المربوب، بل وأحد عناصره؛ لكونها تصنع من الطين، وهو جزء من أجزاء الأرض، فكيف يعقل أن يعبد الإنسان صنما، قد صنعه بيده وفضلا عما في ذلك من البلاهة والسفة، فالحق سبحانه يحاوطهم بالدلائل، ويقيم لهم البراهين الدالة على حمقهم؛ فيذكرهم أن تلك الأنداد يتحكم فيها ما يتحكم فيكم من ظروف وأحداث، فيغشيها الليل، ويجليها النهار، ويصيبها المطر، وتأتي عليها الرياح، ويعتريها الغبار، ويَتَأَتّى تغيرها في المكان، وتتعاقب عليها الأزمان، ويتم حملها في الأسفار؛ فكيف يعقل أن تكون آلهة ويتحكم فيها كل تلك الأغيار؟!

---

[1] **ثم أكمل قائلا**: " واعلم أن للسلف طرقا لطيفة في هذا الباب، **أحدها**: كان أبو حنيفة رحمه الله سيفا على الدهرية، وكانوا ينتهزون الفرصة ليقتلوه، فبينما هو يوما في مسجده قاعد، إذ هجم عليه جماعة بسيوف مسلولة، وهموا بقتله؛ فقال لهم: أجيبوني عن مسألة، ثم افعلوا ما شئتم؛ فقالوا له: هات، فقال: ما تقولون في رجل يقول لكم: إني رأيت سفينة تجري مستوية ليس لها ملاح يجريها، ولا متعهد يدفعها، هل يجوز ذلك في العقل؟ قالوا: لا، هذا شيء لا يقبله العقل؟ فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجز في العقل سفينة تجري في البحر مستوية من غير متعهد ولا مجري؛ فكيف يجوز قيام هذه الدنيا على اختلاف أحوالها، وتغير أعمالها، وسعة أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانع وحافظ؟! فبكوا جميعا وقالوا: صدقت، وأغمدوا سيوفهم، وتابوا. **ثانيها**: سألوا الشافعي رضي الله عنه: ما الدليل على وجود الصانع؟ فقال: ورقة الفرصاد طعمها ولونها وريحها وطبعها واحد عندكم؟ قالوا: نعم، قال: فتأكلها دودة القز؛ فيخرج منها الإبريسم. والنحل؛ فيخرج منها العسل. والشاة؛ فيخرج منها البعر. ويأكلها الظباء؛ فينعقد في نوافجها المسك؛ فمَنِ الذي جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الطبع واحد؟ فاستحسنوا منه ذلك، وأسلموا على يده. **وثالثها**: سأل هارون الرشيد مالكا عن ذلك؛ فاستدل باختلاف الأصوات، وتردد النغمات، وتفاوت اللغات. **ورابعها**: سئل أبو نواس عنه، فقال: (تأمل في نبات الأرض وانظر.. إلى آثار ما صنع المليك. عيون من لجين شاخصات.. وأزهارك ما الذهب السبيك. على قضب الزبرجد شاهدات.. بأن الله ليس له شريك). **وخامسها**: سئل أعرابي عن الدليل فقال: البعرة تدل على البعير، والروث على الحمير، وآثار الأقدام على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أما تدل على الصانع الحليم العليم القدير؟ **وسادسها**: قيل لطبيب: بم عرفت ربك؟ قال: عرفته بنحلة بأحد طرفيها تعسل، والآخر تلسع! والعسل مقلوب اللسع " . تفسير الرازي: 333/2 وما بعدها بتصرف. **أما تخريج الأبيات** فجاءت مع اختلاف في كلمة (أزهار)؛ إذ ذكر مكانها: (أحداق). ينظر أحسن ما سمعت، لأبي منصور الثعالبي: صـ10. أو (أبصار). ينظر اللطائف والظرائف، لأبي منصور الثعالبي: صـ 205.

ونخلص من ذلك إلى أن كل ما هو داخل في ظرف الزمان وحيز المكان، المفهومان من (العصر)، بمعنى: الدهر، يستحيل أن يكون إلها، بل هو مربوب داخل مربوبات متعددة، مقيد بأحوال متعاقبة، مظروف في ظروفٍ ذات ملابسات مختلفة، وخطوب متنوعة.

وإذا كان هذا مفهوما في وقت نزول السورة الكريمة، فهو أكثر فهما الآن، وأدق تحقيقا لاسيما في ضوء النهضة العلمية الحديثة، والاكتشافات الأكاديمية المعاصرة.

المحور الثاني: الإعجاز البياني، والذي يتجلى في ضوء بديع التسمية، وإعجاز الإطلاق في كل من (العصر)، و(الإنسان)، ووجه الاستدلال به: أن في مطاوي دلالتهما ما يكشف بدقة منقطعة النظير عن حقيقتهما، ويعرب عن خصائصهما، ويُنَوِّهُ بأحكامهما، ويسجل أحوالهما.. وغير ذلك على ما قد تقرر في مباحثهما. ومما لا شك فيه: أن الإخبار عن الشيء بما هو عليه بتلك الدقة، وذلك الإعجاز، لا يتسَنَّى صدوره إلا عن مبدع ذلك الشيء، وفاطره سبحانه. **كما** يتأكد هذا الإعجاز في ضوء وجوه التناسب ووشيج الصلة بين ركني القسم كذا بديع التناغم الشائع بين مفردات سبكه؛ مما يوحي ببالغ العلم، وكامل المعرفة. ووجه الاستدلال به: أنه لا يَتَأَتَّى تحقيق هذا التناسب المعجز، إلا عن علم وحكمة يكشف في ضوئهما خصائص كلٍ منهما، ويتقرر في ظلالهما أوجه الربط بينهما، ولا يتسَنَّى هذا عقلا إلا من مصدر وجودهما، وتقدير وتدبير المقسِم بهما؛ لما هو مقرر: أن كل صانع أعلم بصنعته، وإليه يوكل قانون صيانتها. **قال الشيخ الشعراوي**: " إن الذي خلق الإنسان هو الذي يضع قانون صيانته المتمثل في: (افعل، ولا تفعل)" [1]. **وخير ما يمثل هذا البعد**: المعنى الكنائي في المقسم به؛ لكونه بينة على المقسم عليه، ووجه الاستدلال به: أن صدق القضية في حيز المقسم عليه، وتقديم برهانها في ظلال المقسم به، إنما ينم عن حكمة إلهية رائقة، وعناية ربانية فائقة. كما أن إطلاق القضايا في النظم المعجز مع اعتبار كونها مبرهنا عليها، فيه دعوة للعباد بالتصديق المحاط بحيثياته، وحَثٌّ على الهدى إلى الحق وفق دعائمه وضمن مقوماته.

المحور الثالث: الإعجاز النفسي، والذي ينطوي عليه أسلوب القسم؛ إذ إن بناء الكلام ابتداء على أسلوب القسم مشعر بتفرق النفوس الإنسانية إزاء قضاياه، ومعلن- أيضا- أنهم سيظلون على هذا التقسيم حتى بعد وروده مقررا حقائقه في ثناياه. وفيه من الاستدلال على البارئ الحكيم سبحانه بمقتضى عمله بما كمن في النفوس، والإخبار عما في خلجاتها، وعما استقر في أعماقها ما لا يخفى. كما أن كل ما في سلك أسلوب القسم، قد أسهم في الكشف عن حال الإنسان، وأفصح عن مكنون نفسه، وكأنه قد غاص في أعماقه، واكتشف خصائصه، وأعرب عن طبائعه، وأظهر أحواله، التي لا يستطيع نفسه إلا الإقرار بحقيقتها، ولا يسعه إلا تأكيد ثبوتها، معلنا ذلك بإجمالٍ في عنوان الإنسان ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾؛ فكان في ذلك برهان على تمام علم خالقه سبحانه به، وإخباره تعالى بما كمن في صنعته، ويدل عليه قوله عز سلطانه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14].

ومن هذا القبيل: التصدير بـ ﴿إِنَّ﴾ الدالة على شخصيته المعرضة، المنبئة عن طبائعه المنكرة. **ومنه**: التعبير بالظرفية ﴿فِي﴾؛ إذ أسهم في الكشف عنه بما فيه من الدلالة على سوء اختيار هذا النوع المتسم بأردأ أحواله. **ومنه**: إيثار الوسم بـ ﴿خُسْرٍ﴾ الدال على سوء فعله، وقبح تحركاته، وترديه في مهواة شهواته، وتعدد جهاته، وتنوع حيثياته، وبرهان على تخبطه.. إلخ. وفي كل ذلك ما يخاطبه بمقتضى ما كمن في نفسه من آثار سلبية، وثبت له من ملامح ظلامية، وجبل عليه من طبائع سفلية، مرتسما مظاهر عجزه عن تحقيق مكاسبه، وضعفه عن إدراك سمو غاياته، وفتوره عن بلوغ سبل حمايته، وضلاله عن طوق نجاته، وبعده عن تحصيل مظان خلاصه.. وعليه فكان من مقتضيات الرحمة الإلهية، وبديع العناية الربانية: أن أمده خالقه الحكيم سبحانه بمنهج قويم، يضمن صلاح حاله، ويقوده إلى فلاح مآله، وها قد ارتسم سبيله، وحدد مساره، فأرسل رسوله عليه الصلاة والسلام؛ ومن ثَمَّ فقيد لذلك السبيل مَنْ يقود، وصدره بِمَنْ يرشد، وحفه بسبل الحماية، ووسائل الوقاية؛ فحري بالإنسان أن يتوجه لخالقه

---

[1] الخواطر: 2131/4.

وبارئه بالامتنان على أن خلقه من عَدم، وأمده من عُدم، وحباه بسبل نجاته، فضمن له صلاحه وفلاحه، حالا ومآلا؛ فيبلغ إثبات مبدأ الوجود الوحدانية مبلغه، وتتقرر خصائص الإلهية، ونعوت الربوبية على آكد وجه وأبلغه!.

ومن ثُمَّةْ فقد تقرر من دراسة لبنات النظم، وعناصر السبك: الإحاطة التامة بحقائق قضاياه، والكشف على أسرار مفرداته، وبيان رسائلها الإلهية المودعة في ثناياه، ضمن لغة عربية مصطفاة. وأنه قد تقسمت تلك الحقائق إلى حقائق مرتبطة بالمقسم به، وما انطوى عليه من مظاهر تدبيرية، وألطاف ربانية، وحقائق متعلقة بالمقسم عليه لاسيما الكشف عن أبعاد كونه إنسانا، وتقرير خسره، وبيان حيثيات ذلك، والاستدلال عيه بآية الزمان، وبرهان المكان، ودلائل أحداثه المنقوشة على صفحاته مخبرة عن أحوال الأنام.. وغير ذلك مما لا يَتَأَتَّى بحال إلا عمن أبدع وسوى، وخلق وهدى، وأحكم وقدر.

المحور الرابع: الإعجاز الغيبي، فقد بني نظم السورة على أسلوب القسم، وقد تقرر تحقيق تسميته بذلك، وكان منها: لما أنه يعلن أثره من انقسام الناس إزاءه، وبيان حالهم قبل وروده، وحالهم بعد الصدع به، وقد تضمن هذا إعجازا غيبيا مستقبليا باعتبار تعلقه بما بعد أسلوب القسم، وبيان أثره ومستتبعاته.

كما أنه قد أخبر عن حركات الناس، وواجههم بمقتضى تلك الحركات معلنا عنهم أحوالا هم معينوها، وملابسات هم ملازموها، وطبائع وصفات هم مقروها حالا ومستقبلا؛ مما يقرر طلاقة علمه تعالى، ويثبت ربوبيته لهم؛ إذ إن الصانع أعلم بصنعته، وأدرى بأسرار خلقه.

هذا، وقد اقتضى النظم أن جنس الإنسان في خسران، إلا القليل من جنود الإسلام، وهذا ما يقرره واقع الأنام، وسيظل دعوة مطلقة إلى أن يرث الأرضَ الملكُ الديانُ.

فكان من الإشارات المنبعثة: أن الكثير سيبقى متسما بأبعاد الإنسان؛ فاقتضى المقام أن يعبر عنه باسم الجنس الذي يُفْهِمُ معنى الجمعية، وأن يكون في جانب المستثنى منه؛ لأنه يمثل الأكثرية.

ومن تلك الإشارات: أن القليل سيكون متبعا منهج الرحمن سبحانه؛ فكان الحال بالتعبير عنه بالموصول أليق؛ لأنه يفتقر إلى جملة الصلة التي تكشف عن إبهامه، وتزيل غموضه؛ مما ينبعث بإشارة سامقة؛ حتى لكأنه في ظل هذا الجمع الكثير من الكافرين، والمعرضين، يصعب تمييزه، ويشق تعيينه؛ فاقتضى المقام وسمه بما في حيز الصلة؛ كشفا عن جميل صفاته، وارتساما لسبيل منهجه، وتمييزا له عمن سواه. كما كان المقام بإيثاره في جانب المستثنى أجدر؛ لأنه يمثل الجزء القليل المقتطع من الأصل الكثير.

ومن هذا القبيل: إعلان خصائص المقسم به، والتي تجلت شيئا فشيئا في أطوار البشرية؛ كلما ترقت في علومها، واكتشفت أسرار ظرفها، لاسيما بيان أنه لا إمكانية للهروب من نطاق هذا الظرف، وأنه لا يستمر على حال، بل دأبه: التغير والانتقال، وأنه قد شاع فيه أبرز مظاهر التدبير، وشئون العناية، وضروب التقدير والرعاية، مما يجعله في نفسه نعمة عظيمة، وآية ربانية بديعة؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: 53]. **ومثله:** إعلان خصائص المقسم عليه، من كونه رغم سوء طبائعه، وظلمات دواخله، قابلا للهداية، مهيئا للاستقامة، وسيخرج من جنسه، ويتخلص من أوهاق أبعاده مَنْ يتحلون بالإيمان، ويعملون الصالحات، ويتواصون بالحق وبالصبر فيما بينهم، وهذا خبر كان له واقع يصدقه، وقضية محفوظة من الخلف، وقد أطلقت في كتاب معجز جاء متحديا خصومه؛ مما يؤكد صدقه، ويقرر إلهية مصدره، ويقطع أعذار مخالفيه، ويقيم الحجة على معانديه!.

المحور الخامس: الإعجاز العلمي، ووجهه أن المقسم به قد تجلت خصائصه من خلال بيانه، وقد تقررت تلك الخصائص في ضوء الاكتشافات العلمية، والحقائق الكونية، والعلوم الفلكية، لاسيما ثبوت حركته الدائمة، وخطوبه المتعاقبة، ودورة حياته المستمرة، كما تجلى أنه ذو بعد دائري، وله بداية مقررة، ونهاية محتمة؛ إذ إنه إلى انتقاص يؤدي إلى زوال، كما تأكد أن به أحداثا عظيمة، وخطوبا جسيمة لا يقدر على إيجادها، والتحكم بها، إلا إله قادر مريد عليم خبير، ورب حكيم مدبر منان كريم!.

المحور السادس: الإعجاز التشريعي، ووجه الاستدلال به: أنه يقتضي التنويه بالإله سبحانه، الذي قد تظاهرت براهين إثبات وجوده وآيات وحدانيته، وجلال نعوته، وجمال صفاته، كما يقتضي حمل النفوس على اتباع منهجه، واقتفاء هداه؛ إذ قد تقرر أنه جَلَّ جلاله خلق عباده من عَدم، وأمدهم من عُدم، فلم يتركهم هملا لا ماديا ولا معنويا؛ بل قد هيئ لهم ظرفا، له من الخصائص والأعراض ما تستقيم به حياتهم، وبه من المظاهر والأحوال ما تَتَأَتَّى فيه حركاتهم؛ مما يقرر العناية بهم حالا في دنياهم. كما ابتعث من أجلهم الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام؛ لهدايتهم إلى الصراط المستقيم، وتخليصهم من ضلالات نفوسهم إلى إشراقات منهج ربهم الحكيم؛ مما يقرر العناية بهم مآلا.

وفي هذا المناسبة قال العلامة أبو السعود: " فيه تنبيه على الاستدلال على وجوده تعالى، ووحدته، وعلمه، وقدرته، وحكمته بآثار صنعه، وبيان لبعض أفراد التدبير الذي أشير إليه إشارة إجمالية، وإرشاد إلى أنه حيث دبرت أمورهم المتعلقة بمعاشهم هذا التدبير البديع؛ فلأن يدبر مصالحهم المتعلقة بالمعاد، بإرسال الرسول عليه الصلاة والسلام، وإنزال الكتاب، وتبيين طرائق الهدى، وتعيين مهاوي الردى أولى وأحرى " [1].

قلت: ومن ثَمَّ فلم يقف أمر الاستدلال عند حدود المقسم به والمقسم عليه فحسب، بل تعداهما ليبلغ بآثاره إلى تتمة القسم، والذي يدل على ترق منهجي، وفق إعجاز تشريعي؛ إذ عُنِيَ المقام أولا بتخليص الإنسان من أوهاقه، ثم أرشده إلى محل إشراقه، معتمدا تقديم مبدأ التخلية على التحلية [2]، ومراعيا البدء بحيثية درء المفاسد على حيثية جلب المصالح [3]؛ لكونه الترتيب العقلي المثمر؛ إذ الحال يقتضي أولا تخليصهم من مفاسدهم، ثم تحليتهم بأنوار هدايتهم. وكأن القسم بركنيه بعد أن قرر قضيته، وأقام الأدلة على صحة دعوته؛ قد حرَّرَ النفوس من سجن ضلالها، ومَهَّدها لقبول الحق من ربها، فاستشرفت للمنهج الذي يعقبه؛ فيرد على موقع استشراف وتشوق؛ فيتمكن حينئذ فضل تمكن، ويستقر في أعماقها أبدع استقرار، لاسيما وقد ورد المنهج في سلك الاستثناء، الذي يصور عملية الإخراج والتخليص، من واقع أليم إلى منهج قويم. فتأتي القضايا الأربع في نظمه مكملة وظيفة القسم، متممة دوره، قائمة بتحقق كامل رسالته؛ ومن ثَمَّ فيبلغ الإعداد الإلهي، والمنهج الرباني مبلغه، وتتقرر مظاهر التهذيب، وملامح التقويم للبشرية على آكد وجه وأبلغه!.

ومن الإعجاز التشريعي: أن الإيمان والعمل الصالح يلخصان مطلوب الرسالة المحمدية، ويسهمان في التعريف بحقيقتها، والتنويه بدعائمها، ولا شك أن تلك الدعائم من حيث ذاتها تعد غاية منشودة، وركيزة مرغوبة. ثم يأتي التواصي بالحق والتواصي بالصبر مقررين أن الإسلام لا يعرف شعار الأنانية، ولا يقر مبدأ الذاتية، بل يجب أن يتعدى أثر الفرد فيه إلى مجتمعه، ويصل بخيره إلى سائر أفراد جنسه، ولا يكتفي بالسمو لنفسه، والخلاص لذاته، وفي ذلك من تقرير علياء الآداب، وارتسام سمو الأخلاق، وتأكيد عوامل إنجاح المجتمع، وارتسام مقوماته، والإشادة بخصائصه، ما لا يخفى!.

وإذا ثبت أن متعلق الاستثناء الخير العميم، وتقرر أن مبناه النفع الغزير؛ فيتجلى إلهية المنهج القويم، ضمن دعائم ثابتة، وأصول إيمانية مقررة، ومبادئ حكيمة معلنة، وهي تنم بتكاملها وسموها عن منهج إله حكيم، وتشير إلى أن مبدأه من رب مدبر كريم؛ إذ لا يسع العقول الإنسانية على مار كب فيها من عوامل ترديها، ونقائص جبلاتها، والركون إلى أهوائها، على ما قرره بعد الإنسان عنها– لا يسعها أن تصل إلى منهجٍ، هذه خصائصه، وتلك دعائمه، ومقوماته.

كما أنه منهج من شأنه الحفاظ على الإنسان حال حياته، وحمايته بعد مماته، فهو يتعلق به حالا ومآلا. لذا كان الإيمان وما في سلكه من أعمال يرشد إلى دار الحق، ويقود لا محالة إلى صحة البعث؛ ليَتَأَتَّى للمرء أن يرى ثمرة عمله، ويجازى على مقتضى فعله، وبموجب اختياراته، وإلا لتساوى الكافر مع المؤمن، والصالح مع الصالح، والباطل مع الحق، والركون إلى الأهواء والوقوع في الشهوات مع الثبات على الطاعة وحبس النفس عن ملذاتها، ولا يقول بذلك العقلاء، لاسيما وقد تأكدت حقيقة الإلهية

---

[1] إرشاد العقل السليم: 120/4 بتصرف.

[2] ينظر فصول البدائع في أصول الشرائع، لشمس الدين الفناري: 423/2.

[3] ينظر: الموافقات، للشاطبي: 465/3. و (446/6). غاية الوصول في شرح لب الأصول، لأبي يحيى زكيا السنيكي: صـ 131.

ومظاهر صفاتها الجميلة، وتقررت خصائص الربوبية وأبعاد نعوتها الجميلة، بما لا يسع المخاطبين إنكاره، ولا تغيب عن العقول حقيقته وأسراره. وعليه فالبعث من المسلمات في ضوء هذه المقررات، ومن اليقينيات في ظلال تلك الحقائق والتقريرات.

ذلك، وجدير بالذكر: أن كلمة ﴿الْحَقِّ﴾ قد لخصت حقيقة الرسالة المحمدية؛ فأكدت أن متعلق الوصية المذكورَ في كتابه سبحانه، المبَلَّغ عن طريق رسوله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، هو الشيء: الثابت الحكم، الواجب التصديق، الصحيح الصادق، الموجود بحسب ما تقتضيه الحكمة، المطابق للواقع، الموافق له، القائم على العلم والمعرفة، الذي لا يفتقر في وجوده إلى غيره، المحسوس، اللازم، المسبوق بالعلم الذي لا يسوغ إنكاره، القائم على وضوحه الآيات والأدلة، البالغ الغاية، المتناهي الكمال، الغني عن التعريف، الأشد استحقاقًا للقبول، الواقع على الوجه الأمثل بلا شك، المتيقن، المؤكد، المحكم، الشديد، الرصين، الغالب حججه، الذي أظهر التمويه في غيره، الواضح الذي لا يحتاج إلى اكتساب وطلب، النافع لغيره، والدافع للضر عنه، وما استحق أن يحمل عليه، وما يجب حمايته [1]؛ فتجلى من تا المعاني إثبات التوحيد، وتصديق الرسالة، وتقرير البعث بما لا غاية وراءه؛ ومن ثُمَّتْ فكان هو الأظهر في إقامة الحجة على المعاندين، والأقطع لمعذرة المكذبين. كما بينت أن متعلق الوصية حمل في طياته: البعث، والجنة، والنار، وثواب المطيع، وعقاب العاصي.. وغيرها، فهي من الحقائق المقررة، والمسلمات الثابتة. فكان هذا الوصف هو الأكثر إسهامًا في تحقيق المراد، والأدخل في إثبات التوحيد، وتقرير البعث؛ لما يحمل في طياته من معانٍ تعجز أي مفردة أخرى عن أدائها. كما أسهم في بيان واجب الإنسان تجاهه من وجوب الإيمان والتصديق، والحمل على اتباعه، والعمل على حمايته، والحرص عليه، ومنعته. كما أنه هو الأكثر إسهاما في التحريض على الإيمان، والحث على الإذعان؛ لما حمله في طياته من معاني: الوسطية، والكمال، وكونه من مقتضيات الحكمة، موافقا العقل والفطرة، فضلًا عن تقرر نفعه، وتحقق فلاح متبعيه؛ ومن ثَمَّ هو الجدير بالإيمان، الخليق بالإذعان [2].

كما حمل الدلالة على صدق الرسالة، وإثبات الوحي بما لا يَتَأَتَّى لأحد إنكاره؛ إذ تأكد من خلاله تقرير مبدأ التوحيد الذي جاء به الوحي، وابتعثت من أجله الرسالة، لاسيما إذا ما أسند إليه كل مطاوي الحق؛ فيظهر التوحيد في أبهى صوره، وتبلغ مقتضياته أوج تحققها. **وفي هذا الصدد قال الأزهري**: " الْحق: صِدق الحَدِيث، والحقّ: الْمِلكُ: وَالْحق: الْيَقِين بعد الشَّك. وَيُقَال: أحققت الْأَمر إحقاقا؛ إذا أحكمته، وصححته " [3]. **وقال الإمام طنطاوي في غير موضع**: " المراد بالحق: الصدق، والوفاء بما وعدكم به على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام " [4].

وقال الزمخشري: " هو البعث والجزاء " [5]. **وقيل**: " الحق، أي: الأمر الصحيح الثابت الصادر من مالكه، وهو الذي يجازي عليه بالثواب، وعلى مخالفته بالعقاب. كما أنه في ذاته نفع لا ضرر فيه، وخير لا شر فيه؛ فكان عليكم أن تطيعوه، ولا تخرجوا عليه " [6]. " فيبين أن الإنسان نفسه ضال، قابل للباطل، معاند للحق " [7].

قلت: ومما سبق يتقرر مبدأ الوحي، وصدق الرسالة؛ فتقوم الحجة، وتنقطع الأعذار عند الله سبحانه، وكل هذا إثبات للتوحيد، وتقرير للبعث، وتحذير من مغبة الكفر والعصيان، وترغيب في الطاعة والإيمان، وتدارك لما صدر من جنس الإنسان قبل فوات الأوان. كما أكَّد هذا الوصف أن البعث وما يعقبه من حساب، وجنة، ونار.. واجب الوقوع، ثابت الحكم، جاد النزول،

---

[1] ينظر الأصل (حَقَّ) في المصار التالية: العين: 6/3 وما بعدها. تهذيب اللغة: 241/3- 246. مقاييس اللغة: 15/2- 19. المحكم والمحيط الأعظم: 472/2- 477.

[2] ينظر أسلوب الاحتباك في القرآن الكريم: صـ 485- 493.

[3] تهذيب اللغة (حق): 246/3.

[4] التفسير الوسيط: 545/7.

[5] الكشاف: 550/2. وينطر: مفاتيح الغيب: 85/19. أنوار التنزيل: 197/3. مدارك التنزيل: 170/2. حاشية زاده: 158/5.

[6] زهرة التفاسير: 4016/8 بتصرف يسير.

[7] الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور: 380/4 بتصرف يسير.

متحقق الانكشاف، متيقن الظهور، وهو بمثابة الداهية لمنكريه، البالغ شدته عليهم، القائم على مخاصمتهم، وقصم ظهورهم بحججه البالغة الكمال، المتناهية الظهور؛ فيتم التعريض بالمشركين، وتحذيرهم على أنكى وجه؛ إذ قد بلغ التهديد والوعيد الغاية القاصية؛ بما حمله- وصف الحق- من معاني: القوة، والشدة، والصلابة، والافتضاح، والإحداق، والإحاطة بما قدموا من خير وشر؛ فلا مهرب منه، ولا مناص عنه، كما أعلمهم أنهم قريبو العهد به. ومما يؤكد وقوعه: أنه من مقتضيات الحكمة الإلهية، ومتطلبات الحزم الرباني؛ فيقع الإنذار والتحذير مبلغه، ويتأكد الترغيب في الطاعة والإيمان، والترهيب من الكفر والعصيان على آكد وجه وأبلغه!.

وختاما أقول: إنه قد تجلى وشيج المناسبة بين أسلوب القسم، وبين القضايا التي تُعْنَى السورة بإثباتها، وتأكد أن هذه السورة على قصرها قد جمعت من القضايا والأحكام ما به تسعد الأنام، وتنجو من النيران، وتظفر برحمة الرحيم الرحمن، كما أنها قد نظمت من فنون البلاغة أوسعها، ومن بديع صناعة الكلام أجذبها، ومن ضروب البيان أسماها؛ فيبلغ سمو نظمها غاية الغايات القاصية، ويسمو إعجاز بيانها إلى نهاية النهايات النائية؛ فلله دَرُّ القرآن، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من الحكيم المنان!.

الخاتمة

الحمد لله الَّذي أنزل على عبده الكتاب؛ تبصرة لأولِي الألباب، وَأَوْدَعَهُ من فنون العلوم والمعارف والحكم العجب العجاب، وجعله أجلَّ الكتب قدرًا، وأغزرها علمًا، وأعذبها نظمًا، وأفصحها بيانا، وأبلغها خطابًا، وأشهد أن لا إله إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريك له رَبُّ الأرباب، مَنْ عنت لقيوميته الوجوه، وخضعت لعظمته الرقاب. وأشهد أن سيدنا مُحَمَّدًا عبده ورسوله، أفضل الخلق بالحقيقة لا المجاز، وأعلمهم بأسرار الكتاب، وحقيقة الإعجاز. صلى الله على أتم برته خيرا وفضلا، وأطيبهم أصلا وفرعا، وعلى آله الكرام، وصحبه الأئمة الأعلام، الذين عرفوا مقاصد التنزيل؛ فحصّلوه، وأسسوا قواعده، وفصّلوه، وعلى مَنِ اقتفى أثرهم، صَلَاةً وَسَلَامًا دَائِمَيْنِ، ترفع منار قائلها، وترسل عليه سحائب المغفرة بوابلها!.

وبعد، فيمكن بعد حمد الله جل جلاله، وتوفيقه، إيجاز أهم نتائج البحث في النقاط التالية:

1 – أن البحث قَرَّرَ وجه تحقيق تسمية أسلوب القسم، وتأكد أن تسميته من بليغ البيان بمقام، ومن الإعجاز بمنزل لا يرام؛ لأن مدلولات مادته قد كشفت عن حقيقته، وأوحت بخصائصه، وارتسمت ضروبه، وصرحت بتعدد أركانه، وأبرزت ملامحه الأسلوبية، وأنبأت عن بواعث وروده، وأشعرت بتمكن لبناته، وقررت بلاغته، ونَوَّهَتْ بمكانته، وأشادت بمتعلقاته، ورغبت في العمل بمواجبه، والإذعان لمقتضاه، وأعربت عن وظائفه السياقية، وآذنت بدواعيه المقامية، وسلحت بإمكانية دراسته، وأشارت إلى سبيل اكتشاف أسراره.. إلخ.

2 – أنه قد بَيَّنَ القضايا التي تستهدف سورة (العصر) تقريرها إجمالا، وأقام البراهين في سبيل الاستدلال عليها .

3 – أنه قد عُنِيَ بتأصيل معنى العصر في ضوء لغته واستعمالات لسانه، كاشفا عن حيثيات القسم به، مقررا إعجازه.

4 – أنه قد كشف عن أسرار تمكن المقسم به في نظم السورة الكريمة، وحيثيات إيثاره دون سواه.

5 – أنه قد أظهر بديع المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه في نظم السورة.

6 – أنه قد أكد أن لبنات الصرح القرآني في نظم أسلوب القسم قد بلغت في تمكنها الغاية، وفي استحكامها نظما وبلاغتها حالا ذروة النهاية.

7 – أنه قد أظهر وشيج المناسبة بين أسلوب القسم، وبين القضايا التي تُعْنَى السورة بإثباتها.

8 – أنه قد ارتسم آليات التفسير المعتمدة، وضوابطه المحققة، وأصوله المقررة، والسبيل المعتمد في الكشف عن أسرار الكلم القرآني، وبلوغ حيثيات إعجازه البياني.

9 – أنه قد تبين من خلاله النواحي التي يجب أن تدرس المفردة القرآنية في ضوئها؛ لإثبات إعجازها.

10 – أنه قد خلص إلى أن أسباب اختيار المفردة في نظمها ترجع في مجملها إلى سعة معان استقلت بها، وثراء استعمالات تحققت لها، وعمق دلالات انفردت بها، وفيض مكنونات ابتعثتها، وكثرة إيحاءات اكتنفتها، وتعدد إشارات لازمتها، وظلال مطاوي استصحبتها.. وغير ذلك من حيثيات كلها من مقتضيات الحال، ومستدعيات المقام، قد توفرت لها دون غيرها مما هو قريب منها في بابها؛ فجعلتها فارسة تجول في ساحة النظم بوجه لا يجارى، وتجوب ميدانه بنمط لا يبارى، متقلدة بسيف الحجة، والبرهان، تجادل بفصيح القول، وبليغ الكلام؛ فيتأكد بليغ إعجازها، ويتقرر إلهية نظمها.

11 – أنه قد أثبت أن اللغة العربية قد اصطفاها الله عَزَّ وجَلَّ؛ لتكون لسان التنزيل السماوي؛ لما توفر لها من الخصائص الذاتية، والسمات الدلالية، ما لم يتحقق لسواها على تنوع الألسنة، وتعدد اللغات البشرية.

أبرز التوصيات: بعد معايشتي لهذا البحث والذي أسأل الله جَلَّ جلاله: أن يتقبله، وأن ينفعني به، وينفع قارئه، وكل ناظر فيه، ومستفيد منه، وكل مَنْ أسهم في إخراجه، أو أعانني عليه بدعاء، أو نصح، أو توجيه، وأن يَمُنَّ علينا بفضله؛ فيعلمنا ما ينفعنا، وينفعنا بما علمنا – بعد هذا فقد انبثق منه عدة أبحاث، وعصر عنه بعض الدراسات، أردت توجيه أنظار الدارسين إليها، ويمكن اختصارها في **ثلاثة محاور**.

أولا: الدراسات التحليلية: ومن أمثلتها:

1- المفردة القرآنية في نظم أسلوب الشرط. 2- أثر النظم البياني في التعبير بالخسر في السياق القرآني. 3- المفردة القرآنية في نظم أسلوب التأكيد. 4- حروف المعاني في الأسلوب القرآني. 5- أثر السياق القرآني في إيثار التعبير بالوصية. 6- صيغة المفاعلة ودورها في النظم القرآني.

ثانيا: الدراسات الموضوعية: ومن أمثلتها:

1- التعبير بالنقص في السياق القرآني (حقيقته، وأسراره). 2- ألفاظ الزمان وأثرها في نظم القرآن. 3- مطلوبات الإيمان في نظم القرآن.

ثالثا: الدراسات التطبيقية: ومن أمثلتها:

1- الإعجاز الصوتي في المفردة القرآنية. 2- المقطع الصوتي في المفردة القرآنية، وأثره التفسيري. 3- الدلالة النحوية وأثرها في المفردة القرآنية. 4- صور التناسب بين العامل والمعمول، وأثره في النظم القرآني. 5- العلاقة بين معنى المفردة وبين طبيعتها التأليفية، وأثرها التفسيري.

هذا، وبعد عرض أهم نتائج البحث، وأبرز توصياته، أسأل الله عز وجَلَّ: أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، ويجنبنا الزلل، ويعصمنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن. وصلى الله، وسلم، وبارك، على سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه، ومَنْ تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. **وآخر دعوانا: أن الحمد لله رب العالمين.**

فهرس المصادر والمراجع

أولا: المصدر الأساس: القرآن الكريم، قدمته؛ لكونه مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، ولب الفنون ومعتمدها، وأساس أسمى المعارف، وواسطة عقدها.

ثانيا: المصادر والمراجع المطبوعة [1].

---

[1] **وهي مرتبة ترتيب ألفبائي على النحو التالي:**

1. **إبداع** الدلالة في الشعر الجاهلي، مدخل لغوي أسلوبي، لـ د/ محمد العبد، دار الهاني.

2. **الإتقان** في علوم القرآن، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: 1394هـ- 1974م.

3. **أحسن** ما سمعت، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبي منصور الثعالبي (ت: 429هـ)، وضع حواشيه: خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى: 1421هـ- 2000م.

4. **أحكام** القرآن، للقاضي محمد بن عبد الله أبي بكر بن العربي المعافري الإشبيلي المالكي (ت: 543هـ)، راجع أصوله، وخرج أحاديثه، وعلّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الثالثة: 1424هـ - 2003م.

5. **الإحكام** شرح أصول الأحكام، لعبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي القحطاني الحنبلي (ت: 1392هـ)، ط/2: 1406هـ.

6. **الإحكام** في أصول الأحكام، لأبي الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي (ت:631هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، (بيروت- دمشق- لبنان).

7. **الاختيارين**، لعلي بن سليمان بن الفضل أبي المحاسن، المعروف بالأخفش الأصغر (ت:315هـ)، المحقق: فخر الدين قباوة، دار الفكر المعاصر، (بيروت- لبنان)، دار الفكر، (دمشق- سورية)، الطبعة: الأولى: 1420هـ- 1999م.

8. **أدب** الكاتب= أدب الكتّاب، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ)، المحقق: محمد الدالي، مؤسسة الرسالة.

9. **إرشاد** الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري أبي العباس شهاب الدين (ت: 923هـ)، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، 1323هـ.

10. **أساس** البلاغة، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: 538هـ)، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة الأولى: 1419هـ- 1998م.

11. **أسرار** العربية، لعبد الرحمن بن محمد بن عبيد الله الأنصاري، أبي البركات، كمال الدين الأنباري (ت: 577هـ)، دار الأرقم بن أبي الأرقم، الطبعة الأولى: 1420هـ- 1999م.

12. **أسلوب** الاحتباك في القرآن الكريم "دراسة تفسيرية تحليلية"، رسالة قدمت، لنيل درجة التخصص (الماجستير) في شعبة أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بـ(القاهرة)، للدكتورة/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد، المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ، للعام: 2016م.

13. **أشتات** مجتمعات في اللغة والأدب، لـ أ/ عباس محمود العقاد، دار المعارف، الطبعة: السادسة.

14. **الأصوات** اللغوية، للأستاذ الدكتور/ إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصرية.

15. **الأصول** في النحو، لأبي بكر محمد بن السري بن سهل النحوي المعروف بابن السراج (ت: 316هـ)، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، (لبنان، بيروت).

16. **أضواء** البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (ت:1393هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، (بيروت، لبنان)، عام: 1415هـ- 1995م.

17. **الإعجاز** البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، لـ د/ عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت: 1419هـ)، دار المعارف، الطبعة: الثالثة.

18. **الأعلام**، لخير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (ت: 1396هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الخامسة عشر، أيار- مايو: 2002م.

19. **ألفية** ابن مالك في النحو والصرف، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الأندلسي، (ت:672هـ)، دار السلام، ط/6: 1432هـ- 2011م.

20. **أمالي** ابن سمعون الواعظ، لأبي الحسين محمد بن أحمد بن إسماعيل بن عنبس البغدادي (ت: 387هـ)، دراسة تحقيق: د/ عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلامية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى: 1423هـ- 2002م.

21. **أمالي** ابن الشجري اللغوية بالحواشي، لضياء الدين أبي السعادات هبة الله علي بن حمزة، المعروف بابن الشجري (ت:542هـ)، المحقق: محمود محمد الطناجي، مكتبة الخانجي- (القاهرة)، الطبعة الأولى، 1413هـ.

22. **أمالي** القالي= شذور الأمالي= النوادر، لأبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد بن سلمان (ت: 356هـ)، عني بوضعها وترتيبها: محمد عبد الجواد الأصمعي، دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية: 1344هـ- 1926م.

23. **أمالي** اليزيدي، لأبي عبد الله محمد بن العباس بن محمد بن أبي محمد بن المبارك اليزيدي (ت: 310هـ)، مطبعة جمعية دائرة المعارف، حيدر آباد الدكن- (الهند)، الطبعة: الأولى: 1397هـ- 1938م.

24. **الأمثال**، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت: 224هـ)، المحقق: د/ عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث، الطبعة: الأولى: 1400هـ-1980م.

25. **أنوار** التنزيل وأسرار التأويل، لناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت:685هـ)، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي- (بيروت)، ط/1: 1418هـ.

26. **إيجاز** البيان عن معاني القرآن، لمحمود بن أبي الحسن بن الحسين النيسابوري أبي القاسم، نجم الدين (ت: نحو 550هـ)، المحقق: د/ حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي- (بيروت)، الطبعة: الأولى: 1415هـ.

27. **أيسر** التفاسير لكلام العلي الكبير، لجابر بن موسى بن عبد القادر بن جابر أبي بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الخامسة، 1424هـ- 2003م.

28. **الإيضاح** في علوم البلاغة، لمحمد بن عبد الرحمن بن عمر أبي المعالي، جلال الدين القزويني الشافعي، المعروف بخطيب دمشق (ت: 739هـ)، المحقق: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل- (بيروت)، الطبعة: الثالثة.

29. **باهر** البرهان في معاني مشكلات القرآن، لمحمود بن أبي الحسن علي بن الحسين النيسابوري الغزنوي، أبي القاسم، الشهير بـ (بيان الحق) (ت: بعد 553هـ)، المحقق (رسالة علمية): سعاد بنت صالح بن سعيد بابقي، جامعة أم القرى- (مكة المكرمة)، عام النشر: 1419هـ- 1998م.

30. **البحر** المحيط في التفسير، لأبي حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت:745هـ)، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر- (بيروت)، الطبعة: 1420هـ.

31. **البحر** المديد في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (ت: 1224هـ)، المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، د/ حسن عباس زكي- (القاهرة)، الطبعة: 1419هـ.

32. **بدائع** الفوائد، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، دار الكتاب العربي، (بيروت).

33. **البدر** المنير في تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في الشرح الكبير، لابن الملقن سراج الدين أبي حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (ت: 804هـ)، المحقق: مصطفى أبو الغيط، وعبد الله بن سليمان، وياسر بن كمال، دار الهجرة للنشر والتوزيع، (الرياض- السعودية)، الطبعة: الأولى، 1425هـ- 2004م.

34. **البرهان** في علوم القرآن، لأبي عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: 794هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، الطبعة: الأولى: 1376هـ- 1957م.

35. **بغية** الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبد المتعال الصعيدي (ت: 1391هـ)، مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: 1426هـ-2005م.

36. **البلاغة** العربية، لعبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (ت: 1425هـ)، دار القلم، (دمشق)، الدار الشامية، (بيروت)، الطبعة: الأولى، 1416هـ- 1996م.

37. **بلاغة** الكلمة في التعبير القرآني، لـ أ.د/ فاضل صالح السامرائي، الناشر: دار عمار، الطبعة: السابعة.

38. **تاج** العروس من جواهر القاموس، لمحمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبي الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: 1205هـ)، تحقيق مجموعة من المحققين، دار الهداية.

39. **تاريخ** المدينة لابن شبة، لعمر بن شبة (واسمه زيد) بن عبيدة بن ريطة النميري البصري، أبي زيد (ت: 262هـ)، حققه: فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة: السيد حبيب محمود أحمد- (جدة)، عام النشر: 1399هـ.

40. **تأويلات** أهل السنة= تفسير الماتريدي، لمحمد بن محمد بن محمود، أبي منصور الماتريدي (ت: 333هـ)، تحقيق د/ مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، (بيروت، لبنان)، ط/1: 1426هـ- 2005م.

41. **التجريد** لنفع العبيد= حاشية البجيرمي على شرح المنهج (منهج الطلاب اختصره زكريا الأنصاري من منهاج الطالبين للنووي، ثم شرحه في شرح منهج الطلاب)، لسليمان بن محمد بن عمر البُجَيْرَميّ المصري الشافعي (ت: 1221هـ)، مطبعة الحلبي، تاريخ النشر: 1369هـ- 1950م.

42. **التحرير** والتنوير= تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، لمحمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، الدار التونسية للنشر– (تونس)، سنة النشر: 1984هـ.

43. **تحفة** الأحوذي بشرح جامع الترمذي، لأبي العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت: 1353هـ)، دار الكتب العلمية– (بيروت).

44. **تفسير** ابن أبي حاتم= تفسير القرآن العظيم، لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي بن أبي حاتم (ت: 327هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز- المملكة العربية السعودية، ط/3: 1419هـ.

45. **تفسير** ابن جزي= التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، بن جزي الكلبي الغرناطي (ت: 741هـ)، تحقيق د/ عبد الله الخالدي، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم– (بيروت)، ط/1: 1416هـ.

46. **تفسير** ابن زمنين= تفسير القرآن العزيز، لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (ت: 399هـ)، المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، محمد بن مصطفى الكنز، دار الفاروق الحديثة، (مصر- القاهرة)، الطبعة: الأولى، 1423هـ - 2002م.

47. **تفسير** ابن عرفة، لمحمد بن محمد بن عرفة الورغمي التونسي المالكي، أبي عبد الله (ت: 803هـ)، المحقق: جلال الأسيوطي، دار الكتب العلمية، (بيروت– لبنان)، الطبعة: الأولى، 2008م.

48. **تفسير** ابن عطية= المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: 542هـ)، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية– (بيروت)، ط/1، 1422هـ.

49. **تفسير** ابن فورك من أول سورة المؤمنون حتى آخر سورة السجدة، لمحمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبي بكر (ت: 406هـ)، دراسة وتحقيق: علال عبد القادر بندويش (ماجستير)، جامعة أم القرى- المملكة العربية السعودية، ط/1: 1430هـ- 2009م.

50. **تفسير** ابن كثير= تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت:774هـ)، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/2: 1420هـ- 1999م.

51. **تفسير** أبي السعود= إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، لأبي السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: 982هـ)، دار إحياء التراث العربي، (بيروت).

52. **تفسير** الألوسي= روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ)، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية– (بيروت)، ط/1: 1415هـ.

53. **تفسير** الآيات الكونية في القرآن الكريم، لـ أ.د/ زغلول النجار، مكتبة الشروق الدولية، ط/ 1: 1428هـ- 2007م.

54. **تفسير** الإيجي= جامع البيان في تفسير القرآن، لمحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإيجي الشافعيّ (ت: 905هـ)، دار الكتب العلمية– (بيروت)، ط/1: 1424هـ- 2004م.

55. **تفسير** البغوي= معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة، أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي (ت: 510هـ)، تحقيق محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/4: 1417هـ.

56. **التفسير** البياني للقرآن الكريم، لـ د/ عائشة محمد علي عبد الرحمن، المعروفة ببنت الشاطئ (ت: 1419هـ)، دار المعارف- (القاهرة)، ط/7.

57. **تفسير** الثعالبي= الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت:875هـ)، تحقيق: محمد علي معوض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي، (بيروت)، ط/1: 1418هـ.

58. **التفسير** الحديث، لدروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية- (القاهرة)، الطبعة: 1383هـ.

59. **تفسير** الرازي= التفسير الكبير= مفاتيح الغيب، لأبي عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: 606هـ)، دار إحياء التراث العربي– (بيروت)، ط/3: 1420هـ.

60. **تفسير** السعدي= تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (ت: 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى: 1420هـ- 2000م.

61. **تفسير** السمر قندي= بحر العلوم، لأبي الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (ت: 373هـ)، بدون.

62. **تفسير** الشعراوي= الخواطر، للشيخ محمد متولي الشعراوي (ت: 1418هـ)، مطابع أخبار اليوم.

63. **تفسير** الطبري= جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لمحمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبي جعفر الطبري (ت:310هـ)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/1: 1420هـ- 2000م.

64. **تفسير** العز بن عبد السلام= تفسير القرآن (وهو اختصار لتفسير الماوردي)، لأبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (ت: 660هـ)، المحقق: د/ عبد الله بن إبراهيم الوهبي، دار ابن حزم- (بيروت)، الطبعة: الأولى، 1416هـ- 1996م.

65. **التفسير** القرآني للقرآن، لعبد الكريم يونس الخطيب (ت: بعد 1390هـ)، دار الفكر العربي، (القاهرة).

66. **تفسير** القرطبي= الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: 671هـ)، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، ط/2: 1384هـ.

67. **تفسير** الماوردي= النكت والعيون، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت:450هـ)، تحقيق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، (بيروت، لبنان).

68. **تفسير** المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي (ت: 1371هـ)، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بـ(مصر)، ط/1: 1365هـ- 1946م.

69. **التفسير** المظهري، للمظهري، محمد ثناء الله، تحقيق غلام نبي التونسي، مكتبة الرشدية، (الباكستان)، الطبعة: 1412هـ.

70. **تفسير** المنار= تفسير القرآن الحكيم، لمحمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (ت: 1354هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة النشر: 1990م.

71. **التفسير** المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، لـ أ.د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر– (دمشق)، الطبعة: الثانية: 1418هـ.

72. **تفسير** النسفي= مدارك التنزيل وحقائق التأويل، لأبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (ت: 710هـ)، تحقيق: يوسف علي بديوي، راجعه، وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، (بيروت)، ط/1: 1419هـ- 1998م.

73. **تفسير** الواحدي= الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: 468هـ)، تحقيق وتعليق: الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ/ علي محمد معوض، د/ أحمد محمد صيرة، د/ أحمد عبد الغني الجمل، د/ عبد الرحمن عويس، قدمه وقرظه: أ.د/ عبد الحي الفرماوي، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، ط/1: 1415هـ- 1994م.

74. **التفسير** الواضح، للحجازي، محمد محمود، دار الجيل الجديد- (بيروت)، الطبعة: العاشرة: 1413هـ.

75. **التفسير** الوسيط للقرآن الكريم، للإمام الأكبر شيخ الأزهر/ محمد سيد طنطاوي، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة- (القاهرة)، ط/1، تاريخ النشر: أجزاء 1-3: يناير 1997م، جزء4: يوليو 1997م، جزء5: يونيو 1997م، أجزاء 6-7: يناير 1998م، أجزاء 8-14: فبراير 1998م، جزء 15: مارس 1998م.

76. **تفسير** جزء (عم)، لمحمد بن صالح بن محمد العثيمين (ت: 1421هـ)، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر والتوزيع، (الرياض)، الطبعة: الثانية، 1423هـ- 2002م.

77. **تفسير** عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: 211هـ)، دراسة وتحقيق: د/ محمود محمد عبده، دار الكتب العلمية- (بيروت)، الطبعة: الأولى، سنة 1419هـ.

78. **تفسير** مقاتل بن سليمان، لأبي الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخي (ت: 150هـ)، المحقق: عبد الله محمود شحاته، دار إحياء التراث- (بيروت)، الطبعة: الأولى: 1423هـ.

79. **تفسير** يحيى بن سلام، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت: 200هـ)، تقديم وتحقيق: د/ هند شلبي، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى، 1425هـ- 2004م.

80. **تكملة** المعاجم العربية، لـ رينهارت بيتر آن دُوزِي (ت: 1300هـ)، نقله إلى العربية، وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، وجمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، الطبعة: الأولى: 1979- 2000م.

81. **تهذيب** اللغة، لمحمد بن أحمد بن الأزهري الهروي أبي منصور (ت: 370هـ)، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي- (بيروت)، ط/1: 2001م.

82. **التوضيح** في حل غوامض التنقيح، لصدر الشريعة الأصغر عبيد الله بن مسعود المحبوبي البخاري الحنفي (ت: 743هـ)، وهو متن بأعلى الصفحة يليه شرحه التلويح للتفتازاني، مكتبة صبيح- مصر.

83. **تيسير** العلام شرح عمدة الأحكام، لأبي عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح بن حمد بن محمد بن حمد البسام (ت: 1423هـ)، حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وصنع فهارسه: محمد صبحي بن حسن حلاق، مكتبة الصحابة، الأمارات- مكتبة التابعين، القاهرة، الطبعة: العاشرة، 1426هـ- 2006م.

84. **الجملة** العربية تأليفها وأقسامها، لـ أ.د/ فاضل صالح السامرائي، دار الفكر، الطبعة: الرابعة، 1434هـ-2013م.

85. **جمهرة** أشعار العرب، لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي (ت: 170هـ)، حققه وضبطه وزاد في شرحه: علي محمد البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.

86. **جمهرة** اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: 321هـ)، المحقق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين- (بيروت)، الطبعة: الأولى: 1987م.

87. **الجنى** الداني في حروف المعاني، لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي (ت: 749هـ)، المحقق: د/ فخر الدين قباوة، أ/ محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية، (بيروت)، ط/1: 1413هـ- 1992م.

88. **حاشية** الجمل على الجلالين= الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، لسليمان بن عمر العجيلي الشافعي (ت: 1204هـ)، وبهامشه كتابان: تفسير الجلالين، لجلال الدين السيوطي، وجلال الدين المحلي، وإملاء ما من به

الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن، لأبي البقاء عبد الله بن الحسين العكبري، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه- (مصر).

89. **حاشية** الشهاب على تفسير البيضاوي" عناية القاضي وكفاية الراضي على تفسير البيضاوي، لشهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (ت: 1069هـ)، دار النشر: دار صادر- (بيروت).

90. **حاشية** الصاوي على الجلالين، للإمام أحمد الصاوي المالكي، دار إحياء الكتب العربية.

91. **حاشية** الصبان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، لأبي العرفان محمد بن علي الصبان الشافعي (ت: 1206هـ)، دار الكتب العلمية (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى، 1417هـ- 1997م.

92. **حاشية** القونوي على تفسير الإمام البيضاوي، لعصام الدين إسماعيل بن محمد الحنفي (ت: 1195هـ)، منشورات: محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى، 1422هـ- 2001م.

93. **حاشية** محيي الدين شيخ زاده على تفسير القاضي البيضاوي، لمحمد بن مصلح الدين القوجَوي الحنفي (ت: 951هـ)، ضبطه، وصححه، وخرج آياته: محمد عبد القادر شاهين، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، ط/1: 1419هـ- 1999م.

94. **حروف** المعاني بين الأصالة والحداثة، لـ أ.د/ حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب- (دمشق): 2000م.

95. **حلية** الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني (ت: 430هـ)، السعادة- بجوار محافظة (مصر)، 1394هـ- 1974م.

96. **حياة** الحيوان الكبرى، لمحمد بن موسى بن عيسى بن علي الدميري، أبي البقاء، كمال الدين الشافعي (ت: 808هـ)، دار الكتب العلمية، (بيروت)، الطبعة: الثانية، 1424هـ.

97. **خصائص** التعبير القرآني وسماته البلاغية، لـ أ.د/ عبد العظيم إبراهيم محمد المطعني (ت: 1429هـ)، رسالة دكتوراه، مكتبة وهبة، الطبعة: الأولى: 1413هـ- 1992م.

98. **خصائص** الحروف العربية ومعانيها، لـ أ.د/حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (دمشق)، 1998م.

99. **الخصائص**، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: 392هـ)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط/4.

100. **الدخيل** في التفسير، لفضيلة أ.د/ إبراهيم عبد الرحمن محمد خليفة، أستاذ ورئيس قسم التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين والدعوة بالقاهرة، جامعة الأزهر، قدم له: أ.د/ عبد الفتاح عبد الغني العواري، أستاذ التفسير وعلوم القرآن، وعميد كلية أصول الدين بالقاهرة، وأ.د/ محمد سالم أبو عاصي، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بكلية أصول الدين والدعوة بالقاهرة.

101. **الدر المصون** في علوم الكتاب المكنون، لأبي العباس، شهاب الدين أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (ت: 756هـ)، تحقيق: د/أحمد محمد الخراط، دار القلم، (دمشق).

102. **الدر المنثور** في التفسير بالمأثور، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، دار الفكر- (بيروت).

103. **دراسات** في فقه اللغة، لـ د/ صبحي إبراهيم الصالح (ت: 1407هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة: الأولى: 1379هـ- 1960م.

104. **الدلالة** الصوتية في اللغة العربية، لـ د/ صالح سليم عبد القادر الفاخري، المكتب العربي الحديث- (الإسكندرية).

105. **دلائل** الإعجاز في علم المعاني، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار، (ت: 471هـ)، المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة– دار المدني بجدة، الطبعة: الثالثة: 1413هـ- 1992م.

106. **رسالة** أسباب حدوث الحروف، لابن سينا، تحقيق: محمد حسان الطيان، ويحي مير علم، تقديم، ومراجعة: د/ شاكر الفحام، أ/ أحمد راتب النفاخ، مجمع اللغة العربية بدمشق.

107. **الروايات** التفسيرية في فتح الباري، لعبد المجيد الشيخ عبد الباري، رسالة دكتوراه، الناشر: وقف السلام الخيري، الطبعة: الأولى، 1426هـ- 2006م.

108. **روح** البيان، لإسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، (ت: 1127هـ)، دار الفكر– (بيروت).

109. **زاد** المسير في علم التفسير، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت:597هـ)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي– (بيروت)، ط/1: 1422هـ.

110. **زهرة** التفاسير، لمحمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد، أبي زهرة (ت: 1394هـ)، دار الفكر العربي، ط/ مجمع البحوث الاسلامية.

111. **السبعة** في القراءات، لأحمد بن موسى بن العباس التميمي، أبي بكر بن مجاهد البغدادي (ت: 324هـ)، المحقق: شوقي ضيف، دار المعارف– (مصر)، الطبعة: الثانية،1400هـ.

112. **سبل** السلام، لمحمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني الكحلاني ثم الصنعاني أبي إبراهيم عز الدين، المعروف كأسلافه بالأمير (ت: 1182هـ)، دار الحديث.

113. **السراج** المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير، لشمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (ت: 977هـ)، مطبعة بولاق (الأميرية– القاهرة)، عام النشر: 1285هـ.

114. **سنن** الدار قطني سنن، للإمام أبي الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدار قطني (ت: 385هـ)، حققه، وضبط نصه، وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، مؤسسة الرسالة، (بيروت– لبنان)، الطبعة: الأولى، 1424هـ- 2004م.

115. **السنن** الكبرى، للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، البيهقي (ت: 458هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت– لبنان)، الطبعة: الثالثة، 1424هـ- 2003م.

116. **شرح** أدب الكاتب لابن قتيبة، لموهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر بن الحسن، أبي منصور ابن الجواليقي (ت: 540هـ)، قَدَّمَ له: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، (بيروت).

117. **شرح** الأشموني على ألفية ابن مالك، لعلي بن محمد بن عيسى، أبي الحسن، نور الدين الأُشْمُوني الشافعي (ت:900هـ)، دار الكتب العلمية، (بيروت، لبنان)، ط/1: 1419هـ- 1998م.

118. **شرح** التلويح على التوضيح، لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني (ت: 793هـ)، مكتبة صبيح- مصر.

119. **شرح** الزرقاني على موطأ الإمام مالك، لمحمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الثقافة الدينية– القاهرة، الطبعة: الأولى، 1424هـ- 2003م.

120. **شرح** الكافية الشافية، لمحمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجياني، أبي عبد الله، جمال الدين (ت: 672هـ)، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة، الطبعة: الأولى.

121. **شمس** العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، لنشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت: 573هـ)، المحقق: د/ حسين بن عبد الله العمري، مطهر بن علي الإرياني، د/ يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت- لبنان)، دار الفكر (دمشق- سورية)، الطبعة: الأولى: 1420هـ- 1999م.

122. **الصحاح** تاج اللغة وصحاح العربية، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (ت: 393هـ)، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين- (بيروت)، الطبعة: الرابعة: 1407هـ- 1987م.

123. **صحيح** ابن حبان بترتيب ابن بلبان، لمحمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي (ت:354هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة– (بيروت)، الطبعة: الثانية: 1414هـ– 1993م.

124. **صحيح** البخاري= الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وسننه وأيامه، لمحمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، ط/1: 142هـ.

125. الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، لـ أ.د/ حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، الطبعة: الأولى: 1420هـ- 1999م.
126. **صحيح** مسلم= المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام، لمسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – (بيروت).
127. **عدة** الصابرين وذخيرة الشاكرين، لمحمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين بن قيم الجوزية (ت: 751هـ)، دار ابن كثير، (دمشق- بيروت)، مكتبة دار التراث، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة: 1409هـ- 1989م.
128. **علم** الصوتيات، لـ أ.د/ عبد الله ربيع، وأ.د/ عبد العزيز علام.
129. **علوم البلاغة** (البيان، المعاني، البديع)، لأحمد بن مصطفى المراغي (ت: 1371هـ)، بدون.
130. **عن** علم التجويد القرآني، في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة، لـ أ.د/ عبد العزيز أحمد علام، 1427هـ- 2006م.
131. **عنوان** الدليل من مرسوم خط التنزيل، لأبي العباس أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المعروف بابن البناء المراكشي (ت: 721هـ)، تحقيق هند شلبي، دار الغرب الإسلامي، (بيروت– لبنان)، ط/1: 1990م.
132. **عون** المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، لمحمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبي عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (ت: 1329هـ)، دار الكتب العلمية– بيروت، ط/2: 1415هـ.
133. **العين**، لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: 170هـ)، المحقق: د/ مهدي المخزومي، د/ إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.
134. **غاية** الوصول في شرح لب الأصول، لزكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري، زين الدين أبي يحيى السنيكي (ت:926هـ)، دار الكتب العربية الكبرى- (مصر).
135. **غرائب التفسير** وعجائب التأويل، لمحمود بن حمزة بن نصر، أبي القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (ت: نحو505هـ)، دار القبلة للثقافة الإسلامية- (جدة)، مؤسسة علوم القرآن- (بيروت).
136. **الغريب** المصنف، لأبي عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (ت: 224هـ)، المحقق: صفوان عدنان داودي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: السنة السابعة والعشرون، العددان (104، 103) 1416- 1417هـ.
137. **الفاخر**، للمفضل بن سلمة بن عاصم، أبي طالب (ت: نحو 290هـ)، تحقيق: عبد العليم الطحاوي، مراجعة: محمد علي النجار، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، الطبعة: الأولى، 1380هـ.
138. **فتح** الباري شرح صحيح البخاري، لأحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، دار المعرفة– (بيروت)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن باز، 1379هـ.
139. **فتح** القدير، لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: 1250هـ)، دار ابن كثير، دار الكلم، الطيب – (دمشق، بيروت)، ط/1: 1414هـ.
140. **فتوحات** الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب المعروف بحاشية الجمل، لسليمان بن عمر بن منصور العجيلي الأزهري، المعروف بالجمل (ت: 1204هـ)، دار الفكر.
141. **فصل** الخطاب في الزهد والرقائق والآداب، لمحمد نصر الدين محمد عويضة، بحسب الموسوعة الشاملة.
142. **فصل** المقال في شرح كتاب الأمثال، لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (ت: 487هـ)، المحقق: إحسان عباس، مؤسسة الرسالة، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى: 1971م.
143. **فصول** البدائع في أصول الشرائع، لمحمد بن حمزة بن محمد، شمس الدين الفناري (أو الفَنَري) الرومي (ت: 834هـ)، تحقيق: محمد حسين محمد حسن إسماعيل، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى: 2006م - 1427هـ.
144. **فقه** السنة، لسيد سابق (ت: 1420هـ)، دار الكتاب العربي، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الثالثة، 1397هـ- 1977م.
145. الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي رحمه الله تعالى، لـ د/ مُصطفى الخِنْ، ود/ مُصطفى البُغا، علي الشّرْبجي.

146. **الفقه** المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، د/ مُصطفى الخِنْ، د/ مُصطفى البُغا، علي الشّرْبجي، دار القلم للطباعة والنشر والتوزيع، (دمشق)، الطبعة: الرابعة: 1413هـ- 1992م.
147. **الفقه** الميسر في ضوء الكتاب والسنة، لمجموعة من المؤلفين، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، 1424هـ.
148. **الفواتح** الإلهية والمفاتح الغيبية الموضحة للكلم القرآنية والحكم الفرقانية، لنعمة الله بن محمود النخجواني، ويعرف بالشيخ علوان (ت: 920هـ)، دار ركابي للنشر، (الغورية، مصر)، ط/1: 1419هـ- 1999م.
149. **كتاب** التعريفات، لعلي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: 816هـ)، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى: 1403هـ- 1983م.
150. **الكتاب المصنف** في الأحاديث والآثار، لأبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (ت: 235هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد- (الرياض)، الطبعة: الأولى، 1409هـ.
151. **الكتاب**، لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، أبي بشر، الملقب بسيبويه، (ت: 180هـ)، المحقق: عبد السلام محمد هارون، ط/ دار الكتب العلمية، نشر الخانجي- القاهرة، الطبعة الثالثة: 1408هـ- 1988م.
152. **الكشاف** عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري، جار الله، (ت: 538هـ)، دار الكتاب العربي- بيروت، الطبعة: الثالثة، 1407هـ، الكتاب مذيل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الاسكندري (ت: 682هـ)، وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعي.
153. **كشف** الخفاء ومزيل الإلباس، لإسماعيل بن محمد بن عبد الهادي الجراحي العجلوني الدمشقي، أبي الفداء (ت: 1162هـ)، المكتبة العصرية، تحقيق: عبد الحميد بن أحمد بن يوسف بن هنداوي، الطبعة: الأولى: 1420هـ- 2000م.
154. **الكشف** والبيان عن تفسير القرآن، لأحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبي إسحاق (ت: 427هـ)، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة، وتدقيق: أ/ نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، (بيروت- لبنان)، ط/1: 1422هـ- 2002م.
155. **الكشكول**، لمحمد بن حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي الهمذاني، بهاء الدين (ت: 1031هـ)، المحقق: محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، (بيروت- لبنان)، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1998م.
156. **الكليات**= معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبي البقاء الحنفي (ت: 1094هـ)، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، (بيروت).
157. **لباب** التأويل في معاني التنزيل، لعلاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبي الحسن، المعروف بالخازن (ت: 741هـ)، المحقق: تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية- (بيروت9، الطبعة: الأولى: 1415هـ.
158. **اللباب** في علوم الكتاب، لأبي حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: 775هـ)، المحقق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية- (بيروت- لبنان)، ط/1: 1419هـ- 1998م.
159. **لسان** العرب، لمحمد بن مكرم بن علي، أبي الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي (ت:711هـ)، دار صادر، (بيروت)، ط/3: 1414هـ.
160. **اللطائف** والظرائف، لعبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبي منصور الثعالبي (ت: 429هـ)، دار المناهل- (بيروت).
161. **مباحث** في علوم القرآن، لمناع القطان (ت: 1420هـ)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط/3: 1421هـ- 2000م.
162. **مجلة الأزهر**، العدد: جمادى الآخرة: 1442هـ- يناير/ فبراير: 2021م، الجزء (6)، السنة (94).
163. **محاسن** التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (ت: 1332هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية- (بيروت)، الطبعة: الأولى: 1418هـ.
164. **المحتسب** في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، لأبي الفتح عثمان بن جني الموصلي (ت: 392هـ)، وزارة الأوقاف- المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، الطبعة: 1420هـ- 1999م.
165. **المحكم** والمحيط الأعظم، لأبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: 458هـ)، المحقق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية- (بيروت)، الطبعة الأولى: 1421هـ- 2000م.

166. **مختار** الصحاح، لزين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: 666هـ)، المحقق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية- الدار النموذجية، (بيروت- صيدا)، الطبعة الخامسة: 1420هـ- 1999م.

167. **مخطوطة** الجمل= معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، لحسن عز الدين بن حسين بن عبد الفتاح أحمد الجمل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مصر)، ط/1: 2003- 2008م.

168. **مراح** لبيد لكشف معنى القرآن المجيد، لمحمد بن عمر نووي الجاوي البنتني إقليما، التناري بلدا (ت: 1316هـ)، المحقق: محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية- (بيروت)، الطبعة: الأولى: 1417هـ.

169. **مسند** الإمام أحمد، لأبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: 241هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، عادل مرشد، وآخرين، إشراف: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط/1: 1421هـ- 2001م.

170. **المصنف**" مصنف عبد الرزاق، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: 211هـ)، المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي- (الهند)، الطبعة: الثانية، 1403هـ.

171. **مطالب** أولي النهى في شرح غاية المنتهى، لمصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحيباني مولدا ثم الدمشقي الحنبلي (ت: 1243هـ)، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، 1415هـ- 1994م.

172. **معاني** القرآن وإعرابه، لإبراهيم بن السري بن سهل، أبي إسحاق الزجاج (ت: 311هـ)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، (بيروت)، ط/1: 1408هـ- 1988م.

173. **معاني** القرآن، لأبي زكريا يحيي بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت: 207 هـ)، المحقق: أحمد يوسف النجاتي، محمد علي النجار، عبد الفتاح إسماعيل الشلبي، دار الكتب المصرية للتأليف والترجمة، الطبعة الأولى: 1374هـ- 1955م.

174. **المعاني** الكبير في أبيات المعاني، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: 276هـ)، المحقق: المستشرق د/ سالم الكرنكوي (ت: 1373هـ)، وعبد الرحمن بن يحيى بن علي اليماني (1386هـ)، مطبعة دائرة المعارف العثمانية- حيدر آباد الدكن بالهند، ط/1: 1368هـ- 1949م.

175. **المعجم** الاشتقاقي المؤصَّل لألفاظ القرآن الكريم (مؤصَّل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها، وبين معانيها)، لـ أ.د/ محمد حسن حسن جبل، مكتبة الآداب، (القاهرة)، ط/1: 2010م.

176. **معجم** الفروق اللغوية، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (ت: نحو 395هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ (قم)، ط/1: 1412هـ.

177. **المعجم** الكبير، لسليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبي القاسم الطبراني (ت: 360هـ)، المحقق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية- (القاهرة)، الطبعة: الثانية.

178. **معجم** اللغة العربية المعاصر. لـ د/ أحمد مختار عبد الحميد عمر (ت: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة: الأولى: 1429هـ - 2008م.

179. **معجم** ديوان الأدب، لأبي إبراهيم إسحاق بن إبراهيم بن الحسين الفارابي، (ت: 350هـ)، تحقيق: د/ أحمد مختار عمر، مراجعة: د/ إبراهيم أنيس، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، (القاهرة)، عام النشر: 1424هـ- 2003م.

180. **معجم** مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (ت: 911هـ)، تحقيق أ.د/ محمد إبراهيم عبادة، مكتبة الآداب، (القاهرة)، ط/1: 1424هـ- 2004م.

181. **معجم** مقاييس اللغة، لأحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبي الحسين (ت: 395هـ)، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، عام النشر: 1399هـ- 1979م.

182. **مغني** اللبيب عن كتب الأعاريب، لعبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبي محمد، جمال الدين بن هشام (ت: 761هـ)، المحقق: د/ مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله، دار الفكر- (دمشق9، الطبعة: السادسة، 1985م.

183. **المفردات** في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت: 502هـ)، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، (دمشق، بيروت)، ط/1: 1412هـ.

184. **المفردة** القرآنية في نظم الجملة الحالية في سورة البقرة "دراسة تفسيرية تحليلية"، رسالة مقدمة، لنيل درجة العالمية (الدكتوراه)، في شعبة أصول الدين، قسم التفسير وعلوم القرآن، كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بـ (القاهرة)، لـ د/ أمل محمد عبد الفراج علي راشد، مدرس التفسير وعلوم القرآن، بجامعة الأزهر الشريف، إشراف: أ.د/ محمد عبد المنعم خريبة، أستاذ التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، ود/ فتحية رشوان أحمد، مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر، عام: 2016م.

185. **المفصل** في صنعة الإعراب، لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: 538هـ)، المحقق: د/ علي بو ملحم، مكتبة الهلال- (بيروت)، الطبعة: الأولى، 1993م.

186. **المفضليات**، للمفضل بن محمد بن يعلى بن سالم الضبي (ت: نحو 168هـ)، تحقيق، وشرح: أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون، دار المعارف– (القاهرة)، الطبعة السادسة.

187. **المقتضب**، لمحمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبي العباس، المعروف بالمبرد (ت: 285هـ)، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، (بيروت).

188. **المنهاج** الواضح للبلاغة، لحامد عوني، المكتبة الأزهرية للتراث.

189. **الموافقات**، لإبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (ت: 790هـ)، تحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة: الأولى: 1417هـ- 1997م.

190. **موسوعة** الأخلاق والزهد والرقائق، لياسر عبد الرحمن، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، (القاهرة)، ط/1: 1428هـ- 2007م.

191. **موسوعة** الرقائق والأدب، لياسر بن أحمد بن محمود بن أحمد بن أبي الحمد الكويس الحمداني، بدون.

192. **موسوعة** الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور لـ أ.د/ حكمت بن بشير بن ياسين، دار المآثر للنشر والتوزيع والطباعة- المدينة النبوية، الطبعة: الأولى: 1420هـ- 1999م.

193. **موسوعة** الفقه الإسلامي، لمحمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، بيت الأفكار الدولية، الطبعة: الأولى: 1430هـ- 2009م.

194. الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- الكويت، الطبعة الثانية، دار السلاسل- الكويت.

195. **الموسوعة** القرآنية المتخصصة، لمجموعة من الأساتذة والعلماء المتخصصين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، (مصر)، عام النشر: 1423هـ- 2002م.

196. **النبأ** العظيم، للشيخ دراز (حقائق، وتجليات)، لـ أ.د/ محمد سالم أبو عاصي، عميد كلية الدراسات العليا بجامعة الأزهر سابقا، وهو أحد مقررات جامعة الأزهر، للعام الجامعي: 2021- 2022م.

197. **نتائج** الفكر في النحو، لأبي القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي (ت: 581هـ)، دار الكتب العلمية- (بيروت)، الطبعة الأولى: 1412هـ- 1992م.

198. **النحو** الوافي، لـ أ.د/ عباس حسن (ت: 1398هـ)، دار المعارف، الطبعة: الخامسة عشرة.

199. **النظام** المقطعي في قراءات سورة النساء، وأثره في الدلالة (دراسة صوتية، وصفية، تحليلية)، وهي رسالة قدمت، لنيل درجة التخصص (الماجستير)، في شعبة اللغة العربية، قسم أصول اللغة، كلية اللغة العربية بالقاهرة، لـ د/ نادية عيد إسماعيل فيوض، مدرس أصول اللغة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات بكفر الشيخ، إشراف أ.د/عبد العزيز أحمد علام، أستاذ أصول اللغة المتفرغ بالكلية، د/ علي طه ياسين، مدرس أصول اللغة بالكلية: 1439هـ- 2018م.

200. **نظم** الدرر في تناسب الآيات والسور، لإبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت:885هـ)، دار الكتاب الإسلامي، (القاهرة).

فهرس الموضوعات

المقدمة.	
أسباب اختيار الموضوع.	
اهمية البحث.	
مشكلة البحث.	
الهدف من دراسته.	
الدراسات السابقة.	
إضافة البحث العلمية.	
خطة البحث.	
منهج البحث، وإجراءاته.	
الفصل الأول: أسلوب القسم في سورة العصر. وفيه مبحثان.	
المبحث الأول: تحقيق معنى القسم. وفيه مطلبان.	
المطلب الأول: حقيقة القسم في ضوء اللغة.	
التعليق على الصنيع اللغوي والتأصيل المعجمي.	
التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالات اللغوية، وتفعيل الاستعمالات العربية.	
أولا: الكشف عن حقيقة أسلوب القسم، والإيغال في بيان كنهه.	
ثانيا: إعلان خصائص القسم، وإبراز ملامحه الأسلوبية.	
ثالثا: الإنباء عن بواعث ورود أسلوب القسم، واسرار إيثاره.	
رابعا: الإفصاح عن بلاغة أسلوب القسم في سياقه، والإشعار بتمكن فرائده.	

201. **نكت** وتنبيهات في تفسير القرآن المجيد، لأبي العباس البسيلي التونسي (ت: 830 هـ)، مما اختصره من تقييده الكبير عن شيخه الإمام ابن عرفة (ت: 803 هـ) وزاد عليه، تقديم وتحقيق: أ/ محمد الطبراني، منشورات وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية- المملكة المغربية، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، الطبعة: الأولى، 1429هـ- 2008م.

202. **الهداية** إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه، لأبي محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (ت: 437هـ)، تحقيق مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي، جامعة الشارقة، بإشراف أ.د/ الشاهد البوشيخي، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة، ط/1: 1429هـ- 2008م.

203. **الواضح** في علوم القرآن، لمصطفى ديب البغا، ومحيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، دار العلوم الانسانية- (دمشق)، الطبعة: الثانية، 1418هـ- 1998م.

204. **الوجيز** في فقه السنة والكتاب العزيز، لعبد العظيم بن بدوي بن محمد، قدم له: فضيلة الشيخ/ محمد صفوت نور الدين، وفضيلة الشيخ/ محمد صفوت الشوادفي، وفضيلة الشيخ/ محمد إبراهيم شقرة، الناشر: دار ابن رجب– (مصر)، الطبعة: الثالثة، 1421هـ- 2001م.

205. **وصف** (عربي) في النظم القرآني "حقيقته، وأسراره"، لـ د/أمل محمد عبد الفراج علي راشد، المدرس بقسم التفسير وعلوم القرآن، بجامعة الأزهر الشريف، بحث مستل من حولية كلية أصول الدين- (القاهرة)، العدد (33)، للعام: 1441هـ-2020م.

206. **وفيات** الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان البرمكي الإربلي (ت: 681هـ)، المحقق: إحسان عباس، دار صادر- (بيروت)، الطبعة: 1900م.

خامسا: التنويه به، والترغيب في العمل بمقتضاه، والإذعان له.	
سادسا: الإعراب عن وظائفه السياقية.	
سابعا: الإشعار بأحوال استدعاء القسم، والإيذان بكونه من مقتضيات المقام.	
ثامنا: الإيحاء بكيفية دراسته، والإشارة إلى سبيل اكتشاف أسراره.	
معايشة لبعض مدلولات المادة، واستصحاب استعمالاتها.	
ما وراء استعمالات مادة (ق س م).	
المطلب الثاني: حقيقة القسم اصطلاحا.	
أولا: تعريفه عند السادة المفسرين.	
ثانيا: عند العلماء المعنيين بعلوم القرآن.	
ثالثا: عند علماء الحديث.	
رابعا: عند علماء الفقه.	
خامسا: عند العلماء المعنيين بالحدود.	
تعليق.	
تذييل: العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي.	
المبحث الثاني: التعريف بسورة العصر، وبيان القضايا التي تستهدف تقريرها إجمالا. وفيه مطلبان.	
المطلب الأول: بطاقة تعريفية بسورة العصر.	
أولا: اسم السورة.	
ثانيا: زمكان نزول السورة.	
ثالثا: موقع السورة، ومناسبتها لسياقها.	
المطلب الثاني: القضايا التي تعالجها السورة الكريمة إجمالا.	
الفصل الثاني: سبائك أسلوب القسم في نظم السورة. وفيه خمسة مباحث.	
المبحث الأول: السبيكة الأولى: فرائد المقسم به.	
المطلب الأول: المفردة الأولى: (واو القسم) خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية.	
مبنى أسلوب القسم، وخصائصه.	
إجمال أسباب الحذف القرآن الكريم، وأدلته.	
دلالة حذف فعل القسم وفاعله، وأثره التفسيري في النظم القرآني.	
خصائص (الواو) الدلالية، وأبعادها التفسيرية.	
المطلب الثاني: المفردة الثانية: ﴿الْعَصْرِ﴾ حقيقتها، وأسرارها.	
أولا: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية.	
التعليق.	
ثانيا: الدلالة اللغوية عند السادة المفسرين.	
التوسع في المعنى؛ بتوظيف الدلالات اللغوية، والاستعمالات العربية، والأوجه التفسيرية.	
الكشف عن كنه مسمى المفردة.	

إظهار خصائص العصر والتصريح بأهم مظاهره، وكشف اللثام عن أبرز أحواله.	
الإيذان بأبرز مقوماته.	
الإفصاح عن سر القسم بالعصر.	
التنويه بحقيقة فعل العصر بالإنسان.	
الإيغال في ارتسام علاقة المظروف بظرفه.	
أوجه تمكن المفردة في نظمها، وسر تعينها دون سواها.	
الجانب التصويري في عمارة البناء القرآني.	
الإشارات الكامنة في طيات المفردة القرآنية.	
المبحث الثاني: السبيكة الثانية: فرائد المقسم عليه. وفيه خمسة مطالب.	
المطلب الأول: ﴿إِنَّ﴾ خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية.	
العلاقة بين معنى المفردة وبين طبيعتها التأليفية، وخصائص أحرفها الدلالية.	
الأثر التفسيري للتأكيد.	
المطلب الثاني: المفردة الثانية: ﴿الْإِنْسَانَ﴾ حقيقتها، وأسرارها.	
أولا: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية.	
ثانيا: حقيقته عند علماء الحد.	
التعليق.	
الاستعمال القرآني للبعد الإنساني.	
السياقات القرآنية التي عُنِيَتْ بالحديث عن الإنسان وخصائصه الظلامية.	
في رحاب المفردة ضمن سياقتها القرآنية عند الإمام البقاعي.	
تعليق.	
أولا: الإنباء عن ملكات هذا الإنسان.	
ثانيا: الإخبار عن خلقه، وطبائعه.	
ثالثا: الإفصاح عن أظهر أفعاله.	
رابعا: الإعراب عن أبرز أحواله.	
المطلب الثالث: المفردة الثالثة: (اللام) الداخلة على الخبر: خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية.	
المطلب الرابع: المفردة الرابعة: (في) الظرفية: خصائصها الدلالية، وآثارها التفسيرية.	
وظيفتها في ضوء الدرس النحوي.	
التعليق.	
وظيفتها في ضوء الدرس اللغوي.	
التعليق.	
تذييل: لطيفة معجمية، وحقيقة لغوية، ومعجزة قرآنية.	
المطلب الخامس: المفردة الخامسة: ﴿خُسْرٍ﴾ حقيقتها، وأسرارها.	
أولا: الدلالة اللغوية، والاستعمالات العربية.	

ثانيا: الأوجه التفسيرية الواردة في المفردة القرآنية.	
التعليق.	
التوسع في المعنى؛ بتوظيف الأبعاد الدلالية للمفردة القرآنية ﴿خُسْر﴾.	
ثالثا: الدلالة الصرفية، وأثرها التفسيري في النظم القرآني.	
رابعا: الدلالة النحوي، وأثرها في النظم.	
إيحاءات الكسرة الصوتية، وخصائصها الدلالية.	
المبحث الثالث: المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه.	
المبحث الرابع: تتمة أسلوب القسم في نظم السورة الكريمة.	
المبحث الخامس: المناسبة بين أسلوب القسم والقضايا التي تُعْنَى بإثباتها السورة الكريمة.	
الخاتمة.	
أهم النتائج.	
أبرز التوصيات.	
فهرس المصادر والمراجع.	
فهرس الموضوعات.	